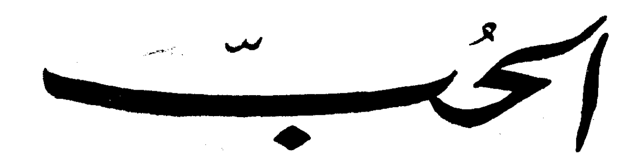


تأليف

د. ليو بوسكاليا

ترجمة

صبرى الفضل



١٩٩٦

الحُب

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
أحمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
علياء أبو شادى

فهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

أهدى هذا الكتاب الى أبى وأمى ٠٠ من كانا افضل أساتذتى فى الحب ، لأنهما لم يعلماه لى ، انهما أسبغاه على ٠

كما أهدى هذا الكتاب الى كل هؤلاء الذين ساعدونى بالاستمرار على النمـو فى الحب ، والى هـؤلاء الذين سيسـاعدوننى فى المستقبل ٠

صبرى الفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

هذا كتاب مختلف ٠٠ من بين آلاف الكتب ، التى تصدر يوميا فى العالم ، فى مختلف الشئون ، والمواضيع ٠ يتميز هذا الكتاب بموضوعه وأسلوبه ، فموضوعه أرق عاطفة بشرية ينبض بها قلب الانسان وهى الحب ، وأسلوبه سهل ، واضح ، ميسر رغم حساسية الموضوع والحاجة الى استخدام تعريفات خاصة تتميز بالرفاهة والرقة ٠

وكتاب « الحب » لمؤلف أمريكى من أصـل ايطالى ، يعمل أستاذا بالجامعات الأمريكية ، وقد حدثت له صدمة وجدانية متمثلة فى انتحار فتاة شابة من طلبته ، كانت تتميز بالذكاء والصفاء ولكن أحدا لا يعلم ما كان يفتعل بداخلها ودفعها الى الانتحار ، وأسف الأستاذ فى قرارة نفسه على أنه لم يحاول أن يفهمها فهما جيدا فربما كان يستطيع أن يمنع عنها هذه النهاية الأليمة ، وهذه هى القاعدة التى يسير عليها الناس جميعا ، خاصـــة فى أمريكا ٠٠ يلتقون ولكن لا يتلاقون ٠٠ يتعـارفون ولكن لا يتحابون ٠ ان دوامة الحياة الأمريكية تسحق الجميع ، ولا علاج لهذه الحال الا بجرعة كبيرة من الحب والود والتفاهم تسود العلاقات بين الناس ، والا بقى كل منهم بمثابة بالونة منتفخة مهددة بالانفجار ٠

وفكر هذا الأستاذ فى دراسة وعلاج هذه النقطة وهى « الحاجة الى الحب » ، وكون على الفور فصلا دراسيا أو حلقة دراسية اختيارية ينضم اليها من يشاء من الطلبة ، ولا تحسب نتائجها فى الدرجات النهائية ، الهدف منها دراسة فكرة « الحب » ، ومن حصيلة مجهوداته ومجهودات الطلبة طوال ثلاث سنوات جاء هذا الكتاب ٠

والحب الذى أسفرت عنه الدراسة ليس مجرد العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة ، وانما هو الحب بمعناه الواسع الشامل الذى يتسع لكل الأشياء والعلاقات ٠٠ الله ٠ الطبيعة ٠ البشر ٠ الأشياء ، وهو عاطفة لابد منها لتليين الحياة مثل الزيت المطلوب لموتور السيارة ، وبدون هذا الزيت يحترق الموتور ولا تسير السيارة ٠

ومأساة الحياة الأمريكية ان هذا « الزيت » ينقصها الى حد كبير ، انها حياة ماديه جافة لاهثة ، وهذا ما ينتقده المؤلف بشدة ، ولكنه مع ذلك يستخدم المنهج الأمريكي فى دراسته مع تطعيمه بروح الشرق الودية ، والغنيه بالمشاعر الانسانية ، ويبدو أن أصله الايطالى ونشأته الأولى فى اسرة ايطالية مهاجرة كانت من العوامل التى أثرت فى تفكيره بشدة ، خاصة أنه لقى الاضطهاد ، وهو طفل صغير فى المدارس الأمريكية لكونه مختلفا .

وأسلوب الكتاب يتنقل بالقارىء بين الحقائق العلمية ، والتجارب الشخصية ، والأمثال ، والحكايات الشعبية ، والذكريات وهو يجمع بين الفلسفة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع والتربية فى باقة متكاملة بحيث يصعب أن ترده الى فرع واحد من العلوم الانسانية .

أما ترجمة صبرى الفضل فهى تتميز بالدقة والسلاسة ، كما أنه وضع مقدمة للكتاب فى أكثر من ٦٠ صفحة أودعها فلسفته الخاصة فى « الحب » بنظرة شاملة أيضا ، تتصاعد الى حب الله فى النهاية . وهذا هو موضوع « التصوف » الاسلامى الذى كتب فيه كثير من المتصوفة ، والشعراء العرب . ويستعرض صبرى الفضل أقوال وأشعار الكثيرين منهم مما أثرى الكتاب ، وجعله فى ترجمته العربية أوسع احاطة وأدق مدلولا ، من أصله الانجليزى .

انه كتاب يانع الجودة فى موضوع مهم محبب ، لا يدرى عنه الكثيرون شيئا رغم كثرة استخدام كلمة « الحب » على الشفاه ، وحتى تصل هذه الكلمة الى شغاف القلب وتجعل الحياة تسير وفقا لها لابد من قراءة هذا الكتاب ومقدمته .

ونحن أيضا فى مجتمعنا الحالى الذى بدأ للأسف يتنكر للعواطف الانسانية وينحو منحى ماديا فى أشد الحاجة الى هذه الجرعة من فلسفة الحب ، ولذا ، أنصح بقراءته مرات ومرات .

محمد العزب موسى

مقدمة الطبعة العربية

الحـــب :

ذات يوم جاءنى صـــديق ، وكان قارئا جيدا ، يسكن تحت جلده شاعر فرعونى منحدر منذ آلاف السنين ، وكان وقتها مشـغولا بفتاة ، تستحوذ على فكره ، اسمها « **ابتسام** » ، كانت قد أخبرته بأنها لا تحب اسمها وكم ودته أن تغيره ، وناولنى وريقات وردية اللون ، فامسكت بها مستفسرا :

ـ ما هـــذا ؟

قـــال :

ـ اقـــرأ !

ففضضت الوريقات المعطرة ، التى ما زلت أحتفظ بها حتى الآن ، وقـرأت :

« ا ب ت س ا م »

حروف اسمك الأولى بداية الأبجدية ..

والجنة تحت أقدام نهايتها .

فى عيونك السود أشواق قبيلة بدائية ..

غجرية .. عصبية .. بدوية ..

والحور الحالم آيتهــا .

فى صوتك الناعم رقة كلام حاشية الأباطرة .

ينقصك فنان عظيم يرسم لك لوحة مزلزلة ! .

لكن هل يستطيع أن يرسم النعومة التى فى صوتك ؟

ربما ينقصك أن يقول فيك شاعر عالمى أبياتا لم يسبقه فيها أحد !
لكن هل يستطيع أن يعبر عن جمالك الساحر المحترس ؟

فجمالك لا يثق فى الرجال ..
أيهم الذئب أو الدجال !!
مع أنه تحرسه ضمائر قبائل كاملة ..
من أفضل أنواع الرجال .

لو كنت مفسر أحلام لفسرت لغزك يا حلم الأبدية ! .
ستقولين وهى حقيقة ..
أنا انسانة بسيطة ..
فى حين أنك تشبهين السؤال المعجز ..
الذى ألقاه أبو الهول على سكان طيبة .

لو كنت أعرف لغة الطير مثل سليمان الملك ! .
لجعلت أجمل طيور الدنيا تغنى لك ..
ولو كنت أملك سحر ايزيس أسطورة الأساطير ..
لجمعت فى راحتى رحيق كل زهرة يانعة ..
وقدمتها هدية رمزية منى لك .

ان الأرواح لأجناد مجندة ..
لله فى الأرض بالأهواء تعترف ..
من تعارف منها ائتلـــف ..
ومن تنافر منها اختلف ..

وروحى لروحك كالزهرة الى رحيقها تنتمى
جفونى تدارى بعضا منك ..

أغمضها حتى لا تفضح سرى ··
وأفتح عينى على ما حولى فتبحث عنك ·

أرى القمر المضيء فتقول عينى ··
فى القمر اشراقة منك ··
ولحظ عينيك يصدر ما تشائين من شجن لذيذ ··
هى لى أوامر صارمة ··

وتتحسس عيناى الفارق الناصع الممتد ··
من شعرك الأسود حتى القدم ··
فيغنى لى بريق عينيك ··
لكنك أغلى عندى من أوهام العينين ··
ومقرك المعروف لى هو مكنون قلبى ··

وأنا يا منتهى شوقى لست بسليمان الملك ··
ولا أنا بايزيس أسطورة الأساطير ··
ولا أنا بمفسر أحلام ملهم ·
ولا حاجة بى الى أن أكون واحدا منهم ··
فأنت لى صديق أخفاه الغيب حتى نلتقى ··

فلأجعل من أيامى نهرا من عاطفة مثلى لا تغيب ··
ولأسجد لربى خالقى وخالقك ··
وفى قلبينا نداء صوفى حبيب ··
دمت لى صديقا ودمت لك ··
يهمس همسه الناعم الدائب الرتيب ··
أنت لى ·· وأنا لك ··

أنت لى ‥ وأنا لك ‥

أنت ‥ أنا ‥

أنت ‥ **أنا** ‥

أنا ‥ أنا ‥

أنا ‥ **أنا** ‥

فقلت له وأنا أتأمل الوريقات الوردية المعطرة :

ـ انك متأثر بشاعرنا الرقيق أحمد رشدى صالح ‥ ولكنه الحب يا **صديقى** ! ومضيت وأنا أسأل نفسى : **ما هو الحب ؟** …

وبعد ذلك بقليل ، وقعت فى يدى رسالة عجيبة ، وأثناء قراءتى لها شعرت بما يشعر به من ينتقل فجأة الى المكسيك أو التبت . فكل شىء كان غريبا تماما عنى . فاللغة غير مألوفة ، والجو غير الذى كنت أتنفسه من قبل . كانت الرسالة خاصة بالموسيقا والموسيقيين لعازفة بيانو مشهورة . والكاتبة تعيش ، وتتحرك ، وتسير ، فى عالم لم أعرفه أبدا ‥ فرسالة من المريخ لن تكون أكثر ابهارا أو طرافة من هذه ، ولكن دعنى أسرع لصلب الموضوع . كانت كاتبة الرسالة تتحدث عن معرفتها بعازف بيانو بارع يحضر حفلاته معجبون من شتى أنحاء العالم ‥ ولكنها تمضى **فتقول** : انه يوجد شىء مفقود ! فهذا العازف الوحيد الصموت يتسرب الى عزفه بعض البرودة والتحفظ ، ثم ذكرت كاتبة الرسالة اسم عازفة بيانو مألوف اسمها فى الأوساط الموسيقية فى العالم ، وتقول الكاتبة ان هذه السيدة الفنانة اللامعة ، وضعت يدها ذات يوم على كتف العازف الشاب النابه ، **وقالت** :

ـ اسمح لى أن أقول لك يا بنى ان عزفك ينقصه شىء واحد ، وبه فقدت أعظم شىء فى الوجود ، ألا وهو الحب . وان لم تحب فسيظل الكمال البارد موجودا فى موسيقاك . وان لم تحب انسانا حبا عاطفيا ، وتؤثره على نفسك ، فلن تمس القلوب الانسانية بالعمق الذى يجب عليك .

والآن ، أعترف أننى عندما انتهيت من الرسالة ، شعرت أنى فى مناخ غريب ، كما لو أننى مغترب من الاسكيمو ، وجئت أعيش فى مصر .

كما جاء فى جزء آخر من الرسالة ، أنه فى أحد الأيام ، وفى نهاية درس البيانو ، تطلعت التلميذة الى وجه مدرستها وقالت لها ان لديها سرا تريد أن تفضى به لها ·

فقالت المدرسة :

ـ أعرف ذلك ، بالرغم من أنه ليس بسر ·

فأخبرتها الفتاة بأنها تحب ·

فاجابت المدرسة :

ـ نعم ، ولكن هذا ليس بجديد ·· لقد حدث منذ فترة !

ـ تمام ! ولكن كيف عرفت ذلك ؟

ـ لاحظت الفرق فى عزفك على الفور ، ولاحظت من وقتها التغيير وكنت أنتظر أن تخبرينى أنت بنفسك ·

ان ذلك يستحق التفكير فيه ، لأنه نفس الشىء الذى نقـــابله فى مجالات أخرى غير الموسيقا · انه ليس لمجرد أن الحب يضفى على الحياة اهتماما جديدا ، أو نشـــوة جديدة ، أو حتى منظرا جديدا · أنى لازلت أذكر قصيدة « المحب » **لتنيسون** ـ Tennyson ، منذ كنت طالبا فى قسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة :

لا تدع أحدا يسألنى كيف جاء الحب ·

فأنا سعيد به ···

كزمردة أكثر اخضرارا تتلألأ فى الحشائش

أو ياقوتة أكثر زرقة تذوب فى البحر » ·

وما جاء فى الرســـالة يعنى أن الحب يحرر الطاقات التى كانت ببساطة كامنة مستترة من قبل ·

لقد لفت انتباهنا أحد مكتشفى القطب الى ظاهرة متفردة · أخبرنا أنه منذ سنين رست مجموعة من البحارة على جزيرة فى المحيط المتجمد الشمالى ، ولسوء الحظ تسببوا فى اشعال حريق فى الخضرة الشحيحة التى تغطى هذا المكان غير المضياف ، فتركوها صخرة جرداء سوداء ··· وبعدها بسنوات عديدة ، رست مجموعة أخرى من البحارة فوجدوها مغطاة

بغـابة من الأشجار الفضية الجميلة ، جـذوعها تلمع فى ضـوء الشمس الخافت ، وأوراقها ترتعش فى الريح · وما كان هذا الا منظر حب فى عالم الخضرة · لقد أيقظت اللهب البذور الغافية ، التى فى قبضة البرد الثلجى القاسية ، والتى رقدت هاجعة عبر السنين · لقد ازدهر القحط وتفتحت البرية ، مثل الوردة ·

وها هى الرسالة تقول لى : انه عندما تتحرك روح الانسان ، وتغمرها أعظم عاطفة فى الحياة تتفجر طاقات جديدة غير متوقعة فى نشاط مثمر ،

وتقول احدى الشاعرات :

« رغم انحناء النقاد للفن ، وأنا محبة حقيقية له ،
فانه ليس الفن الذى يكسب العالم الواسع بهاء ، بل انه القلب
ورغم كمال لمسات العازف فقليلها ، ان وجد ، ما يهزنا ·
الا اذا شعرنا بنبضات قلبه عبر الموسيقا التى يعزفها ·
انها ليست مهارة الفنان ، التى تتسلل بلطف الى أرواحنا ،
مع فرحة تكاد تكون أسى ، انما هو شعور العازف وأحاسيسه » ·

وفكرت ، رغم ترددى أن أقول ، ان كل هذا قد يفسر غموضا ليس له حل ، فكثير منا : المدرسون والمهندسون والأطباء ، وما شابه ، كثيرا ما نواجه بصرخات كثيبة ، بل وبحقائق أكثر كآبة ، أليس وضعنا مثل الموسيقى العازف ، نفتقد هذا العنصر العاطفى الرقيق ، الذى يتسبب فى كل هذا الاختلاف ؟

فلا مدعاة للشــك فى أن الحب يمـارس تأثيرات متفردة ويطـوع المفاتن الكامنة :

وعلا مرة أخرى صوت سؤالى : **ما هو الحب ؟** ...

ولأتجاسر وأقول ببساطة وايجاز ان الحب هو احساس لعاطفة قوية أو عميقة ، وانها احدى العواطف الانسانية الأساسية ، ومع ذلك فهو من أعقد وأصعب ما يمكن تعريفه · وغالبا ما يقترن الحب بأحاسيس مثـل الشوق ، والفرح ، والحماس ، والاعجاب ، والميل ، والاخلاص والرضا ، والتفانى الروحى · وكل شخص له طريقته الخاصة فى التعبير عن الحب ،

وذلك وفق شخصيته ، ومزاجه ، وبيئته الاجتماعية • وبصفة عامة ، فالحب مصدر للسعادة ، والسرور بين الناس •

والحب يلعب دورا مهما فى العلاقات الانسانية • وتشتمل تنويعاته العديدة على : الحب بين الرجل والمرأة ، وبين الآباء والأبناء ، وبين الأصدقاء • ومبدأ الحب ليس محصورا فى شعور الفرد نحو فرد آخر • فالانسان قد يحب الحياة ، والحقيقة ، والفضيلة ، والمعرفة ، والجمال ، والوطن ، والانسانية ، وعديدا من أمور أو أفكار أخرى •

وبالرغم من أن كثيرا من الناس قد حاولوا أن يصفوا الحب وتأثيراته ، ومع ذلك ، فلا يوجد وصف مرض تماما • وظل الحب هو الموضوع المفضل عند الشعراء والروائيين ، الذين غالبا ما يظهرون أن الحب قد تصحبه عواطف أخرى قوية ، مثل الغيرة ، والكراهية • ولقد حلل علماء النفس المحدثون النزاعات العاطفية ، والاجتماعية المتنوعة ، التى قد توجد فى علاقات الحب •

أما كلمة الحب فى معناها الدينى العريض فتنطبق على العلاقة الروحية بين الانسان وربه ، المتميزة عن الحب الحسى بين الرجل والمرأة •

والحب له وظيفة قيمة فى المجتمع • فالاهتمام العميق بالآخرين يعزز التجانس ، ليس فى الزواج فقط ، ولكن فى المجتمع ، وبين الأمم أيضا • فحب الانسان لأخيه الانسان هو قيمة تساندها كل الأديان ، والنظم الأخلاقية فى العالم •

والحاجة للحب ، وأن تحب شىء عام ، ويؤمن معظم علماء النفس اليوم بأن الاحساس بالحب شىء حاسم ، وضرورى للنمو الطبيعى للانسان عقليا ، وعاطفيا • ويعتمد الطفل فى مرحلة نموه المبكرة اعتمادا كبيرا على حب الأم ورعايتها • وفيما بعد يبحث عن العاطفة عند أبيه ، وبقية أفراد الأسرة • ويتعلم الطفل ، الى جانب بحثه وتطلعه الى أن يحب ، وأن يعبر عن حبه للآخرين • لذلك يؤكد علماء النفس على أهمية البيئة الأسرية التى تظللها المحبة والحنان فى نمو الطفل السليم عاطفيا •

وفى بداية مرحلة الشباب يتجه الانسان الى تكوين علاقات وطيدة ، مع أفراد مختلفين من بين قرنائه ، وزملائه ، ومدرسيه ، وأقاربه ، وجيرانه • ومعظم العلاقات الوطيدة ، غالبا ما تتكون أثناء الطفولة

والمراهقة · وغالبا ما يوطد الشخص علاقة خاصة فى نهاية مرحلة المراهقة وبداية الشباب ، ويزداد اهتمامه بشخص ما من الجنس الآخر ، وربما يفضى به ذلك الى شريك حياته ·

والحب الرومانتيكى هو ما قد يشعر به كل من الرجل والمرأة نحو الآخر من عاطفة متأججة ، وكثيرا ما يكون أساسا للغزل والزواج · وهو الارتباط العاطفى الذى يميز أحاسيس الفتى والفتاة فى الحب ، الذى قد يتطور فيما بعد الى رباط قوى دائم مبنى على اهتمامات عامة ، وخبرات مشتركة · ومن الممكن لأى زوجين أن ينميا عاطفة واهتماما متبادلا ، دون أن يخوضا تجربة الحب الرومانتيكى ·

التقاليد والمعتقدات الخاصة بالحب :

وتوجد أســـاطير ، ومعتقدات حـــول الحب فى معظم الثقافات ، والمجتمعات · وهو مرتبط عادة بالدفء أو النار ، ومصدره كما يقال القلب أو الصدر · وفى الفلكلور والمعتقدات الخرافية ، غالبا ما يرتبط الحب بالسحر · وكثيرا ما يعتقد أن أعمال السحر لها القدرة على ايقاع الناس فى الحب ·

وفى مثيدولوجيا القدماء ، غالبا ما يشخص الحب فى شكل اله أو الهة · **فافروديت** هى الهة الحب والجمال عند الاغريق وابنها ايروس هو اله الحب ، الذى عادة ما يصور حاملا قوسا وسهاما ، واصابة من سهامه تنتج اما حبا أو كراهية · ويقابله عند الرومان كيوبيد ، والهة الحب فينوس ، التى جاءت لاحلال العاطفة الأرضية فى الأدب والفن ، فى القرون الوسطى · ويقابله **فريا عند** الاسكندنافيين ، **وايجوس** عند الكلتيين ، وكاما عند الهنود ، وايزن مايو عند اليابانيين ·

الحب فى الأدب والموسيقا :

انعكست مواقف الحب فى الأدب ، والشــعر ، والدراما ، فى كل العصور · فأغنية سليمان فى العهــد القديم تشتمل على أجمــل أشــعار الحب ، التى تعبر عن العلاقة العاطفية بين فتاة وحبيبها ، وكثيرا ما تفسر على أنها ترمز للحب بين الله والانسان أو بين المسيح والناس ·

وفى الأدب الاغريقى القديم تصف أســاطير هوميروس ، النابضــة بالحياة ، علاقات الحب بين الآلهة · والأشعار العاطفية للشاعر الاجريقى سافو أعجب بها الجميع وقلدوها ، فى كل العصور ·

وفى الأدب الرومانى توجد ربما أعظم قصة حب مشـهورة ، هى قصة **ديدو وانياس** ، فى انيادة **فرجيل** ٠

وجاء العرب بقصص وروايات مثل : قيس وليلى ، وجميل وبثينة ، وكثير وعزة ، وعنتر وعبلة ، فيها روائع من الشعر والحكايات ، التى تتغنى بالحب ، فتغنت بها أجيال وراء أجيال ٠

وفى القرن الرابع عشر أخبرنا الشاعر الايطالى بترارك ، عن حبه لفتاة اسمها لورا ، فى سـونيتات تعتبر من أشهر ما عبر عن الحب الأفلاطونى ، أو الروحى ٠ وألهمت بياتريس ، دانتى ، فى كتابة أعظم أشعاره ، وفى كوميديته الالهية ، قادته وعبرت به الفردوس ٠ وأشهر أشعار الحب فى العصر الاليزابيثى ، هى **سونيتات** شكسبير ٠ ويعتبر روميو وجوليت أشهر ثنائى رومانتيكى فى الأدب العالمى ٠ وهناك قصة حب أخرى مأساوية خلدها شكسبير ألا وهى أنطونيو وكليوباترا ٠ وجاء بعد ذلك ، بطل لورد بايرون المغامر « دون جوان » ، الذى أصبح نمطا للمحب الرومانتيكى ، فى القرن التاسع عشر ٠

ومن بين أفضل قصائد الحب المعروفة هى سونيتات اليزابيث باريت « من البرتغالية » ٠ (١٨٥٠) الموجهة لروبرت براوننج ٠

وكثير من الأوبرات الشهيرة ، موضـوعها الأساسى هو الحب ٠ ويمكننا أن نجد الحب الشـاب بطبيعته الرقيقة المبهجة ، فى أوبرات كثيرة منها : « الناى السحرى » لموزارت ، و « دير روزنكا فالير » لرتشارد شتراوس ، و « أكسير الحب » لدونيزتى ٠ كما نجـد الحب العاطفى المأساوى ، فى أوبرات كثيرة أخرى ، مثل : « تريستان وايزولدة » لفاجنر ، و « عايدة » لفيردى ، و « لابوهيم » لبوتشينى ، و « كارمن » لبيزيه ٠

قالوا فى الحب :

ولأستسمح قارئى العزيز ، فى أن يصحبنى فى جولة لذيذة ، عبر بعض ما قيل عن الحب ، رغم تقصيرى فى عدم تذكرى لكثير من قائليها ، تليها سياحة سريعة للتراث التربوى الذى أثر فينا ، وفى نظرتنا للتربية ، والحب ٠

★ من يحب يحسـن صنعا ، ومن لا يعرف كيف يحب سـيهلك لا محالة ، أما الذى يحظر الحب فسوف يهلك مرتين ٠

« كتبت فوق جدران بومبى قبل دمارها سنة ٧٩ م » ٠

★ الحب لا يحتاج الى منطق يبرره ·· فهو نفسه منطق ·· هو نفسه سبب للحياة ·

★ الذى يســألنى ·· لـماذا تحب ·· كمن يسألنى ·· لماذا يدق قلبك ·· ولماذا تتنفس ·· ولماذا خلقت ·· فالحب لا يحتمل كلمة لماذا ·· انه فى حد ذاته سبب كاف يبرر أى شىء ·

★ الحب هو الذى جمع الذرة الى جوار الذرة فصنع منها جزيئها ، وهو الذى جمع الجزئيات فصنع منها مادة ·· وهو الذى جمع النجوم والكواكب فى أفلاك دوارة لا ينفرط عقدها منذ الأزل ··

★ انه صفة أصيلة فى الوجود ·· أن تحن أجزاؤه الى بعضها ·· لأن فيهــا شيئا مشتركا ·· هى الخامة المشتركة التى خلق الله منهــا الدنيــــا ··

« **مصطفى محمود** » ·

★ أحبب لغيرك ما تحب لنفسك ·

★ من أجــل عينيك ، أحاول أن أحلق فوق أحــزانى الجارحة · فأبحث عنك بحث الغريق عن طوق النجاة ·

★ مرحى لعشاق الحياة
لا تخافوا من نداء كوكب الجمال بالليل
وعانقوا خيمة نوره الفضى بلا ملل
واحذروا ما عشتم ظلام القلوب الشريرة ·
وأبدا ، لا تخافوا من الجمال فى الطبيعة أو البشر ·
ولا تخافوا أبدا من الحب
بل خافوا دائما من الكراهية ·

« **جبران خليل جبران** » ·

★ نحن مصنوعون من الفناء ·· ولا ندرك الأشياء الا فى لحظة فنائها نشعر بصحتنا حينما نخسرها ·
ونشعر بحبنا حينما نفقده ·
فاذا دام شىء فى يدنا فاننا نفقد الاحساس به ·

★ مهما بأعدت بينها وبينى مسافات المكان والزمان فأنت يا طيفها الغالى ستبقى معى ٠

عطاء قلبين ، يخفقان معا ، فى ايقاع واجد
قلبها المحمول الى آخر الدنيا
وقلبى الباقى هنا ، محمولا بين ضلوع الصدر
لتظل يا طيفها الغالى تدور حولى أينما ذهبت
فلا أشعر بالاغتراب ولوعة الشجن !
ولا تشعر هى ، بأنها ـ حقا ـ قد تركت أرضنا الطيبة الى الأبد ٠

« **أحمد رشدى صالح** » ٠

★ لا فرق بين الحب والكراهية ٠٠ كلاهما نار ٠٠ كلاهما اهتمام شديد وارتباط حار بين قلبين ٠

والكراهية تكلف أكثر من الحب ٠٠ لأنها احساس غير طبيعى ٠٠ احساس عكسى مثل حركة الأجسام ضد جاذبية الأرض ٠٠ تحتاج الى قوة اضافية ، وتستهلك وقودا أكثر ٠٠

★ الكراهية نمو الى تحت ٠٠ وليست نموا الى فوق ٠٠ انهـا نمو يتغذى على نفسه ويأكل بعضه ٠٠ والحب الذى ينقلب بسرعة من غرام ملتهب الى كراهية ملتهبة ٠٠ هو الحب الشهوانى الأنانى ضيق الأفق الذى لا يحالفه الفهم والعقل ٠

★ ان انتقال الحب فجأة الى البغض لا يدل على انفتاح العقل على فهم عميق ، ولا يدل على انفتاح النفس على تسامح كريم ٠٠ ولا يكشف عن احساسـات روحية رحيبة ٠٠ وانما هو يكشف عن شـح ، وبخل شديدين ٠٠ ويدل على انحصار النفس فى رغبة واحدة أنانية ، أو لذة محددة ٠٠ ما تلبث أن تقلب الحب حقدا ٠٠

★ والحب سر من أسرار الله ٠٠ كالرزق ٠٠ و :

اذا كانت الأرزاق قسـما مقـدرا ... فقلة حرص المرء فى الكسب أجمل
وان كانت الأموال للترك جمعهـا ... فما بال متروك به الحر يبخـل

★ و :

يفنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحـوادث ما يبقى وما يـدع
كـدودة القز ما تبنيـه يهلكهـا ... وغيرهـا بالذى تبنيـه ينتفـع

★ والحب سر من أسرار الله ٠٠ كالروح ٠٠ و :

ان القلوب لاجنـــاد مجنـــــدة	للـه فى الأرض بالأهـواء تختلف
فما تعارف منهـا فهـو مؤتلـف	وما تناكر منها فهو مختلـف

« **أبو نواس** » ٠

★ الحب الزائد هو حب مر غيور ملتهب أعمى ، يبهظ صاحبه لدرجة أنه ينقلب الى كراهية وعداوة ٠

★ المحب بافراط ٠٠ يكره حبيبته من فرط حبه لها ٠٠ لأن حبه يكلفه ويرهقه ويبهظه ويؤرقه ٠٠ فهو يتمنى لو أنهـا تعذبت وتألمت وسـهرت وتشردت مثله ٠ وكل شىء يزيد عن حـده ينقلب الى ضـده ٠ والسعادة فى أن تحب الدنيا والناس وأن تواتيك الفرصة بنصيب قليل من خيراتها ٠ فالقليل الذى تحبه يسعدك أكثر من الكثير الذى لا تحبه ٠

والدوافع هى الحياة ٠٠ هى الترجمـة الحرفية لكلمـة روح ٠ اللهم امنحنا القليل من كل شىء والكثير من الروح ٠

★ ان كنت تجهل ما حكايات الهوى	فأنصت لوشوشة النسيم اذا سرى
واستنجدت روحى الخيال فخاننى	وكبا جـواد فصاحتى وتعثـرا
أدركت تقصـيرى وضـعفى عندما	أبصرت ما صـنع الاله وصـورا
ليس التعبـد أن تبيت على الطوى	وتروح فى خـرق من الأثـواب
لكنـه انقـاذ نفس معـذب	من ربقـة الآلام والأوصـاب

★ ليس التعبـد عزلـة وتنسـكا	فى الدير أو فى القفر أو فى الغاب
لكنه ضبط الهـوى فى عالـم	فيه الغوايـة جمـة الأسبـاب
وحبائل الشـيطان فى جنبـاته	والمـال فيه أعظـم الأربـاب

★ الحب عاطفة غير ديمقراطية ٠

انه طاغية حر ٠٠ حرية لا تقبل المراجعة ٠

انه الحرية التى تسقط فيها الموانع ٠٠ ويختفى الآخرون ، ولا يبقى فيها الا أنا وحبيبى ٠٠ أنا وروحى ٠٠ أنا وأنا ٠

وهذا سر اللذة التى تصيبنا بالدوار ونحن نحب ٠٠ والحالة الملكية السلطانية التى نعيش فيها ونحن نعشق ٠

★ الحب ليس له صورة يعرف بها ٠

انه مرآة المزاج ٠٠ والمزاج متقلب مع العمر ٠٠ وله فصول ٠٠ مثل فصول الصيف والشتاء والربيع والخريف ٠

والمزاج دولة بلا دستور ، فهو الرقعة الوحيدة الحرام التى لا تدخلها معقولية ولا منطق ٠

والمزاج هو صميم شخصياتنا ٠

★ نحن ندفع كل ما نملك فى سبيل مزاجنا ٠٠ كما ندفع عمرنا فى سبيل حريتنا ٠٠ انه المزاج نقطة ضعفنا جميعا ٠٠ لأنه الثغرة التى يدخل منها الاغراء ، ولا يحرسها العقل ٠

اللهم اكفنى شر نزوات مزاجى ٠٠ أما نزوات عقلى فأنا كفيل بها ٠

★ ثمار المحبة تستحق كفاح العمر ٠ فبالحب يحل الانسجام والنظام فى الجسد والروح ٠ وما الصحة الا حالة الانسجام التـام والنظام فى الجسد ، واذا كان الحب لم يشف أحدا الى الآن ٠٠ فلأننا لم نتعلم بعـد كيف نحب ٠٠

الرجل يحب امرأة وينتحر من أجلها ، ويقتل ويختلس ويرتشى ويرتكب جريمة ويظن أن هذا هو منتهى الحب ، وهو لم يدرك بعد أن الحب هو أن يحب الكل ٠٠ أن ينظر الى كل طفل على أنه ابنه ، وكل كهل على أنه أبوه ٠٠ وأن يكون حبه لامرأته سببا يحب من أجله العالم كله ٠

★ الحب شىء غير الجنس ٠

★ الحب أدواته الذكاء والحس المرهف والعاطفة المتوقدة والبصيرة الشفافة والفطرة النقية والوجدان المتألق ٠

★ الحب لا شبع فيه لأنه ليس خطة وفخا الى لقاء جسدى عابر ، ولكنه تجاوز دائم للواقع واحتمالاته وتخط لحاجز الجسد بحثا وراء لقاء عميق واتحاد فى الجوهر ··

★ الحب الحقيقى لا يطفئه حرمان ·· ولا يقتله فراق ·· ولا تقضى عليه أية محاولة للهرب منه ·· لأن الطرف الآخر يظل شاخصا فى الوجدان ·

★ الحب لون نادر غريب من ألوان الاتحاد ·· كما تتحد العناصر فى الطبيعة فينشأ عنها مركبات لا يمكن تفريقها الى عناصرها الا بالتسخين ·· كما يذوب السكر فى الماء فلا يمكن فصله الا بالحرارة والتبخير ·· وأحيانا يكون الاتحاد وثيقا عميقا مثل اتحاد مكونات الذرة ·· اذا تيسرت القوة الكامنة لتفريقها انفجرت وأدت الى قنبلة ذرية ·

والحب بالمثل اتحاد شديد العمق يؤدى التفريق فيه الى سلسلة من انفجارات العذاب والألم قد تستمر حتى الموت ·

وقد تنتهى بتغير الشخصية تماما وتحولها ·· كما يتحول الراديوم بعد تفجر الاشعاع بداخله الى رصاص ··

« **مصطفى محمود** » ·

★ والحب عند **تاجور** قد يجمع بين القلب البشرى والقلب الأخرس للأشياء ، وقد يجمع أيضا بين القلب البشرى والقلب الخفى للوجود ، وقد يجمع كذلك بين القلب البشري الواحد وقلوب غيره مجتمعة · وفى كل ذلك يمتد الحب ويتجاوز حدود المكان والزمان ، المرئى واللامرئى ، الطبيعى وما وراء الطبيعى ، ليكون فى النهاية قانونا ومظلة وهواء لكل النـــاس !

ومن أقواله فى الحب :

★ ان الذى يبغى عمل الخير يطرق الباب ، أما الذى يحب فيجد الباب مفتوحا ·

ـ قالت القوة للعالم : أنت ملكى ، فسجنها العالم على عرشها ، وقال الحب للعالم : انى لك ، فوهب العالم له الحرية فى داره !

★ كلمة واحدة تبقى لى فى صمتك أيها العالم حين أموت : هى أننى أحببت ·

★ اننا نعيش فى هذا العالم حين نحبه ٠

★ فلتكن آخر كلماتى أننى أثق فى حبك !

★ كن محبا تر الوجود حكمة ٠

★★★

★ الحب قطعا ليس اتحـادا بالجسد ، وليس هوى نفسـين ، ولا تلاؤم مزاجين ، ولا تفاهم عقليتين ، ولا هو ارتياح الفطرة الى فطرة أخرى تعاشرها ٠٠ انه يحتوى على كل هذا بالطبع ٠٠ ولكنه يحتوى على ما هو أكثر ٠

★ ولقد هممت بقتلها من حبهـا كيمـا تكون خصميتى فى المحشر

★ وما ألطفه من معنى وما أرقه من مزج صورة الاتحاد حتى لا نمتاز، فنكون فى العين واحدا :

رق الزجـاج ورقت الخمـــر فتشـابها وتشـاكل الأمـــر

فكأنمـا خمـــر ولا قـــدح وكأنمـا قـــدح ولا خمـــر

★ الحب وحدة أصيلة تجمع الاثنين عبر كل حدود الممكن والواقع ، ورغم حوائل الزمان والمكان٠٠وحدة لا يجدى فيها فراق ولا تبترها قطيعة٠٠ فهى تبدو أحيانا كوحدة تاريخية قديمة ٠٠ اذا كان من الممكن أن يكون لكل نفس من هذه النفوس تاريخ قديم قبل أن تولد ٠٠ فكل منهما يشعر أنه كان يعرف الآخر منذ زمن وأنه ليس غريبا عليه ٠

★ الحب وحدة غامضة لم يجد لها العلم اسما ٠ ليس عندنا غير هذه الكلمة الصوفية القديمة « الروح » نسمى بها ما نشعر به ولا نعرفه فى داخلنا ٠٠

★ الحب كالفن والدين تقف كلهـا على أبواب الميتافيزيقا ٠ انها ظواهر مختلفة لما يخفى وراء مدركاتنا الحسية ٠

– ان الحب بين الناس هو شريعة الحياة ، عنده يلتقون ، وأمامه يتساوون وعلى عتباته تزول ما بينهم من فوارق ، وتذوب ما بينهم من خصومات ، وعن الحب تتفرع جميع مظاهر الحياة ٠

– العمل أساسه الحب ، وكل رباط يربط بين القلوب والعقول والضمائر ، ومشكلات الوجود جميعها أولها وآخرها ، وما بينها من مراحل التقلب والتطور ترجع الى أصل واحد ، يفسر لنا السر المختفى وراء هذا الوجود ، وهو الحب ٠

– يقول **جبران خليل جبران :**

« ولعمرى ان الحياة ظلام ، الا اذا صاحبها الحافز ٠

وكل حافز ضرير ، الا اذا اقترن بالمعرفة ٠

وكل معرفة هباء ، الا اذا رافقها العمل ٠

وكل عمل خواء ، الا اذا امتزج بالحب ٠

فاذا امتزج عملك بالحب فقد وصلت نفسك بنفسك ، وبالناس ، وبالله ٠٠٠ » ٠

– لا تتم المحبة بين اثنين ، حتى يقول أحدهما للآخر : يا ٠٠ أنا ٠

– لم يحدث قط فى العالم أن قضى على الكراهية بالكراهية ، فلا شيء ينزع البغضاء غير الحب ٠

« **جواتاما بوذا** » (*) ٠

– الحب نار خالدة أبدية الاشراق ، انها نفثة الروح الكلية التى يسمو وجودها فوق الزمان والمكان والتاريخ ، بل ان :

« الأبدية لا تبقى على غير الحب لأنه مثلها » ٠

فليست الأبدية غير الروح الكلية أو الاله الذى لا يمكن أن يكون شيئا سوى المحبة والرحمة ٠

(★) الاسم بوذا هو لقب دينى معناه « المستنير » بيد أن الرجل الذى كان يحمل هذا اللقب كان يعرف بين معاصريه باسم جوتاما ٠

ـ لقد رأى الحلاج أن الأديان كلهـا وجهات نظر مختلفة لحقيقة واحدة يفسرها الجميع ويطلقون عليها أسماء مختلفة لا تغير من جوهرها .

ـ ونظرة الشاعر العربى الصوفى الكبير ابن الفارض الى المؤمنين بدين غير دينه ، فى تقدير وحب استمرارا لتقاليد عربية عبر عنها ، فى تائيته الكبرى :

وما عقـد الزنار حكما سـوى يدى	وان حـل بالاقرار بى فهى حلـت
وان نار بالتنزيل محراب مسجد	فما بار بالانجيل هيكل بيعة (١)
وأسفار توراة الكليم لقومـــــه	يناجى بهـا الأحبار فى كل ليلة
وان خر للأحجار فى البد(٢) عاكف	فلا وجـه للانكار بالعصبيـــــة

ويقول أعظم شعراء الصوفية « **ابن عربى** » :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى	اذا لـــم يكن دينى الى دينـه دان
وقد صار قلبى قابلا كل صـورة	فمرعى لغزلان ، ودير لرهبـــان
وبيت لأوثان ، وكعبـــة طائـف	وألواح توراة ، ومصـحف قـرآن
أدين بدين الحب أنى توجهــت	ركائبه فالحب دينى وايمانى (٣)

ويقول **جبران خليل جبران** فى « النبى » :

اذا أومأ الحب اليكم فاتبعوه

وان سلكتم الصعب وصعدتم فى الوعر

واذا بسط عليكم جناحيه فأسلموا له القيادة

وان جرحكم سيفه المستور بين قوادمه .

واذا حدثكم فصدقوه .

---

(١) البيعة : الكنيسة .

(٢) البد : هو الصنم عند البوذيين ، تمثال بوذا ، بوذا نفسه : Buddha

والمعنى أنه اذا سجد للأصنام فى معبد بوذا عاكف ، فلا محل للانكار عليه ، والا كان ذلك تعصبا .

(٣) ترجمان الأشواق .

وان كان لصوته أن يعصف بأحلامكم كما تعصف ريح الشــمال بالبستان ٠

ان الحب اذ يكلل هاماتكم ، له أن يعذبكم فيصلبكم فهو اذ يشد من عودكم ليشذبن منكم الأغصان وكما يرتقى الى أعالى آفاقكم ويداعب أغصانكم الغضة تميس فى ضوء الشمس ٠

كذلك ينزل الى جذوركم ، العالقة بالأرض فيهزها هزا ٠

ويضمكم الى أحضانه كما يضم حزمة قمح ٠

فيدرسكم لكى يعريكم ٠

ثم يغربلكم فيخلصكم من القشور

ثم يطحنكم فيردكم دقيقا أبيض

ثم يعجنكم لتلينوا ،

ثم يسلمكم الى نار هيكله المقدسة ، عل أن تصيروا الخبز المقدس لمائدة الرب المقدسة ٠

كل هذا يفعله الحب بكم ، كى تعرفوا أسرار قلوبكم ، وبهذه المعرفة ، تصبحون فلذة من قلب الوجود ٠

أما اذا دب فيكم الخوف فلم تنشدوا فى الحب الا الدعة والمتعة ، فأولى بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة ،

الى عالم لا تتعاقب فيه فصــــول ، حيث تضــحكون ، ولكن دون استغراق ، وتبكون ولا تنهمر كل الدموع ٠

فالحب لا يعطى الا ذاته ، ولا يأخذ الا من ذاته ·

والحب لا يملك ، ولا يملكه أحد ·

فالحب حسبه أنه الحب ·

ولا تظنن أنك قادر على توجيه مسرى الحب ،

فانما الحب يقودك ان وجدك حقيقا به ·

ـ الحب لا ينشد الا تحقيق ذاته ·

فاذا أحببت ، ولم يكن بد من أن تساورك رغبات ،

فلتكن هذه رغباتك :

أن تذوب حتى تصبح كالغدير المنساب ، يغنى الليل ألحانه ·

وأن تحس الألم النابع من فيض حنان كبير ،

وأن تقبل الجرح الذى ينتابك من احاطة ذاتك لمعنى الحب ، وأن ينزف دمك عن رضا وابتهاج ·

وأن تنهض مع الفجر بقلب مجنح ، لتستقبل شاكرا يوما فى الحب جديدا ·

وأن تقيل مع الظهيرة مستغرقا فى نشوة الحب ،

وأن تعود مع الأصيل الى مأواك عارفا للجميل ،

ثم تخلد الى النوم ، وقلبك يسبح بمن تهوى ، وشفتاك ترتجفان بأنشودة الحمد » ·

ـ « دعاء أرسله من القلب الى من أبدع هذا الكون

أن تغدو ساعات العمر لكل الناس

ساعات سعادة ومحبة

يصنعها الإنسان طليقا حرا

وترسمها قدرات العقل المتجدد

وترسل فيها نبض الفرحــة

قلوب انسانية تعطى ولا تسأل

وتضيء مشاعل الزمن الدوار

عقول تفهم ان العالم قرية ملمومة

وأن الانسان هو أغلى ثروات الكون

وأن يد الانسان مبسوطة بالخير على هذا الكوكب

وأن ما يبقى زادا ينفع

هو شجاعة قلب يخفق حبا ورجاء

وشجاعة عقل متفتح

وشجاعة نفس مؤمنة حقا » ٠

والمسيح كان يشفى الناس بالحب ، وهناك أمراض لا علاج لها الا المحبة والتفاؤل والتســامح ، بل أكثر الأمراض هى نتيجة للحقـد والكراهية والحسد والبغضاء مثل ضغط الدم واضطرابات الغدد وعسر الهضم والأرق والشرود والحساسية التى سببها النفور والاشمئزاز ٠

ان الحساسية ذاتها نوع من النفور ٠ نفور الجسم من مواد غريبة عليه ٠ ثبت أن انخفاض الكورتيزون فى الدم سببه اليأس والاحباط ، ونتائج الغضب والقلق واليأس والبغضاء تعرض المرء لقرحة المعدة وتقلص القولون والسكر والذبحة وأمراض الغدة الدرقية ٠ جرب الحب والمحبة وابتعـد عن التشاؤم والشـماتة والحقـد والكراهية والحسد والاحباط وسترى وتلمس النتيجة الرائعة ٠

– فالنعمل عملا صالحا ، ونبتهل أن يظل حبل الرجاء والدعاء الطيب موصولا بيننا وبين من أنشأنا من العدم ٠

– وأية محاولة لفهم الحب عن طريق العقل والمنطق هى محاولة لابد أن تنتهى بالاخفاق ٠٠٠ لأن الحب احساس مركب معقد ، يدخل فيه

العقل والقلب والذوق والمشاعر والميول · هو سر مدهش من أعجب أسرار الخالق ، فهو كالروح ، سر من أسرار الله · انه ضـوء يكشف أعماق الانسان ·· اذا أحب بصدق ·· وهو ضوء يهدى الى الله ·· اذا كانت الفطرة سليمة ·

وجاء فى نشيد **اخناتون** الكبير :

« أنت يا من يشرق بجماله فى آفاق السماء

وتحيط بما خلقت جميعا

أيها الظاهر الباطن

مبدع الأجنة فى الأرحام

مطعم الجنين فى بطن أمه

ونافخ الحياة فى أديمه

فاذا ما خرج الى الدنيا

فتحت له فمه وحركت لسانه وشفتيه

بارىء الفرخ فى البيضة يتحرك فيها بأمرك

فاذا ما رزقته القوة على كسرها

غادرها الى الدنيا ساعيا على قدميه

الا ما أعظم ما ظهر للناس من بدائع خلقك

وما خفى كان أعظم

أيها الواحد الأحد » ·

أراد **اخناتون** فى نشيده الكبير ، أن نسمح للحياة بأن تلمس شغاف القلب الانسانى ، وأن تتغلغل فيه لتقابل الأعماق فتتحقق وحدة الحياة وجدانيا ليعجز الذهن عن التعبير عنها منطقيـا ، فيفيض القلب بالغناء والتسبيح ، ويشعر الانسان أنه قريب ، وأن له الحظوة الكبرى والمحل الأول ، فتبدو أمامه الدنيا والحياة على تعددها وكثرتها مظهرا لواحد أحد ··· وتلك الأنوار المشرقة تتهافت أمامها العروش ، فتغمر فرحـة الفيض الكون بأسره ، ويربط الحب الكل فى واحد ·

وأبو نواس نراه فى أخريات أيامه يتفجر فى قلبه نور الايمان فيتقرب الى الله والى محبته ، بعد أن كان منكبا على الدنيا وملذاتها **فاخذ يتبتل ويلوب فى احلى ما انشده :**

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

ويقول :

أيا رب قد أحسنت عودا وبدأة ... الى ، فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك ، وحجة ، ... فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

ويقول :

أيا من ليس لى منه مجير ... بعفوك من عذابك أستجير
أنا العبد المقر بكل ذنب ... وأنت السيد المولى الغفور
فان عذبتنى فبسوء فعلى ... وان تغفر فأنت به جدير
أفر اليك منك وأين الا ... اليك يفر منك المستجير

ويقول :

ساءك الدهر بشىء ... وبما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو ... الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء عن أصغر ... عفو الله أصغر
ليس للانسان الا ... ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير ... بل الله المدبر

ويقول :

يا سائل الله فزت بالظفر ... وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب الى الله لا الى بشر ... منتقل فى البلى وفى الغير
وارغب الى الله لا الى جسد ... منتقل من صبا الى كبر
ان الذى لا يخيب سائله ... جوهره غير جوهر البشر
مالك بالترهات منتقلا ... ألقى يديك الأمان من سقر ؟

ويقـول :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ويقـول :

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ان كان لا يرجوك الا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجـرم

أدعوك رب ، كما أمرت تضرعا ... فاذا رددت يدى ، فمن ذا يرحم

مالى اليك وســيلة الا الرجـا ... وجميل عفوك ثم أنى مســلم

ـ **أما أهل الله وأولياؤه** فللمحبة لديهم مقـام جليل ، فمن أشواقهم الى الله يبدءون والى مشـولهم بين يديه ينتهـون · فهـو الأول والآخـر ·

قالوا المحبة ان تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء ·

ـ **قيل لبعض العرب ما وجدت من حب فلانة ، قال :**

أرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس ·

ـ **وقال يحيى بن معـاذ :** المحبـة الخالصـة لا تنقص بالجفـاء ولا تزيد بالبر ·

ويقول بعضهم :

ـ « لا خير فى حب يدبر بالعقل » ·

ويقول أبو العباس القرانى :

ـ « المحب لا يعلل فعل المحبوب ، لأن التعليل من صـفات العقل ولا عقل للمحب » ·

ـ « الحب أملك للنفوس من العقل » ·

والمحبوب يعلل أفعال المحب بأحسن التعليل لأنه ملكه ، فيريد أن يظهر شرفه وعلوه ، حتى يعلو المحبوب ، اذ هو المالك ، وهو يحب الثناء على نفسه ، فالحب لا يجتمع مع العقل فى محل واحد ، فلا بد أن يكون حكم الحب يناقض حكم العقل ·

والمحب فى حكم محبوبه فلا تدبير له فى نفسه ، وانما هو بحكم ما يعطيه ويأمره به سلطان الحب المستولى على قلبه ٠

– **سئل ابن عطاء :** « الشوق أعلى أم المحبة ؟ » ، **فقال :**

– « المحبة لأن الشوق منها يتولد » ٠

– **وقالوا :** الشوق احتياج القلب الى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبة يكون الشوق حب الموت وهذا هو السر فى **قوله تعالى :**

« فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » ٠

أى أن من كان صاحب محبة يتمنى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة ٠

– **وقيل لبعض الصوفية :** « هل تشتاق اليه ؟ » ٠

فقال : « انما الشوق الى غائب وهو حاضر لا يغيب » ٠

– وقيل ان شعيبا بكى حتى عمى فرد الله اليه بصره ، ثم بكى حتى عمى فرد عليه بصره ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : « ان كان هذا البكاء شوقا الى الجنة فقد أبحتها لك ، وان كان خوفا من النار فقد أجرتك منها » ٠ فقال : « وحقك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقا اليك » ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبيى وكليمى عشر سنين » ٠

وقد أدرك الصوفية ما عمى عنه كثيرون ، وهو أن رحمة الله وحبه قريبان من المحسنين ، **ومنهم من يقول :**

« لأنا من أن أمنع الدعاء ، أخوف على من أن أمنع الاجابة » ٠

ومنهم من يقول :

« نعم الرب ربنا لو أطعناه ما عصانا » ٠

ويقول الله سبحانه فى قرآنه الكريم :

« ادعونى أستجب لكم » (١) ٠

---

(١) غافر : ٦٠ ٠

ويقول تعالى فى حديثه القدسى :

« **من مشى الى شبرا ، مشيت اليه ذراعا ، ومن مشى الى ذراعا ، مشيت اليه باعا ، ومن أتانى يمشى ، أتيته هرولة** » ·

و « **لو جئتنى بملء الأرض خطايا لجئتك بملئها مغفرة** » ·

ـ ان أهل الله يعرفون كم يحب الله عباده ، **ان أبوابه مفتحة لنا** جميعا ـ طائعين وعصاة ، أبرارا وخطائين ، انه ينادينا بالليل وبالنهار :

« **هل من مستغفر ، فأغفر له ، هل من مسترزق ، فأرزقه ؟** » ·

فلا يأس أبدا من فضـــله ، ولا خوف قط من غياب جوده وبره وعطائه ·

ـ **ويقول أبو يزيد البسطامى :**

« اذا قلت : يا رب أين الطريق اليك ؟ جاءك النداء :

خل نفسك ، وتعال » ·

والتخلى عن النفس فى هذا المقام ، هو أمثـــل طريق لاســتبقائها واعلائها ، وهو بعث جديد لها فى أكمل صورة ، وليس هنـــاك وجود حقيقى لغير الله ·

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

« كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا » ·

فعندما تتعلق بعظمة ربك ، وتتحقق من عجز نفسك ، فعندئذ تكون قد تخليت عنها ، وفى نفس الوقت ولنفس السبب تـكون قد وجدتها وامتلكتها وربحتها ·

ولا مكان لحظوظ النفس عند الذين يحيون فى حب مع الله ··

يقول الجنيـــد :

« التصوف ، أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به » ·

ويقولون :

« التصوف ، ألا تملك شيئا ، ولا يملكك شىء » ·

« التصوف حال تضمحل فيها معالم الشخصية » .

هذا هو التجرد الذى هو بدوره الالتزام للسـائرين الى الله .. وهو ليس ترفا روحيا .. بل فريضة محكمة ، لأنه التعبير الصحيح عن توحيد الله ..

ومن ثم فالتجرد عند « أهل الله » لا يقف عنـد التجرد عن حظوظ النفس وأهوائها ، ولا يعنى صرف الأبصار والبصائر عن الناس والدنيا.. بل يتخطى ذلك كله الى البعد المفقود ، حيث يتجـردون حتى عن رؤية الطاعات والقربات والمعاناة التى حققت لهم التجرد وسلكتهم فى موكب الواصلين ..

قال الشبلى يوما لرجل :

« أتدرى لم لا يصح توحيدك ؟

لأنك تطلبه بك » .

فالذى يظن أنه يطلب الله بجهـده هو ، وليس بتوفيق مطـلق من الله ، لا يحسن – فى رأيهم – التجرد ولا التوحيد .

وكانت لذى النون المصرى (٢٤٥ هـ) نظرية فى المحبة : فهو يرى أن ثمة حبا متبادلا بين العبد المحب وبين الرب المحبوب ، وأن هذا الحب من شأنه أن يوصل الانسان الى الاتحاد بربه اتحادا يشعر فيه باستغراق ذاته فى ذات الله . وهذا هو الحب الالهى الذى يرى ذو النون أنه يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه ، أو يبوح بشىء من أسراره لمن لايعرفون من الحب غير معناه المادى الحسى .

وأبو يزيد البسطامى المتوفى (٢٦١ هـ) ، عبر عن فنائه واتحاده فى ألفاظ وعبارات أخص ما تمتاز به ، أنها من قبيل الشطحات الجريئـة المسرفة فى بعد الخيال وغموض المعنى ، بحيث لايكاد القـارىء يقف عليها ، ويأخذها على ظاهرها ، حتى يحكم عليها بمنافاتهـا لتعاليم الشرع ، وعلى قائلها بالكفر والضـلال . ومن هذا القبيـل **قوله :** « لا اله الا أنا فاعبدونى سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله متحدثا عن الله وعمـا دار بينـه وبينـه بصـدد فنائه عن نفسـه واتحاده به : « رفعنى مرة فأقامنى بين يديه وقال لى : يا أبا يزيد ! ان خلقى يحبون أن يروك ، فقلت : زينى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتك ، وارفعنى الى أحديتك ، حتى اذا رآنى خلقك قالوا رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك » .

ويقول « **ذو النون المصرى** » :

« عرفت ربى بربى ·· ولولا ربى ما عرفت ربى » ·

فالله هو كل شيء ، وبه وحده تدرك الغايات ·

والتجرد من رؤية النفس حتى وهى فى أبهى فضائلها ، بعد تجردها عن رؤية الأغيار كافة ، هو حقيقة التوحيد ، ولبابه ·

وآية ذلك التجرد ماثلة فيما يقول « **أبو عبد الله القرشى** » :

« ألا يبقى لك منك شيء » ·

وآيته كذلك ، تعرية كل قوى الحياة المستعارة ، والرجوع بفاعلية الأسباب الى مصدرها الحق سبحانه وتعالى ··

ـ وحين يتوفر للعبد هذا القدر من التجـــرد والتبتل يزلف الى مباهج الحب الذى لا حب مثله ، ولا حب بعده ··

وهنا الروضات اليانعات التى يتأنق فيها أهل الله ويتألقون ·· فمحبة الله هى المجلى العظيم لأحلى وأروع أيام العمر عند أولئك الذين **قال الله عنهم** : « يحبهم ، ويحبونه » :

« **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** » ويتناول سيد قطب هذه الآية قائلا :

« فالحب والرضا المتبادل هو الصلة بين المؤمنين وبين ربهم ·· » ·

الحب ·· هذا الروح الســـارى اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش ··

هو الذى يربط القوم بربهم الودود ·

وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على ادراك قيمته الا من يعرف الله ـ سبحانه ـ بصفاته كما وصف نفسه ، والا من وجد ايقاع هذه الصفات فى حسه وشعوره وكينونته كلها ··

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لايدركها الا من ذاقها · واذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه ، فان حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره الا فى فلتـــات قليلة من كلام المحبين ·· وهذا هو الباب الذى تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف،

الصادقين - ولازالت أبيـــات **رابعة العدوية** تنقل مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، **وهى تقول :**

« فليتك تحلو والحيـاة مريرة ... وليتك ترضى والأنـــام غضاب

وليت الذى بينى وبينـك عامـر ... وبينى وبين العالمين خـــراب

اذا صـــح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب »

ومن نفحـات هـذا الحب الالهى الذى فاضت به نفس رابعـــة ، فملك عليها عواطفها ، وجعلها لاتتغنى الا به ، ولا ترد كل شىء الا اليه : فمن ذلك أبياتها التى تخاطب فيها ربها **فتقول :**

أحبـــك حبين : حـب الهـوى ... وحبــا لأنك أهـــل لذاكا

فأما الذى هو حـــب الهوى ... فشـغلى بذكرك عمن ســـــواكا

وأما الذى أنت أهـــــل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهذا الحب من الجليل للعبد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع فى هذا الوجود ويسرى فى هذا الكون العريض ، وينطبع فى كل حى وفى كل شىء ، فاذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الانسانى كله ممثلا فى ذلك العبد المحب المحبوب .

والتصور الاســـلامى يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب .. وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة .. انما هو أصل وحقيقة وعنصر فى هذا التصور الأصيل :

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** » (١)..

« **ان ربى رحيم ودود** » (٢) .. « **وهو الغفور الودود** » (٣) .

« **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان** » (٤).

---

(١) مريم : ٩٦ .

(٢) هود : ٩٠

(٣) البروج : ١٤ .

(٤) البقرة : ١٨٦ .

« **والذين آمنوا أشد حبا لله** » (١) ·· **قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (٢) ·· وغيرها كثير ·

ان نصاعة التصور الاســـلامى ، فى الفصل بين حقيقة الألوهيــة وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهى عــلاقة الرحمة كما أنها عــلاقة العدل ، وهى عــلاقة الود كما أنها عــلاقة التجريد ، وهى علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه ·· انه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية فى علاقتها برب العالمين ·

وهنا ــ فى صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ــ يرد ذلك النص العجيب : « **يحبهم ويحبونه** » ويطلق شحنته كلهــا فى هذا الجو ، الذى يحتــاج اليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق · شــاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ·· » ·

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام الحب مجسدا :

أحب الانسان والحيوان · حتى النبات حنــــا عليه ، فكان يوصى بالشجر ألا يقطع حتى الجماد شمله بالحب ، فكان يقول عن جبل أحد ·· « **هذا الجبــل يحبنــا ونحبه** » حتى تراب الأرض كان يمسح به وجهــه متوضئا فى حب **وهو يقول :**

« **تمسحوا بالأرض فانها بكم برة** » ·

ويقول عليه الصــلاة والسلام : « اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه » ·

ويدعو عليه الصلاة والسلام الناس كى يحب بعضهم بعضا ·· فيجعل الحب قمة الايمان وذروته ، **فيقول :**

« **والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا · ولا تؤمنوا حتى تحــابوا ··** » ·

---

(١) البقرة : ١٦٥ ·

(٢) آل عمران : ٣١ ·

والحب عند **محمد عليه السلام** مثوبة نفسه ، وهو طبيعة وفطرة ، لا غرض وشهوة ·

وقد يدرك المحب بحبه ما يعجز عن ادراكه باجتهاده وعمله ·· فاذا أحببت خيار الناس ، فأنت منهم ومعهم حتى اذا سبقوك فى الاجتهاد ، وتفوقوا عليك فى العمل ·· « أنت مع من أحببت ·· » ·

ويقول محمد عليه الصلاة والسلام :

« **ان من عباد الله أناسا ، ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى** » · قالوا يا رسول الله : « تخبرنا من هم ؟ » قال : « **هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها · فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس** ، ثم تلا قول الله تعالى : « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ·

ونهى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام عن الخصـــام ، وأخبر الناس انه لا يحل لأحدهم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، حتى لايشكل عدوانا على حياة الحب وأواصر الود · والقطيعة عنده « جريمة قتل » لانها اعتداء على أعظم مقدسات الحياة ــ الحب ·

فيقول عليه الصلاة والسلام :

« **من هجر أخاه سنة ، فهو كسفك دمه** » ·

— **ويقول عليه السلام :**

« **ان أحبكم الى ، أحاسنكم أخلاقا ·· الذين يألفون ويؤلفون ، وان أبغضكم الى المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ··** » ·

ويقول عليه السلام :

« **ما من يوم تطلع شـمسه الا وتقول السـماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خـيرك ، ومنـع شـكرك ·· وتقول الأرض :يا رب ائذن لى أن أبتلع ابن آدم ، فقد أكل خيرك ومنع شكرك ·· وتقول البحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم ، فقد أكل خيرك ، ومنع شكرك ، وتقول الجبال : يا رب ائذن لى أن أطبق على ابن آدم ، فقد أكل خيرك ، ومنع شكرك ··**

فيقول الله لهم جميعا : « **لو خلقتموه ، لرحمتموه . دعونى وعبادى .. ان تابوا الى فانا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فانا طبيبهم** » .

والتسامح والرحمة والوفاء من ثمرات الحب ، فنراه عليه الصلاة والسلام لايكاد يدخل مكة ظافرا حتى **يقول** للذين أخرجوه منها ، وشنوا عليه الحرب ، وتلقى منهم أشد الأذى ، ومثلوا بعمه الشهيد حمزة ، ومضغوا كبده فى ضراوة ووحشية :

« **اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ..** » .

وعندما أوى من سفهاء أهل الطائف الى حائط ليتقى به الحجارة التى يقذفونها عليه ، هطلت دموعه ، وجاشت نفسه بما تنطوى من حب.. فرفع بصره الى سماء محبوبه ، وقال :

« **ان لم يكن بك غضب على ، فلا أبالى ..** » .

وعندما سئل يوما ، لماذا يجهد نفسه فى العبادة ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكان جوابه يقطر وفاء ، وولاء ، بل هو الحب العظيم ، حيث قال :

« **أفلا أكون عبدا شكورا .. ؟** » .

ـــ وفى الحديث القدسى :

« **ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن** » أى أن قلب المؤمن يمكن أن يتسع لرحمة الله سبحانه وتعالى ، واذا كان الحق كما ورد فى الصحيح يتحول فى الصور مع أنه فى نفسه لا يتغير من حيث هو ، فالقلوب له كأشكال الأوعية للماء يشكل بشكلها مع كونه لا يتغير عن حقيقته ، ألا ترى أن الحق كل يوم فى شأن كذلك القلب يتقلب فى الخواطر ، ولذلك قال سبحانه : « **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** » (١) ولم يقل « عقل » ، لأن العقل يتقيد بخلاف القلب .

ومنهم من قال : الحب سر الهى يعطى فى كل ذات على حسب ما يليق بها .

---

(١) ق : ٢٧ .

ومنهم من قال : كيف تنكر الحب وما فى الوجود الا هو ، ولولا الحب ما ظهر · فمن الحب ظهر وبالحب ظهر والحب ســار فيه والحب ينقله ·

ومنهم من قال : لا يصح نكران الحب ، فبالحب حرك المحرك ، وبالحب تحرك المتحرك وسكن الساكن ، وبالحب تكلم المتكلم ، وصمت الصــامت ·

ومنهم من قال الحب : « سلطان يتبعه كل شيء » ·

ويقول ابن العربى فى تجلى الكمال (*) :

« اسمع يا حبيبى أنت العين المقصود من الكون · أنت نقطة الدائرة ومحيطها أنت مركبها وبسيطها ، أنت الأمر المنزل بين السماء والأرض ما خلقت لك الادراكات الا لتدركنى بها ، فاذا أدركتنى أدركت نفسك · لا تطمع أن تدركنى بادراكك نفسك · بعينى ترانى ونفسك ، لا بعين نفسك ترانى ·

حبيبى كم أناديك فلا تسمع ، كم أترايء لك فلا تبصر · كم أندرج لك فى الروائح فلا تشم ، وفى الطعوم فلا تطعم لى ذوقا · مالك لا تلمسنى فى الملموسات ؟ مالك لا تسمعنى ؟ مالك ·· مالك ·· مالك ·· ؟

ويفسر ابن العربى حديثا قدسيا بقوله :

« ان تقربت الى تقربت اليك أضعاف ما تقربت به الى ، أنا أقرب اليك من نفسك ، ونفسك من يفعـــل معك ذلك غيرى من المخلوقين · حبيبى أغار عليك منك لا أحب أن أراك عند الغير ولا عندك · كن عندى بى عندك كما أنت عندى وأنت لا تشعر حبيبى الوصال الوصال ·

اذا تجـــلى الحبيـــب ـــ بـــأى عـــين تـــراه
بعينـــــه لا بعينى ـــ فمـــا يـــراه ســـواه

المحب يرى محبوبه بعين محبوبه ، ولو رآه بعينـــه ما كان محبا ، والمحبوب يرى محبه بعين المحب لا بعينه ، **وربما يقال فى هذا المقام :**

فكان عينى فكنت عينـــه ـــ وكان كونـــى فكنت كونـــه
يـــا عين عينى ياكون كونى ـــ الكون كونه والعين عينـــه

(★) تسدر مثل هذه الأقوال عن بعض أقطاب الصوفية فى حالات الوجد التى يسمى فيها الصوفى االى الاقتراب من الذات الالهيـة ، ومن الجدير بالذكر أن الكثير من أهل السنة يرون فى تلك الأقوال شطحات تخرج بقائلها عن صحيح الدين ·

من صحت معرفته صح توحيده ، ومن صح توحيده ، صحت محبته ، فالمعرفة لك والتوحيد له والمحبة علاقة بينك وبينه بها تقع المنازلة بين العبد والرب ٠

ان المؤمن الذى يضيف الى الفرائض ما يستطيع من النوافل ، تكون منزلته أسمى ودرجاته أعلى عنـــد الله تعالى بقـدر ما يؤدى من العبادات ، وكلما ازداد من القربات الى الله بالعبادات النافلة بعـد أداء الفرائض ، ازداد قـــرب الله تعـــالى منه ورضاؤه عنه حتى يصـــل الى درجة حب الله تعالى له ، فاذا أحبه الله جعله عبدا ربانيا وأكرمه بكرامات، فيصبح مستجاب الدعوة محقق الرغبات ، وأنزل محبته فى قلوب عباده من أهل السموات والأرض ، وفى هذا المعنى يخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ــ بوعد الله لهؤلاء المحبين لله المتقربين اليه بالنوافل :

« **ان الله تعالى قال فى الحديث القدسى : ما تقرب الى عبدى بشىء أحب مما أفترضه عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه** » رواه البخارى ، وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم **قال :** « **اذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : ان الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادى أهل السماء ، ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض** » ٠

وللحب ثمرة ان لم تتحقق فلن تكون له قيمة بدونها وهى الطاعة والسعى بجد واخلاص وسعادة لرضا المحبوب ، والبعد بهمة وعزيمـــة وطيب خاطر عن كل ما يغضبه ، فمن كان يحب الله ورسوله بصـــدق فعلى قدر حبه تكون مسارعته الى تأدية الفرائض فى أوقاتها باتقان ، وكمال ورغبة واخلاص ، ثم الحرص على شدة القرب من الله بأداء عبادات وقربات من جنس الفرائض ، وما رغب فيه الله ورسوله من ألوان الصلاح والبر والخير ، وفى المقابل لذلك ، يكره ويبتعد عن كل ما يغضب الله ورسوله فلا يقرب شيئا نهى عنه الله ورسوله أو نفرا منه ٠

قال الخطابى فى شرح هذه الجملة من الحديث : « أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » لم يرد به حب الطبع ، بل حب الاختيار ، لأن حب الانسان نفسه طبع ٠٠

قال : فمعناه « لا تصدق فى حبى [الله] حتى تفنى فى طاعتى نفسك ، وتؤثر رضاى على هواك ، وان كان فيه هلاكك » ٠

وكما قيل ان محبة الله فرض ونفل ، فمحبة الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك ، ويضاف الى ذلك ألا يتلقى المرء شـيئا من المأمورات والمنهيات الا من مشكاته عليه الصلاة والسلام المتمثلة فى القرآن والسنة ، ولا يسلك الا طريقته ، وأن يرضى بما شرعه وقضى به رضاء تاما حتى لا يجد فى نفسه أي غضاضة أو حرج مما قضاه حتى ولو كانت قناعة عقله وهوى نفسه مخالفين لقضاء الرسول وارشـاده على حد **قول الله تعـالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسـوله فقد ضـل ضـلالا مبينا » (١) ٠**
بل ان المؤمن كلما ازداد ايمانا وحبا لله ولرسوله كان هواه موافقا وصدى لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ٠٠

والمؤمن يحب الله لنعمـه عليه ، ويحب الرسـول لهدايته له ، وهو كذلك يحب دين الله ويعتصم به ، لأن فى ذلك سـعادته فى الدنيـا والآخرة ، والانسان بفطرته يحب من يألفهم لتقاربهم معـه فى الميول ، والأهواء ، والعواطف ، وأكثر النـاس ائتلافا ومودة وحبـا ، هؤلاء المتعارفون فى بيوت الله وطاعة الله ، ومن الطبيعى أن يحب المرء من يحبون أحبابه ، فالمؤمن الحقيقى ، يحب المؤمنين لايمانهـم وقربهم من اللـه ، ولحبهم لله ولرسوله وللدين ، وحبه هذا للمؤمنين عامل مهم فى تكوين حلاوة الايمان فى قلبه ٠

ولا بد أن تكون لهذا الحب ثمـرة والا فلا يكون حبا حقيقيا ، فثمرة حب المؤمن لاخوانه وعلامته تتحقق بحب الخير لهم والتعاون معهم ، بافشاء السلام ، واطعام الطعام ، بالاهتمام بأمور المسلمين ، ومشاركتهم فى أفراحهم وتهنئتهم بها ، ومواسـاتهم فى مصائبهـم وتخفيفها عنهم وعيادة مريضهم ، ومودتهم ، والرحمة لهم والشفقة بهم ، والتنفيس عن المكروب ، واقراض المقترض ، والنفقة على الفقير والتيسير على المعسر ، وقضاء دين المدين ، ومناصرة المظلوم والنصـح والمشورة وردع المخطىء والظالم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة ، الى غير ذلك من وجوه الخير ، وعلى وجه العمـوم أن يحب لهـم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، بل أكثر من ذلك يكون ممن قال الله **فيهم : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» (٢)٠**

---

(١) الاحـزاب : ٣١

(٢) الآية ٢٩ من سورة الفتح ٠

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون (١) ·

فالمؤمن المحب يسلك هذا السلوك مع اخوانه المؤمنين حبا فى الله ، واقتداء برسول الله ، وابتغـــاء لمرضـاة الله وحسن ثوابه ، وطمعـا فيما وعد به من مثل **قوله تعالى :**

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجـــدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجـــرا » (٢) ·

« وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون » (٣) ·

وقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « ·· ومن نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة · ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبـــد فى عون أخيه » ·

والمؤمن المحب لله ولرسوله وشريعته ليس فى قلبه مجال لحب أحد من الناس لغرض دنيوى أو لغرض زائل ، فهو لا يحترم الشخص لجاهه وسلطانه ، أو لماله ومركزه ، ولا يحب الناس على قدر منفعته منهم وخدماتهم له بصرف النظر عن ايمانهم وصلاحهم ، ولا يتقرب الى الناس طمعا فى نفعهم أو رهبة لسلطانهم أو خوفا من بطشهم ، لأن هذا السلوك نقيض الايمان والحب لله ، وعنوان على ضعف الثقة به والتوكل عليه ، وعلى خواء القلب من الحب له ولرسوله ودينه ، فالمؤمن الحق يعلم ويؤمن بأن العباد أيا كانوا ، ومهما بلغ جاههم وسلطانهـــم ، لا يملكون لأحد ، ولو حتى لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، « **وأن لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوه بشىء له ، لم ينفعوه الا بشىء قد كتبه الله له ، ولو اجتمع** أهل السموات والأرض على أن يضروه بشىء ، لم يضروه الا بشىء قد كتبه الله عليه » ·

وما دام كذلك ، فلن يعرف الحقد والحسد والبغضاء لأحد من المسلمين الى قلبه سبيلا ، ولن يعرف الرياء والنفاق الى نفسه طريقا ، ولن يكون للأنانية والنفعية فى سلوكه ومعاملاته مجال ، ولا مثقال ذرة ·

---

(١) الآية ٩ من سورة الحشر ·

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل ·

(٣) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة ·

والمؤمن المحب لله ولرسوله ، حريص على طاعة الله حريص على تقوى الله والبعد عن كل ما يغضبه فهو بعيد عن الكبائر ، حذر من المعاصي ، يتحاشى الشبهات .

ان من يستعذب لذة من اللذائذ الحسية ، أو يتبع هوى من أهواء النفس قد يجره ذلك الى الضعف أمام الشهوات والخضوع للأهواء ، فاذا غلب عليه هوى نفسه خلا قلبه من حب الله ، فانه لا يجتمع حب الله وحب الشهوات في قلب انسان أبدا ، فان أحب الشهوات أهمل الطاعات ، فاذا استمرأ ذلك أدى به الى التقصير في الأركان والواجبات ، فاذا لم يتذكر ، ويفق ويتب ويرجع ، انحدر به الشيطان وهواه وخضوعه لنفسه الأمارة بالسوء الى اقتراف الصغائر ثم الانحدار والوقوع في الكبائر ، وكلما أذنب ذنبا نكتت على قلبه كلمة سوداء . فاذا لم يتب واستمر على ما هو عليه أظلمت نفسه وغلقت الذنوب قلبه ، وأعمت بصيرته وأضلت طريقه الى الله والى كل خير ، وحالت بين قلبه وبين هدى الله ، **قال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١)** فاذا وصل الى هذه الحال ، كان قمينا ألا يعرف لأية نعمة ينعم الله بها عليه حقها ، فيكفر بنعمة الله عليه ، وقد يغتر بنفسه ويطغيه جاهه أو ماله أو سلطانه فيكفر بالله .

ولعله لهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يدعو الله تعالى بهذا الدعاء ، لنقتدي به في ذلك : **« اللهم اني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب كل عمل يقربني الى حبك »** .

التربية :

وعلاقة الحب بالتربية علاقة أزلية ، وكما أن الحديث في الحب يكاد لا ينتهي ، كذلك الحديث عن التربية . ما من انسان يخرج الى هذا الوجود، الا ولديه من الامكانات والقابليات ما يجعله عبدا مؤمنا يوحد الله ويعبده حق العبادة ، وهذه الامكانات والقابليات أودعها الله سبحانه وتعالى ، فطرة الانسان وتكوينه الروحي ، منذ خلق الله ـ الرب والمربي ـ الجنس الآدمي ، على هذه الأرض .

ولو ترك أي انسان لفطرته هذه ، وما أودعه الله فيه من القابليات لكان من الموحدين العابدين ، مصداقا **لقول الله تعالى : « فأقم وجهك للدين**

---

(١) المطففين : ١٤ .

حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (١) ـ **وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : يقول الله تعالى : « انى خلقت عبادى جميعا حنفاء ..** » .

ـ **وفى درة ابن طفيل** الخالدة « حى بن يقظان » القصة التى بلغت من القوة المنطقية حد الروعة ، فى أسلوب جزل سلس ، والتى ضمنها آراءه فى أهم المشاكل الفلسفية والتربوية . نرى « حى بن يقظان » وقد نشأ وسط الظباء فى جزيرة منعزلة عن العالم ، لا أثر فيها لبشر ، فأخذ ينظر ويتأمل ويستنتج متدرجا من المحسوس الى المعقول ، ومن الجزئيات الى الكليات ، حتى وصل الى تكوين فكرة عن الله « الموجود الواجب الوجود» وعن الملأ الأعلى . ثم أخذ فى الرياضة الروحية حتى وصل الى طور الولاية .

وأصل الفطرة فى اللغة ابتداء الخلقة ، **قال الله تعالى :**

« **الحمد لله فاطر السموات والأرض** » **(٢)** أى مبتديها ، **وقيل :** العهد الذى أخذه على بنى آدم من أصلاب **آبائهم بقوله تعالى :**

« **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** » (٣) . وقيل هى الجبلة السليمة والطبع المتهيىء لقبول الدين ـ التربية الربانية .

ويبين هذا **دور الآباء** الخطير فى تنشئة أبنائهم ، وبأسلوب النصح البليغ القاطع الذى لا يحتمل أدنى شك أو غموض .

وهكذا يكون الانسان صالحا بنفسه وبفطرة الله فيه ، وبعيدا عن المؤثرات الخارجية للخير ، الذى يأتى الاقرار بوحدانية الله ، وعبادته فى قمته . ولا يفسد الانسان بعد صلاحه هذا ، ولا يحوله عن جبلته تلك ، ويبدل فطرته الا الشياطين ، وأعوانهم من بنى الانسان ، والأبوان هما أقرب الناس من المولود واليه ، وأكثرهم اهتماما به ، وتعهدا به ، وتعهدا له ،

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) فاطر : ١ .

(٣) الاعراف : ١٧٢ .

كما أنهما أكثر الناس تأثيرا فيه ، بتربيتهما له · وهما أقوى الأطراف فى تطبيعه ، وتنشئته ، والمحافظة على فطرة الله الطيبة الجميلة ، التى خلق عليها وليدهما ، أو فى افساد هذه الفطرة ، وتخريبها بتحويلها وتبديلها عن المسار الالهى المستقيم ، الى مســـار الشياطين الفاســـدين · وبذلك يحكمون عليهم بالشقاء فى الدنيا والآخرة ، انهم يقومون بدور الشياطين الذين يسعون جاهدين فى افساد عباد الله واضلالهم ، بل هم الشياطين بعينهم حيث يقومون بكل الدور فى تبديل فطرة الله تعالى ، فالشيطان هو كل من شطن ، أى خرج عن الطاعة ، واشتد فى الخصومة ، والشر ، والفساد ، فمن الجن شياطين ومن الانس شياطين ·

يقول الله تعالى : « شــياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ·· » (١) ·

وصدق من قال

وينشـــأ ناشىء الفتيان منـــا   على ما كان عـــوده أبـــوه

وقول حافظ :

الام مدرســـة اذا أعددتهـــا   أعددت شـــعبا طيب الأعراق

وكل الرسل جاءت لتربى أقوامهم ·

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يربى نفسه ، ويروضها على الجوع والفقر ، والقصد فى المطالب والرغبات ، ليكون المثـــل والقدوة لما أراده الاسلام دين الاعتدال والتوسط ·· فلا رهبانية وقتل للنفس ، ولا تهالك واطلاق للشهوات ·· وبذلك ينجو الانســـان من سيطرة نفسه ، ومن سيطرة الآخرين ·· فلا تعود لأحد سيادة عليه ·· أى يحرر نفسه من جميع المطالب ، فلا يعود يســـمح لشهوته أن تذله لمطعم ، أو ملبس ، أو مخلوق ·

وكان يلخص منهجه التربوى فيقول :

« المعـــرفة راس مالى ، والعقل اصـــل دينى ، والحب مذهبى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والحزن رفيقى ، والصبر ردائى ،

---

(١) الانعـــام : ١١٢ ·
(٢) النـــاس : ٦ ·

والصدق شفيعي ، والعلم سلاحي ، والجهاد خلقي ، وقرة عيني في الصلاة ·

هذا هو محمد الذى كان خلقه القرآن ·

والأخلاق بالمعنى الاجتماعى الحديث هى أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين فى اشباع رغباتهم هم أيضا ، فهى مفهوم مادى بالدرجة الأولى وهدفها حسن توزيع اللذات ·

أما الأخلاق بالمعنى الدينى ، فهى بالعكس ، أن تكبح رغباتك ، وتخضع نفسك وتقاومها ، وتخالف هواك وتحكم شهواتك لتتحقق كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك ·· ولكى تستحق هذه الخلافة على هذا الكون ، فلابد أن تسود نفسك وتحكمها ·

والأخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس الى حضرة الخالق ، وليست دعوة الى حسن توزيع اللذات ·

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده : ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق ، الا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » (١) ·

ان هذا الحديث الشريف يرسم أصلا من أصول التربية الالهية ، والتربية الالهية ، لاتسير فى مبادئها فوضى لاتحكمها قاعدة ، أو تسير فى مبادئها مصادفة لا تخضع لقانون ، كلا ، وانما هى قواعد ذات مقدمات ونتائج ، والحديث الشريف يدل على أن جزاء الشر شر ، وأن آلام الانسان ومصائبه ، انما هى ثمار آثامه ومعاصيه ·

التراث التربوى :

ولقد تأثر التراث التربوى منذ فجر التاريخ بالأديان ، وبعدد هائل من فلاسفة التربية ، الذين ساهموا مساهمة كبيرة فى اثراء هذا التراث الخالد ·

---

(١) رواه الطبرى وابن عسكر ·

فعلى ضفاف النيل القديمة ، فى مصر ، نجد الدين والتربية قد لعبا دورا هائلا ، أصبح جزءا من ثقافة مصر المبكرة ، التى كانت تنصب حول الحفاظ على الحياة والتى أحالت الفراعنة ، الى بناة أهرامات وحضارة ، انبثقت من هذا الفجر المظلم لعصر ما قبل التاريخ ٠

ونجد أن **سقراط** (٤٦٩ ، ٣٩٩ ق٠م) ، اهتم بالتربية اهتماما شديدا ، وأكد قيمة المعرفة ٠ وكانت هذه **المعرفة ذات طابع عملى** ، فهى معرفة تتصل بالحياة مباشرة ، بل هى أساس جميع الأعمال الفاضلة٠

أما **أفلاطون** (٤٥٧ ــ ٣٤٧ ق٠م) ، فقد وضع **نظاما تربويا شاملا** يكشف عن مواهب الفرد ، لكى تتحقق الفضيلة فى الفرد ، والعدالة فى المجتمع ٠

ويعتبر **أرسطو** (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق٠م) ، أحد قادة نظريات التربية ، الذين كان لهم أعظم الأثر فى العصور التالية ، حتى قيل انه « أحسن مرب فى أى عصر » ٠

وقام فلاسفة العرب بترجمة أعمال الفلاسفة اليونانيين ، وخاصة أرسطو ، فازدهرت فلسفته ، وانتقلت الى الأندلس ، ومنها الى بقية أوربا ٠

وكان الفارابى (٨٧٣ ــ ٩٥٠ م) ، من أوائل الفلاسفة المسلمين ، الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية ، حتى قيل انه (**ارسطوطاليس فى المنطق والطبيعيات ، وأفلاطون فى الأخلاق والسياسة ، وأفلوطين فى الميتافيزيقا « فلسفة ما وراء الطبيعة »**) ٠

وحاول الفارابى التوفيق بين أفلاطون وأرسطو ، والتقريب بين أرسطو والمعتقدات الاسلامية ٠ وتعتبر **نظرية العقل** عند **الفارابى** أهم نظرية اسلامية أثرت فى الفلسفة المسيحية ٠

أما **ابن سينا** (٩٨٠ ــ ١٠٣٧ م) ، فقد كان أول من أسس المنهج التجريبى الحديث ، وتوصل الى مفهوم الادراك الحسى ، قبل فلاسفة الغرب بمئات السنين ٠

وقد وضع **الغزالى** (١٠٥٨ م ــ ١١١١ م) ، نظاما تربويا شاملا ، وحدد هدفه التربوى وفقا لفلسفته ونظرته للحياة ٠ فقد كان يهدف الى

الكمال الانسانى ، الذى غايته التقرب من الله سبحانه وتعالى ٠٠ كمـــا وضع المنهج العلمى الذى رآه مناســـبا لهدفه وغرضه من التربية ، فصنف العلوم ، وقسمها ، وبين فوائدها للمتعلم ، ثم رتبها ونظمها حسب أهميتها وفائدتها ٠ كما بين المبادىء التى يجب أن يسير وفقها المعلم ، وأوضح أن العلم يجب أن يقترن بالعمل ، والعمل بالاخلاص ، ويتضح ذلك فى قوله :

« الناس كلهم هلكى الا العالمين ، والعالمون كلهم هلكى الا العاملين ، والعاملون كلهم هلكى الا المخلصين » ٠

كما تعرض الغزالى كذلك لفكرة الفروق الفردية والغرائز ، وأهمية اللعب وأهمية الثواب والعقاب ، فى تربية الطفل ٠

ويأتى المدرسيون الدومينكان ويمثلهم **توماس الاكوينى** (١٢٢٥ — ١٢٧٤ م) ، خير تمثيل ، ففلسفته ما هى الا مزيج من علم الأخلاق عند فلاسفة العهد القديم والمسيحية ، والميتافيزيقا عند فلاسفة اليونان ٠

وترتكز هذه الفلسفة على العبارة التقليدية :

« يجب الا تقوم العقيدة على العقــل ، وانمـا يقوم العقـــل على العقيدة » فلا يمكن أن تنبثق العقيدة من المعرفة ، وانما تنبثق المعرفة من العقيدة » ٠

والواقع أن الاكوينى كان يمثل مدرسة فكرية سادت فى العصور الوسطى ٠ كان هدفها الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة ، وتقوية الحياة الدينية عن طريق تقوية المواهب العقلية ، والقضاء على الشك ، والتساؤل ، والالحاد ، عن طريق المناقشة ٠

ولما كانت هذه الحركة تستند الى الكنيســـة ، فقد عملت على أن تتجنب اثارة روح البحث والتساؤل ،وتبتعد عن خلق جو من العـــداء يبعث على معارضة أى حكم من الأحـــكام لم يدل البحث المبدئى على أنه صـــحيح ٠

أى أنها لم ترد أن تثير روح التشكك الجدى ، الذى يعده المفكرون فى عالم التربية الحديثة الاعداد الوحيد لبذر بذور الحق ، التى لا تلبث أن تنمو وتزدهر ٠

ثم تأتى حركة المدرسيين الفرنسسكان ، ويمثلهـا **روجر بيكون** (١٢١٤ — ١٢٩٤) ، الذى يعتبر من اللاهوتيين الا أنه اشتغل بالعلم التجريبى ، وفطن لفوائده ، وتنبأ بمستقبله ، كما هاجم الحركة المدرسية بعد أن أصبحت تحتوى على مجردات شكلية لا قيمة لها ، وعلى تعريفات مملوءة بالألفاظ الاصطلاحية حيث **يقول** :

« يتجه عقل المدرسى الى نفسه فى النقاش حول ذاته ، كما تفعل العنكبوت حينما تنسج بيتهـا ، فيظل نشـاطه يعمل دون أن ينتهى الى نهاية ولا يخرج للناس الا نسيجا علميا متقن الحبك دقيق الصنع ، ولكنه مع ذلك تافه لا قيمة له » ٠

المدرسة الحسية :

كانت الفلسفة طوال القرون الوسـطى تقوم على أساس خاطىء لا يمكن أن يؤدى الى علم جديد ٠ فقد اتخذت القياس المنطقى سـبيلا لتأييـد المذاهب والآراء ٠ والقياس المنطقى يضطرك للتسليم بمقدماته تسليما لايجوز فيه الشك ٠ فمهما أمعنت فى البحث والاستنتاج فأنت محصور فى حدود المقدمات التى سلمت بها بادىء ذى بدء ٠

فاذا أريد الاصلاح وانتشال الفلسفة من الهوة التى تردت فيها ، فلابد من ثورة تهدم أسلوب البحث القديم ، لهذا نهض **فرنسيس بيكون** (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، ووضع أساسا جيدا للبحث ، كانت أولى خطـاه الملاحظة والتجربة ٠

فقد أكد بيكون أن العقبة فى طريق الفلسفة المدرسية ، انما هى فى طريقة الاستنتاج التى كان يستخدمها رجـال العصور الوسطى فى تفكيرهم ، اذ كانوا يسلمون فى أول الأمر بطائفة من القضـايا تسليما أعمى ، ثم يتخذون من هذه القضايا نقطة ابتداء ، ويعمدون الى توليـد النتائج منهـا ، فكان مستحيلا أن تنكشف لهم بذلك حقيقة جديدة ، لأنهم محصورون مقيدون بما سلموا به ٠ مع أنهـا قد تكون هى نفسها موضعا للشك والنقض ، واذن فلابد لنا ألا نبدأ بالتسـليم ، ويجب أن نخضع كل قول مهما كان مبعثه للملاحظة والتجـربة ، فانك لو بدأت بالايمان ببعض الحقائق ، فسينتهى بك الأمر أخيرا الى الشك ٠ ولكنك اذا بدأت السير بالشك والارتياب ، فلابد أن تنتهى الى الحق واليقين ٠

وهكذا ينقد بيكون طريقـة الاستنتاج من مقدمات مفروضـة ، ولا يرضى أن يتخذها الناس أسلوبا لتفكيرهم ٠ وهو لايقف عنـد الهدم والنقض ، ولكنه يقدم لنا طريقة علمية جديدة هى « الاستقراء » تؤدى الى الغاية ، التى يرضاها من كشف واختراع ينتهيان بخير الانسـان وسعادته ٠٠

أما جوهان آموس كومينيوس (١٥٩٢ - ١٦٧١) ، الذى ينتمى لنفس هذه المدرسة - رغم ما فى فلسفته من بقـايا فلسفة العصـور الوسطى ، فانه لايزال يحتل مكانه مرموقة بالنسبة لدراسـة الظواهر الطبيعية ، والاعتماد على الادراك الحسى ، فى الحصـول على المعـارف المتعلقة بالعلم الطبيعى ٠

فقد اهتم كومينيوس بطريقة بيكون الاستقرائية ، الا أنه لم يكن يميل الى الطريقة التجريبية ، لأنها وان كانت مفيدة فى بحوث العلم الطبيعى ، فانه كان يعتبرها غير كافية للدراسة الخاصة بالمعرفة التى تعالج العالم ككل ·

ومن المعروف أن كومينيوس كان رجل دين · وانه استعمل فى تفكيره العلمى الطرق الدينية واللاهوتية · فمع أنه كان يسعى لمعالجة الظواهر الطبيعية بطريقة مختلفة ، فانه كان فى أغلب الأحيان يتبع طريقة ضرب الأمثلة بدلا من الطريقة التجريبية · وكثيرا ما كان يقتبس من الكتاب المقدس للدلالة على صدق فكرة علمية أو تاريخية أو لاهوتية · كما يرى أن التربية هى خير سبيل لإصلاح المجتمع واصلاح الفرد · فهو يقول فى كتابه « المرشد الأعظم » ـ Great Didactic : « ان الهدف الأسمى للانسان هو السعادة الأبدية بالاتصال بالله » ·

المدرسية الحسية الواقعية :

ومن أهم روادها **جون لوك** (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ، الذى يعتبر أول من وضع مشكلة المعرفة بمعناها المعروف لدينا الآن موضع البحث والتعمق · وعلى التجربة تقوم كل معرفة ، ومنها فقط تستمد كل عناصرها ، والتجربة بصفة عامة تعتمد على الملاحظة التى تنقسم الى :

ـ ملاحظة خارجية وموضوعية ·

ـ ملاحظة داخلية وذاتية ·

الأولى تعتمد على ادراك الفرد للمدركات الحسية الخارجية الموضوعية ·

بينما **الثانية** تقوم على ملاحظة الفرد لعملياته العقلية الداخلية ، ولكل ما يدور فى ذهنه من أفكار وانطباعات ، بحيث تكمل كل منهما الأخرى ، فتتم المعرفة ·

وبين أوجه النقص فى طريقة التفكير القديمة ، التى كانت تدرس وتعالج بها المشكلات الفلسفية وتساءل عن مدى تقبل الناس لبعض الأحكام كما لو كانت شيئا مسلما بصحته ·

كما طبق اتجاه التجريبى فى الفلسفة على بحثه فى نظرية المعرفة بصفة خاصة ·

ونادى بتحرير الفرد الذى انطمست شخصيته فى ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت فى نار من طغيان الملوك ·

وطالب باستقلال التعليم عن الدولة وعن الكنيســة • وغير من الطريقة الروتينية ، التي كانت تحتم على التلاميذ قراءة وكتـابة الشعر والنثر بمجموعة من الدراسات المتعلقة بالحياة •

كما لم ير جدوى من دراسة الأفكار المجـردة الموجودة في المنطق أو الميتافيزيقا ، أو دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية •

التجربة العلمية :

وهي التي يطلق عليها أحيـانا « الحـركة الوضعية المنطقية » ومن أهم روادها **ديفيد هيوم** (١٧١١ ـ ١٧٧٦) ، الذي يقيم فلسفته على التفرقة بين الانطباعات ، التي ينطبع بها الانسان انطباعا مباشرا ، حين يحس شيئا باحدى حواسه ، أو حين يتمرس تمرسا مباشرا بحالة معينة من حالات وجدانية ، وبين ما تخلفه تلك الانطباعات عند صاحبهـا ، من صور ذهنية أو ذكريات • وهو يطلق تعبير الأفكار على مثل هذه الصور والذكريات •

وكل فكرة صحيحة يمكن ردها الى انطباعاتنا المباشرة ، التي كانت بمثابة النوافذ التي دخلت منها الخبرة التي كونت تلك الفكرة ، وما لا يمكن رده من أفكارنا الى انطباعاته الأولية ، فليس هو من الأفكار التي يركن اليها على أنها صواب •

المدرسة الطبيعية :

ورائدها بلا منازع هو **جان جاك روسو** (١٧١٢ – ١٧٧٨) • وقد جاءت آراؤه التربوية في كتابه الشهير « اميـل » • ففي مستهل هذا الكتاب يضع روسو المبدأ الأساسي الذي يؤمن به حين **يقول :**

« كل شيء حسن في يد الطبيعـة » و « كل شيء يعتريه الدمـار والفساد في يد الانسان » •

ويقصد روسو « بالطبيعة » النمو الباطني لملكاتنا • فالتربية وفقـا لقوانين الطبيعة معناها أن الأحكام الغريزية والانفعالات الفطرية هي أصدق أساس للعمل ، مع التفكير والحذر والخبرة الناشـئة عن الارتبـاط بالآخرين •

وهناك مدلول آخر للطبيعة عند روسو ، وهو المدلول الاجتماعي •

فالدولة الطبيعية ، فى أحسن مظاهرها ، يمكن أن تؤسس على مبدأ سياسى حقيقى ، ومن ثم ، ينشأ نوع نبيل من الحياة الاجتماعية ، أفضل مما كان سائدا فى القرن الثامن عشر (عصره) ·

ولذلك نجد كتاب « اميل » يعرض لونا من التربية غير قائم على نمط المجتمع ولا على التقاليد المدرسية الجامدة ، ولا على تجاهل الطفولة ، ولكن على معرفة حقيقية للانسان ·

فالتربية من أجل المجتمع ، ومن أجل المحافظة على التقاليد ، كانت فى نظره مجرد استعباد · فعن طريقها تهمل طبيعة الطفـــل ، وتنسى العوامل التى تساعد على سعادته ··

وفى ذلك يقول :

« الحكمة البشرية جميعها لا تحتوى الا على تحكمات استعبادية ، فعاداتنا لا تعدو أن تكون اذلالا واستعبادا ، وكبتا ، وألما ، فالرجـــل المتمدين يولد ، ويعيش ، ويموت ، فى حـــالة من العبودية — يلف فى قماط يوم يولد ، ويوثق بالكفن يوم يموت ، ويقيد بالإغلال مادام حيا »·

وللطبيعة مدلول ثالث عند روسو ألا وهى البيئة الطبيعية بحيواناتها ونباتاتها وخيراتها ·· فقد كان روسو محبا للطبيعة ، وكان يعتقد :

« ان المدن ليست سوى مقابر للجنس البشرى » ·

وهكذا كان روسو يعتقد أن وسيلة التربيـــة ، هى النمو الحـــر الطليق لطبيعة الطفل ، ولقواه ، وميوله الفطرية ·· فالخبرة ، أو غياب السلطة الخارجية ، يجب أن تحل بمفردها محل القانون ، فى معالجتنا لأطفالنا ، فلا تدع الطفل يحصل على شىء لأنه يريده ، بل لأنه يحتاج اليه·

« أليس بغريب حقا أن الأشخاص الذين يقومون بتربية الأطفال ، لا يعرفون وسيلة للسيطرة عليهم ، سوى المنافسة ، والحقد ، والحسد ، والغـــرور ·· » ·

وهكذا نرى أن الطفولة من أجل الطفولة هو المبدأ الذى نادى به روسو « فالطبيعة ترغب أن يكون الأطفال أطفـــالا ، قبل أن يكونـــوا رجـــالا » ·

حقا لقد كانت فلسفة جان جاك روسو الطبيعية منعطفا خطيرا ، فى تاريخ الفلسفة ، وتطور الفكر التربوى ·

المدرسة النفسية :

ويمثل هذه المدرسة طائفة من الفلاسفة من أمثال :

جوهان هنريش بستالوتزى (١٧٤٦ – ١٨٢٧) ٠

وجوهان فريدريك هربارت (١٧٧٦ – ١٨٤١) ٠

وفريدريك ولهلم فروبل (١٧٨٢ – ١٨٥٢) ٠

وقد اهتم هؤلاء الفلاسفة جميعا بتطبيق مبادىء علم النفس على تربية الطفل ٠

فيعتقد بستالوتزى مثلا أن التربية عبارة عن النمو العضوى للفرد ، سواء أكان هذا النمو أخلاقيا ، أم جسمانيا ، أم عقليا ٠ ويقول أيضا ان التربية :

« هى نمو جميع قوى الفرد ، نموا طبيعيا » ٠

كما يشير الى أن الهدف الأساسى ، من التعليم ، ليس حشو عقل المتعلم بالمعلومات ، وانما الغرض منه تنمية قواه العقلية ٠٠

وتعتبر سيكولوجية هربارت هى خير ما ساهم به ذلك المربى ، فى ميدان التربية فان الحركة التى بدأها جون لوك ، واتخذ فيها الطفل محورا لمحاولاته التربوية ، والتى طرقها جان جاك روسو ، فى نقده اللاذع للمجتمع ، وتناولها بستالوتزى وجعلها حقيقة واقعة لدى كل معلم ، قد تناولها هربارت وأسبغ عليها عنصر الاستمرار ، عن طريق أسس علمية ، وسيكولوجية ٠

فقد أشار هربارت ، الى أن النفس البشرية ما هى الا وحدة متصلة ، وأنها ترتبط بالعالم الخارجى ، أو البيئة عن طريق الجهاز العصبى ، وبهذا الاتصال يتزود العقل بمعلوماته الأولية ، وذلك عن طريق الادراك الحسى ، وبذا تتكون الحياة العقلية للطفل ٠

أما فروبل ، فأشار الى فكرة « النمو الذاتى التلقائى » للطفل ٠

وعلى هذا الأساس ، يجب أن ترتكز عملية التعلم على ميول الطفل الارادية ٠

فالطفل لا يستجيب الا لنداء القوى ، التى يشعر بها نابعة من أعماق نفسه ، ولا يلبى نداء القوى المفروضة عليه من الخارج ، ورياض الأطفال ترتبط باسمه ٠

الاتجاهات العلمية والتجريبية :

ومن روادها ، **هربرت سبنسر** (١٨٢٠ — ١٩٠٣) الذى اهتم بالعلوم الطبيعية ، وهاجم الاهتمام بالدراسات الانسانيـــة ، والاعتماد على قوة الملاحظة واستخدام المحسوسات فى التدريس · والتربيـــه هى اعداد للحياة الكاملة · وجاءت آراؤه التربوية فى كتاب (أية معرفة أكثر قيمـــة (What knowledge is of Most Worth ?

البراجماتيـــة :

هى ثمرة التفاعل بين الأفكار ، التى حملها المهاجرون الأوربيون ، الى أمريكا ، وبين البيئة الجديدة ، التى نشأوا فيها · فهى الروح التى لا تؤمن بالجبر · وأن الحقيقة ليست ثابتة ، وليست نظاما كاملا ، بل الحقيقة عملية فى تغير مستمر ، وظروف الحياة يمكن تحسينها بالتصميم على العمل ، الذى يسترشد بالعقل · وأن الانسان يستطيع اعادة تشكيل الظروف ، التى تصوغ خبرته لعزمه وارادته · وأصل البراجماتية يعود الى **تشارلس بيرس** (١٨٣٩ — ١٩١٤) ، أحـــد مؤسسى منطق العلاقات الرمزى الحديث ·

ويرجع الفضل الى **وليام جيمس** (١٨٤٢ — ١٩١٠) ، فى نشر هذا المنهج ، فقد أراد أن يقف موقفا وسطا ، بين المذهب التجريبى ، والمذهب العقلى ، فيحقق الاخلاص للواقع والتجـــربة ، ويعطيه الايمـــان بالقيم الروحية ، فى نفس الوقت ·

فالمذهب البراجماتى يحتفظ بالدين كالعقليين ، ويحتفظ بالاخلاص العميق للوقائع كالتجريبيين · فمنهجه كمـــا يقول « ثورة على الفلسفة التجريبية ، حين أنكرت قضايا الدين والايمان ، وثـــورة على الفلســـفة العقلية ، حين كانت حلولها للمشاكل حلولا مجردة ، غير مجدية » ·

الأداتيـــة :

جاء **جون ديوى** (١٨٥٩ — ١٩٥٢) ، ليعرض « الأداتية » كامتداد لبراجماسية جيمس ·

والأداتية تذهب الى أن العمل يجب أن يكون بصيرا ، وصادرا عن تدبر · وأن يكون العقل البصير هو المصدر ، والضمان الوحيد لمستقبل أفضل ، وأن العالم لايزال فيه مكان للجديد والتجديد ·

وبراجماتية جيمس ، وأداتية ديوى تبرزان أهمية الفرد · فالفرد حامل الفكر المبدع الخلاق · وأنزل ديوى الفلسفة من عرش الحقائق المتعالية الموجودة وجودا مطلقا ، الى مجرى الخبرة الانسانية ·

فالفلسفة عند ديوى هى طلب الحق ·· ولكنه حق ينمو شيئا فشيئا داخل الفرد ، ويتضح معناه كلما شب ونما واتصل بغيره من الناس والأشياء ، وهم يتعلمون باتصالهم فى سلوكهم ، مع العالم الذى يعيشون فيه سواء أكان عالم الطبيعة ، أم عالم الانسان ·

فالتربية هي عملية تكوين النزعات الأساسية الفكرية ، والعاطفية في الانسان ، تجاه الطبيعة والانسان · وفرق واضح بين أن تفرض الحقائق على الناس يتعلمونها منذ الصغر ، ويرغمون على قبولها كما تحكى لهم ، فيرددونها ألفاظا جوفاء لا يفهمون لها معنى ، وبين أن يسعى الناس منذ الصغر ، الى معرفة الحقائق بأنفسهم ·

وانعكست هذه الفلسفة على آراء جون ديوى التربوية ، وخاصة تلك المتعلقة بمبادىء النشاط ، والخبرة والحرية ، والديمقراطية ، والاعداد للحياة ، والتعبير عن الذات وتنمية الفرد ، وماهية التربية ، ووظيفة المدرسة ، والمدرسة التقليدية ، والمدرسة الحديثة ، وغيرها من القضايا التربوية ، التى تصدى لها ديوى · والتربية عنده هى : تاج الاهتمامات الانسانية ·

ويأتى **برتراند رسل** (١٨٧٢ — ١٩٧٠) ، نصيرا عنيدا للحرية ، وارتبطت مفاهيم الحرية فى العصر الحديث بفلسفته ·

يقال عندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، ان جدته أهدت اليه انجيلا احتفظ به حتى وفاته · وقد كتبت جدته على الغلاف الخارجى للانجيل بعض الآيات ومنها : « لا يجوز لك أن تتبع كثرة الناس فى فعل الشر » ، وكذلك : « كن قويا شجاعا فاضلا لا تخف ، ولا يأخذنك اليأس ، فربك فى رعايتك أينما ذهبت » وكان لهذه الآيات أعمق الأثر ، فى حياة رسل ·

ان النظام الاجتماعى كثيرا ما يكون ، فى حقيقته ، مؤامرة كبرى على حرية الأفراد · فلا يكاد يولد الطفل ، حتى يغمره ذووه ومواطنوه بثقافة المجتمع الذى جاء عضوا فيه ، ولا ينفكون يلقنونه ماذا يعتقد ، وكيف يسلك بغض النظر عن سلامة تلك العقائد أو صواب هذا السلوك ·

فليس المهم عندهم أن تكون العقيدة سليمة أو أن يكون السلوك صوابا ، بل المهم هو أن تكون هذه هى عقائد ســـائر أفـــراد المجتمع وسلوكهم ، وهكذا يتحتم على الطفل أن يصب مع غيره في قالب واحد ، والا فهو المنحرف وغير السوى ، ويكون الطفل جديرا بالاعجـاب والثناء ، حين يكون وديعا يؤدى ما يؤمر به ، ولا يبيح لنفسه أن يناقش الكبار ، فى صواب ما يأمرونه بفعله · وبهذا تصبح عملية التربية قائمـــة على أساس التجانس بين هذا الطفل وبين بقية أفراد المجتمع ·

يقول رســـل :

« على الرغم من تعدد المدارس الفكرية فى التربية ، فأهم ما يعنينا منها مدرستان متعارضتان : احداهما تجعل التربية مواءمة بين الطفل وبيئته وثقافة تلك البيئة ، والأخرى تجعل التربية تنمية لنفس الطفل واستعداداته الفطرية » ·

يريد الفريق الأول التجانس بين الطفل والمجتمع المحيط به بتهذيب طبائع الطفل ، وتغييرها ، حتى تتفق وأوضاع المجتمع · بينما يرى الفريق الثانى أن تحصر عملية التربية اهتمامها ، فى الطفل ذاته ، لتنمو طبيعته بغض النظر عن ملاءمة الطبيعة ، مع ثقـــافة المجتمع المحيط به ، أو عدم ملاءمتها ·

اذن فالسؤال هو : هل نربى الطفل ليكون « مواطنا » أو نربيه ليكون « فـــردا » ؟ ·

ويجيب برتراند رسل قائلا :

ـ « أقل ما يجوز لنا المطالبة به ، هو ألا ننقص من ارادة الفـــرد المطلقة ، الا بالحد الأدنى الذى يقتضيه كونه مواطنـــا · فالفـــرد أولا والمواطن ثانيا · فلا قيود على ارادة الفرد الحرة ، الا للضرورة القصوى »·

الاتجاهات الأساسية للتربية المعاصرة :

ان التربية المعاصرة هى حصيلة تراكمية لمسيرة انسانية طويلة ، على دروب الحضارة ، ولخبرات ثقافية وفلسفية وفكرية عميقة الأثر ، فى حياة الأفراد والشعوب ·

وتعكس التربية المعاصرة أفكار مجموعة من علماء التربية المعاصرين ، فى مختلف التخصصات كالأصول الاجتماعية ، والفلسفية ، والاقتصادية، والنفسية للتربية ·

أما العوامل التى ساعدت على ظهور الاتجاهات التربوية المعاصرة - فيمكن ايجازها فيما يلى :

- الثورة العلمية والتكنولوجية ٠
- تطور وسائل الاعلام والاتصال ٠
- الانفجار المعرفى وأبعاده ٠
- ازدياد الطلب على التعليم ٠
- الحاجات المتغيرة للأفراد والمجتمعات ٠

ويمكننا أن نتلمس الاتجاهات الأساسية للتربية المعاصرة ، على النحو التالى :

- مسايرة تطور الكم الهائل ، فى المعرفة العلمية والتكنولوجية المتسمة بالسرعة والتعقيد ٠

- لقد تعدل مفهوم التربية ، فى الوقت الحاضر ، بحيث أصبح التعليم عملية استثمار ، وليس عملية استهلاك ٠

- تسعى التربية اليوم نحو تنمية ما يتسم المجتمع المعاصر بسيادته ، وهو التفكير العلمى فى مختلف مراحل التعليم ٠

- تعكس تربية اليوم رؤية المستقبل ، وصورة الأنماط الفردية ، والاجتماعية المستقبلة ، بدلا من تقنين الأنماط الحالية ٠

- تخضع المناهج الدراسية فى معظم دول العالم اليوم ، الى أكبر عملية تعديل وتنقيح ، وتطوير ، شهدتها التربية ، وذلك بسبب التغيرات السريعة فى وسائل اكتساب المعرفة ، والاتصال ونشر المعلومات ، وتغير الحاجات والظروف ٠

- توطدت فكرة أن التربية عملية مستمرة مدى الحياة ، وتستمر فى حياة الفرد ، والمجتمع دون انقطاع ٠

- التجديد والابتكار ، فى الوقت الحاضر من أهم أهداف التربية ، فى مختلف مراحل التعليم ٠

- يشهد العالم المعاصر على المستويين القومى والدولى ، اهتماما بالغا بالطفل ، ونموه الجسمى ، والعقلى ، والانفعالى ، والاجتماعى ،

والروحى ، وذلك فى ضوء البحوث النفسية العديدة ، التى أثبتت أن الطابع المميز لشخصية الطفل يتكون فى السنوات التى تسبق التحاقه بالمدرسة الابتدائية ·

ـ أصبح علم النفس يرتبط ارتباطا وثيقا بالتربية المعاصرة أكثر من أى وقت مضى ·

ـ تعتمد التربية اليوم على أحدث الأساليب التكنولوجيـــة ، كالتعليـــم المبرمج ، والكمبيوتر والفيديو ، والتعليم المصغر ، وغير ذلك من وسائل الاتصال المختلفة ·

ـ انتشرت حاليـا مفاهيم الفصول المفتوحة والمدارس غـــير ذات الفصول ، والتعليم الذاتى ، وغير ذلك من مفاهيم التربية المعاصرة ·

ـ شدة الحاجة الى البحث العلمى ، وتوفير الطاقة البشرية المدربة تدريبا يتناسب مع حاجة التكنولوجيا الحديثة ·

ـ ينبغى أن تحظى الأجيال الصاعدة بتربية أكثر شمولا ، وتنوعا ، لأن عالم اليوم عالم سريع التغير ·

مشاعر تكافؤ الضدين :

هناك راى حصيف عن الحقيقة البشرية يضع فى اعتباره امكانية وجود بعض الكراهية أيضا ، حيث يوجد الحب ، وبعض الحسد أيضا ، حيث يوجد الاعجاب ، وبعض العداء كذلك ، حيث يوجد الاخلاص ، وبعض الخوف من شر مرتقب ، حيث يوجد النجاح · ان الانسان فى حاجة الى حكمة عظيمة لادراك أن جميع الأحاسيس شرعيـة ومنطقية : الايجابية ، والسلبية ، ومتكافئة الضدية ·

ويجد الآباء صعوبة فى قبول تكافؤ الضـــدين كحقيقة من حقـائق الحياة · انهم لايحبونها فى أنفسهم ، ولا يستطيعون أن يتسامحوا فيهـا فى أطفالهم · ويعتقدون أن هناك أمرا ما خطأ بشكل متأصل فى الشعور باتجاهين نحو الناس ، خصوصا نحو أفراد الأسرة ·

ويمكننا تعلم أن نقبل وجود مشاعر تكافؤ الضدين فى أنفسنا وفى أطفالنا · ولتجنب خلافات غير ضرورية ، يحتاج الأطفال أن يعرفوا أن مثل هذه الأحاسيس سليمة وطبيعية · ويمكننا أن نجنب الطفل كثيرا

من الذنب والقلق عن طريق الاعتراف بمشاعر تكافؤ الضدين ، والتعبير عنهـــا ٠

والعواطف جزء من جيناتنا الوراثية ٠ فالسمك يسبح ، والطيور تطير ، والناس تشعر وتحس ٠ وبينما نحن لسنا أحرارا لاختيار العواطف التى تنشأ فينا ، فنحن أحرار لاختيار كيف نعبر عنها ومتى ، بشرط أن نعرف ما هى ٠

وتلك هى أس المشكلة ٠ فكثير من الناس قد تربوا دون أن يعرفوا ما هى أحاسيسهم ٠ فعندما كانوا يكرهون ، كان يقال لهم هذا مجرد نفور ٠ وعندما كانوا يخافون ، كان يقـال لهم ليس هناك شيء لتخافوا منه ٠ وعندما كانوا يشعرون بالألم ، كانوا ينصحون بأن يكونوا شجعانا ويبتسمون ٠٠

والأجدى هو ٠٠٠ الصدق فى العواطف ٠

★★★

أنشأ **د٠ بوسكاليا** برنامجا عن « الحب » كمقرر تعليمى بجامعـة جنوب كاليفورنيا ـ U.S.C. ٠ وكتاب الحب هو نتيجة التفاعل مع طلابه فى هذا البرنامج ٠

ونظرية د ٠ بوسكاليا الأساسية هى أن الحب مكتسب بالتعلم ، وأن كل واحد منا يمكن أن يتعلم الحب ويعلمه ٠

وليو بوسكاليا شخص يحيا كمـا يتحدث بصدق ٠٠٠ انه يشعر ولا يخشى اظهار عواطفه ٠٠ انه يحب ٠٠ وهو مبتهج فى هذا الحب ٠

وهو مسافر لا يكل ، ومتحدث محبوب لا يمل ، وله جمهوره الحريص على سماعه ٠٠٠ ويشارك دكتور بوسكاليا هنا معتقداته معنا فى ٠٠٠ حـب ٠

وعلى القارىء أن يضع فى اعتباره خلفية المؤلف ونشأته ، كما أشار هو الى ذلك بنفســـه ، كنتاج للمجتمع الأمريكى من جـــذور أوربية ايطـــالية ٠

والمجتمع الأمريكى معروف بمجتمع البوتقة المنصهرة ـ The Melting Pot حيث تعمل التربية على صهر ثقافات فئات المجتمع المختلفة وتذويبها لتكوين ثقافة واحدة ٠٠٠ وأذكر أننى أحسست بمدى جسامة هذه المهمة

عندما كنت أذهب الى مدارس مختلفة فى الدراسة العملية أثناء دراستى لماجستير الآداب والتربية فى جامعة سان فرانسسكو بكاليفورنيا ، ولمست الفوارق الكبيرة بين ثقافات الأقليات المختلفة مع وجود مشكلة اللغة الأم عندهم ، وضرورة محاولة الانتقال السريع الى معايشة اللغة الانجليزية والتطبع بالنسيج الاجتماعى الجديد ...

لعلى قد أسهبت على القارىء العزيز فى مقدمتى هذه ، رغم ايجازى الشديد ، ويشفع لى فى ذلك مقصدى فى أن أحصن القارىء بعجالة سريعة عن الحب وعن التراث التربوى ، قبل قراءته رؤية التربوى الأمريــــكى الدكتـــــور « **ليو بوسكاليا** » ، **فى مواجهته الدافئة الرائعة للحب** · فى كتابة الصغير عن أكبر تجربة فى حياة البشر ··· ونجد مع كل ما نعرفه عن الحب ، أننا نعرف القليل جدا ···

فلنقرأ هذا الكتاب ونتعلم ·

وقبل أن أتركك يا قارئى العزيز ، فلنقرأ معـــا قول **جبران خليل جبران** عن التعليم فى كتابه « النبى » :

ـ « لا يستطيع انسان أن يكشف لك عن شىء ، الا اذا كان غافيا فى فجر معرفتك ·

المعلم الذى يمشى فى ظل المعبد بين مريديه لا يعطى من حكمته ، بل من ايمانه ومحبته ·

فان كان قد أوتى الحكمة حقا ، فانه لا يدعك تلج باب حكمته ، بل يقودك الى عتبة فكرك أنت ·

والفلكى قد يحدثك عن ادراكه للفضاء ، ولكنه لن يستطيع أن يمنحك هذا الادراك ·

والموسيقى قد ينشد لك اللحن الذى انتشر ايقاعه فى أرجاء الفضاء ، ولكنه لن يستطيع أن يعيرك الأذن ، التى تلتقط الايقاع ، ولا الصوت الذى يردده ·

والعالم المتمكن من حساب الأعداد يستطيع أن يحدثك عن مجالات الوزن والقياس ، ولكنه لن يستطيع أن يقود خطاك اليها · لأن بصيرة هذا لا تعير ذاك جناحها ·

وكما أن كل واحد منكم فرد قائم بذاته فى علم الله ، كذلك يجب أن يكون كل منـــكم فردا قائما بذاته فى علمه بالله ، وفهمه لأسرار الأرض » ·

صبرى الفضل

المراجـــع العربيـــة

فيما يلى مجموعة من الكتب والمراجع التى استفدنا بها فى كتابة المقـــدمة ٠

أولا :

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ المعجم المفهرس لألفـــاظ القرآن الـــكريم ـ وضعه محمد فؤاد عبد البـــاقى ٠

٣ ـ تفسير القرآن العظيم « تفســـير ابن كثير » ـ لأبى الفدا الحافظ ابن كثير ٠

٤ ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن الكريم
تفسير القرطبى ـ للقرطبى ٠

٥ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان ـ جمع محمد فؤاد عبد الباقى ٠

٦ ـ فتح البارى ـ بشرح صحيح البخارى ـ لابن حجر ٠

ثانيـــا :

٧ ـ أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

٨ ـ أحمد فؤاد الأهوانى : جون ديوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٩ ـ الغزالى : احياء علوم الدين ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ ٠

١٠ـ الغزالى : المنقذ من الضلال ، مطبعة حجازى ٠

١١ـ برتراند رسل : تاريخ الفلســـفة الغربية (ترجمة زكى نجيب محمود) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ م ٠

١٢ـ جبران خليل جبران ـ النبى ترجمة د٠ ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر ٠

١٣ـ خالد محمد خالد : انســانيات محمد ـ مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

١٤ـ صبرى الفضل : بين الآباء والأبناء ـ تعريب ـ مكتبة الدار العربية للكتاب ١٩٨٨ ٠

١٥ـ صبرى الفضل : مختارات من الأدب اليابانى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ ٠

١٦ـ محمود عبد الرازق شفشق : الأصول الفلسفية للتربية ـ دار البحوث العلمية ، الكويت ـ ١٩٨٠ م ٠

١٧ـ منرو : المرجــع فى تاريخ التربيــة (ترجمة صالح عبد العزيز) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ م ٠

١٨ـ د ٠ محمد مصطفى حلمى : الحيــاة الروحية فى الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ٠

١٩ـ مصطفى محمود : من أسرار القرآن ، دار المعارف ١٩٧٨ م ٠

٢٠ـ مصطفى محمود : الطريق الى الكعبة ـ دار العودة بيروت ١٩٧١ م ٠

٢١ـ على شلش : تاجور شاعر الحب والحكمة ـ دار المعارف ١٩٧٨ م ٠

٢٢ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثـــة ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٧ م ٠

المراجـــع الأجنبيـــة

ثالثـــا :

(١) Butts, Freeman., A Cultural History of Western Education, McGraw-Hill, New York 1955.

(٢) Dewey, John., Experience and Education, New York, 1938.

(٣) Merit Students Encyclopddia, New York, 1985.

(٤) Rousseau J. J., Emile, Everyman's Library Dutton, New York, 1950.

(٥) Schilpp, Paul Arthry, (ed.), The Philosophy of Bertrand Rusdell, North Western University, Evanston, Illinois, 1944.

(٦) Spencer, Herber., Education : Intellectual, Moral, and Physical, Appleton, New York, 1883.

(٧) Wingo G. Max., Philosophies of Education : An duction. M.C. Health and Co. 1974.

★★★

تنـــويـــه

فى عام ١٩٨٠ اشتريت كتاب (الحب) لمؤلفه « د٠ ليو بوسكاليا » من احدى مكتبات سان فرانسسكو ، المدينة الجميلة التى أحببتها ، حيث كنت أنهى دراساتى للماجستير فى لأادب والتربية من جامعتها ٠ وقرأت الكتاب وأعجبت به ٠ ولم يسعفنى الوقت أن أترجمـه ، خصوصا أننى انخرطت مباشرة فى دراسة الدكتوراه بجامعة توليدو بولاية أوهايو ٠ ثم عدت الى الكويت التى كنت أعمل فى معاهدها العليا وجامعاتها الفنية ٠٠ والكتاب لا يزال معى يتنقل من ولاية الى أخرى ومن بلد الى بلد ، ولم يحظ الا برجوعى اليه من وقت لآخر فتزداد رغبتى فى ترجمته واطلاع القارىء العربى عليه حتى تحققت لى هذه الأمنية التى شاركنى فيها الكثيرون٠وأخص منهم بالذكر الموسوعى الأستاذ مختار الســـويفى الذى قرأ الأصـــل وأثنى عليه ٠ والصديق العزيز محمد العزب موسى ، رحمه الله ، الذى كتب تقديم للكتاب ، قبل أن يفجعنا برحيله المفاجىء فى ١٠ ديسمبر ١٩٩٣ ، والأستاذ الفاضل خليفة على محمود ، أستاذى ومرشدى الى الحب الالهى ٠ أذكر أول مرة قابلته فيها فى ليلة شتوية باردة من شهر رمضان المبارك من ثلاثين عاما تقريبا بجوار مسجد الحبيب الحسين ، لفنى حب هادىء حنون ، وفى لمحة واحدة وفى خضم الزحام وآثرنى الحب بسكينة لم أشعر بها من قبل ولا من بعد ٠٠٠ لمحة لا زمان لها ولا مكان ٠٠ ! كم أتمنى أن ينعم بهذه اللمحة كل الأحباب ٠

كما أشكر الدكتور محمد محمود رضوان أستاذ التربية الذى راجع الأصل مراجعة دءوبة شاملة والأستاذ محمد حسن على دقته فى مراجعة تجارب الطباعة ٠

والله ولى التوفيق ٠٠ — صبرى الفضــل

« يعتبر غش النفس فى الحب أفظع أنـواع الخـداع ، انه خسارة خالدة لا يرجى لها اصلاح سـواء فى الزمن أو فى الأبدية » ٠

كيركيجارد
Ki-rkegaard

مقدمة الطبعة الانجليزية

فى شتاء عام ١٩٦٩ ، انتحرت طالبة ذكية مرهفة الحس من طالباتى ، كانت ـ كما يبـدو ـ من أسرة طيبة من الطبقة فوق المتوسطة ، وكانت تقديراتها المدرسية ممتازة ٠ كما كانت محبوبة ويسعى الجميع الى خطب ودهـا ٠

وفى اليوم الموعود من يناير قادت سـيارتها على طـول طريق « باسفيك باليسيديس » الصخرى فى لوس أنجليس ، وبعد ذلك ترجلت حيث تركت محرك السيارة دائرا ، ودلفت الى جوف صخرى شاهق مطل على المحيط الهادى ، وقفزت لتلقى حتفها على الصخور السفلية ، ولم تترك أية رسالة ، ولا كلمة تفسير واحدة ٠٠٠ كانت فى العشرين من عمرها فحسب ٠

لم أستطع قط أن أنسى عينيها ، المفعمتين باليقظة والحيوية ٠ واللتين يشع منهما الأمل ٠ بل اننى أستطيع تذكر أبحاثها وامتحاناتها ، التى قرأتها دائما باعجاب ٠٠٠ لقد كتبت تعليقا على أحد أبحاثها ، التى لم ولن تستردها أبدا ، « بحث رائع جدا ، متبصر ، ذكى وبالغ الدقة ٠ انه يدل على مقدرتك على تطبيق ما تعلمته على حياتك « الواقعية » ٠٠٠ عمل متقن ! » ٠ ولكن ٠٠ ماذا كنت أعرف عن حياتها « الواقعية » ؟!

كثيرا ما أتساءل : ترى ما الذى يمكن أن أقرأه فى عينيها أو فى أبحاثها ، اذا ما أتيحت لى رؤيتها الآن ؟ ··· ولكن ، كما هو الحال مع كثير من الناس ، وكثير من المواقف فى حياتنا ، فنحن نخبرهم بشكل سطحى ، حتى اذا ذهبوا فاننا لا نستطيع أن نخبرهم ثانية بنفس الطريقة أبـدا ·

لم أكن ألوم نفسى على موتها · انما أتساءل فقط ماذا كان يمكن أن أفعله لو أننى استطعت أن أقدم العون ، ولو حتى للحظة واحدة ؟

كانت هذه المسألة ـ أكثر من أى شىء آخر ـ هى التى حفزتنى ، فى تلك السنة ، لأشرع فى مباشرة فصل دراسى تجريبى ، على أن يتألف من مجموعة غير رسمية ، وأن يكون الانتظام فيه اختياريا ، حيث يمكن لأى طالب الحضور أو الانقطاع ، حسبما يشاء ، وعلى أن يخصص للنمو الشخصى للطلاب · لم أرغب فى أن يصبح فصلا دراسيا لحل المشكلات أو للعلاج النفسى الجماعى ، لأننى مرب ولست بطبيب نفسانى ·

لقد أردت لهذا الفصل الدراسى أن يكون تجربة فريدة فى التعلم · أردت أن يكون له اطار محدد ، وهو ـ مع ذلك ـ متحرر ، وأن يكون متسعا لاهتمامات الطالب ومصـــالحه ، وأن يرتبط بتجاربه وخبراته المباشرة · لقد كان الطلاب الذين أتعامل معهم من المهتمين بالحيـــاة ، والمعيشـــة ، والجنس ، والنمو ، والمســـئولية ، والموت ، والأمل ، والمستقبل · وكان من الواضح أن الموضوع الوحيد الذى يحيط بكل هذه الاهتمامات ويقع منها بمنزلة القلب ـ بل أكثر ـ هو الحب ··· لهذا سميت الفصت الدراسى « فصل الحب » !

وكنت أعرف مسبقا أننى لن أستطيع أن « أدرس » ـ بالمعنى الرسمى ـ لمثل هذا الفصل ، فذلك يقتضى غير قليل من الجرأة ·

كما كنت أيضا محدودا فى معلوماتى وخبراتى بالموضوع · وكنت منشغلا الى حد كبير ـ وكان كل طالب من طلابى كذلك ـ فى اكتشاف المعنى الحقيقى للكلمة · وكل ما كان يمكننى فقط ، هو أن أقوم بدور الميسر للطلبة ، أثناء ارشاد بعضنا بعضا لنزداد قربا من فهم هذه الظاهرة المرهفة ··· ظاهرة الحب البشرى ·

ولم يقابل عزمى على الشروع فى مباشرة مثل هذا الفصل الدراسى ، بأية مقاومة طالما أنى لا أتقاضى مرتبا عنه ، وطالما كان على حساب وقتى

الخاص ، وبدون أن يحسب فى التقدير الدراسى للطالب • بالطبع ، رفعت بضعة حواجب ، وجحظت بضع عيون ، فأصحابها لا يعتبرون الحب موضوعا دراسيا ، ولا جزءا جادا من أجزاء المنهج الجامعى •

لقد تسليت كثيرا فى الأسابيع التالية لذلك بالنظرات الغريبة • التى رمقنى بها بعض الزملاء • وفى مناقشة خططى على الغداء ، بمركز الكلية ، نعت أحد الأساتذة الحب « بالشذوذ » ••• كما خلع الوصف نفسه على كل من يتصدى لتدريسه • وتساءل آخرون بسخرية وبنظرة تخابث ، عما اذا كان الفصل يتطلب معملا أو مختبرا ، وهل سأكون المتفحص الأساسى ؟

ومع ذلك ، استمر حضور الطلاب للفصـــل فى الازدياد ، حتى اضطررنا أن نغلق باب التسجيل على ١٠٠ طالب فى العام • كان الطلاب يمثلون جميع الأعمار ، فى المستويات المختلفة من مستجدين وخريجين ، وبداهة كانت درجاتهم متفاوتة من الخبرة والحنكة • وكان كل منهم ينفرد بخصائصه ، وهكذا ، فلهم طرقهم الفردية لفهم الموضــوع ، ولكل معارفه الخاصة ، التى يتدارسها مع زملائه •

ان هذا الكتاب هو ثمرة « الفصل الدراسى للحب » • وهو ، بذلك لا يقصد به بأية صورة أن يكون عملا علميا أو فلسفيا متعمقا فى الحب • أو أن يكون حاسما ونهائيا ، فى الموضوع •

انه بالأحرى مشاركة لبعض الأفكار الحيوية العملية والأحاسيس والملاحظة ، التى انبثقت من المجموعة التى بدت لى وثيقة الصلة بالتكيف البشرى ، هذا ويمكن أن يقال ان الفصول الدراسية وأنا معهم ــ أسهمنا فى كتابة هذا الكتاب ، كما يمكن القول بأن الكتاب له أكثر من ٤٠٠ مؤلف •

اننا لم نحاول مطلقا ، ولا كان فى استطاعتنا فى خلال ثلاث سنوات، أن نعرف الحب • لقد شعرنا ونحن ننمو فى الحب ، أننا ــ لكى نعرفه ــ فان ذلك يعنى أن نحده ونحدده ، والحب يبـــدو لا نهائيــا • وكما قال أحد الطلاب :

ــ أجد الحب يشبه المرآة كثيرا • عندما أحب شخصا آخر ، يصبح مرآتى وأصبح أنا مرآته ، وبانعكاس حب كل منا نرى اللانهاية !

تمهيــــد (*)

اذا كنا « سنحب » معا ، فمن المهم أن تعرف من أنا ومن أكون ٠ اسمي : بوسكاليا ، وينطق كأى شيء فى العالم ٠ دائما أبدأ برواية هذه القصة لأنى أراها مبهجة ٠ منذ قريب طلبت مكالمة تليفونية بعيدة ، وكان الخط مشغولا ، فقالت عاملة التليفون انها سوف تطلبنى ، فأعطيتها اسمى وانتظرت برهة ، وبعدها رن التليفون ٠ وعندما التقطته ، قالت :

ــ من فضلك بلغ دكتور بوكســكار (١) أن مكالمته التليفونية جاهزة ٠

ــ تقصدين بوسكاليا ؟

فضحكت مقهقهة وقالت :

ــ سيدى ، يمكن أن يكون ــ اللعنة ــ أى شيء هكذا تقريبا !

ان لى ــ مع اسمى ــ خبرات ممتعة ٠ لأنه ليس فقط بوسكاليا ، ولكن اذا تطلعت اليه فسوف ترى أيضا ليو (٢) ف ٠ انه فى الحقيقة ليوناردو والحرف الأول من الأسم الأوسط هو ف ، ولكنه فى الواقع هو الاسم الأول ، وهو فيليس ، ومعناه « ســعادة » ٠ أليس هذا غريبا ؟ سعادة ليوناردو بوسكاليا ! من فترة قريبة أردت أن أزور دول الكتلة الاشتراكية ، واحتجت الى « تأشيرة دخول » وفى حجرة كبيرة بلوس أنجليس ملأت استمارة رسمية جدا وسلمتها ٠ وبعدها طلب منى أن أجلس وأنتظر حتى ينادوا على اسمى ٠ وعندما حان الوقت ، وقف هذا الرجل المسكين وتطلع الى الاستمارة ، وعرفت أنه أنا الذى سينادى عليه ٠ لقد قام بنوع من الحركة الثنائية ، أخذ نفسا عميقا ، ورفع بصره الى أعلى ، ثم قال « فايليس ؟ » (٣) وأقسم انى سأستجيب بالرد على أى شيء الا فايليس ٠

(★) مقتطف من كلمة القيت فى تكساس ١٩٧٠ ٠

(١) سيارة ذات صندوق ــ (المترجم) ٠

(٢) لفظ ليو Leo يعنى (برج الاسد) ــ (المترجم) ٠

(٣) اسم من أسماء البنــات بمعنى زهرة ــ (المترجم) ٠

نعم ، اننى فى « حب أكيد » ولست أخجل من ذلك ٠ لدى رسالة مفردة ، ويمكننى أن أعطيك اياها الآن ٠ ومن ثم يمكنك أن تطرح الكتاب جانبا ، وتذهب وتتمشى وتتشــابك بالأيدى مع شــخص ما أو تفعل ما بدا لك ٠

اننا – فى مجتمعنا – نعيش فى وقت بدأنا ننظر فيه – بحق – متسائلين : ماذا تعنى هذه الحياة ؟ ما هو التعلم ، وما هى عمليات التغيير ؟ لقد بدأنا نتعرف على مسميات جديدة ٠٠٠ اننا نتطلع الى « التكييف الشرطى » ، اننا نتطلع الى « تشكيل السلوك وتعديله » ، كما نتطلع الى التدعيم والتقوية ٠٠ وانه من الضرورى أن ندعم ونقوى ، ذلك أن ما هو مدعوم من المحتمل أن يؤثر على السلوك ٠ اننا نستخدم كل ما نملك من أشياء فى الدعم والتقوية ٠ نستخدم النقود ، ونستخدم الأجراس ، ونستخدم الصدمات الكهربائيــة ، بل حتى اننا نستخدم الحلوى ٠ لقد أصبحت (M & M) (*) تعنى الشيء الكثير ٠ وعنــدما يعطى شخص ما الاستجابة الصحيحة ، ندس بقطعة (M & M) فى فمه ٠

ان رسالتى لك اليوم هى ببساطة أن أفضل (M & M) فى العالم هو الانسان الدافيء النابض الذى لا يذوب ٠٠ أنت !

ان الحب الحقيقى هو ظاهرة انسانية تخص الانسان وحده ٠

منذ سنوات قليلية ، بدأت فصــلا للحب فى الجامعة ٠ وأقوم بالتدريس فى هذا الفصل ٠٠ عن الحب ، وربما كنا الجامعة الوحيدة فى الولايات المتحدة الأمريكية التى لديها مثل هذا الفصل ٠ انه يلتقى مساء كل ثلاثاء ٠ نجلس على الأرض ونحكى ، وأنا متأكد أن الذبذبات تحس فى العالم أجمع ٠ اننى لا أعلم الحب ، بالطبع ، اننى ببساطة أيسر النمو فى الحب ٠

الحب ظاهرة تكتسب بالتعلم ، وأعتقد أن علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا (علم الانســان) ، وعلماء النفس سيقولون لنا هذا بلا تردد ٠ والذى يقلقنى هو أنه ربما كان الكثيرون منا غير سعداء بالطريقة التى تعلمناه بها ٠ وكأناس ذوى خبرة يجب أن نؤمن – عن يقين – بشيء واحد أكثر من أى شيء آخر ٠٠٠ نؤمن بالتغيير ٠ وهكذا ، اذا لم تحب مكانك فيما يتعلق بالحب ، فانه يمكنك أن تغيره ٠٠٠٠ يمكنك أن تخلق منظرا جديدا ٠ ويمكنك فقط أن تستبعد ما لديك ٠ وتلك هى المعجزة ٠ اذا كنت تمتلك الحب ، فانه يمكنك أن تعطيه ، واذا لم تكن تمتلكه ،

(★) من أشهر ماركات الحلوى والشيكولاته فى الولايات المتحدة الأمريكيــة – (المترجم) ٠

فلن تقدر على اعطائه . لأن فاقد الشيء لا يعطيه ... وفي الواقع انه ليس بالفعل حتى مسألة اعطاء ، أهو كذلك ؟ انها مسألة مشاركة . مهما أملك من شيء فانني أستطيع اشراكك معي فيه ، ولن أفقده لأني لا أزال أملكه . فمثلا أستطيع أن أعلم كل قارىء كل شيء أعرفه ، وسأظل أعرف كل شيء أعرفه . ومن الممكن لي – ولا يعد من غير المعقول – أن أحب كل واحد بقوة متساوية ولاأزال أمتلك كل طاقة الحب التي كانت عندي دائما ... ان هناك كثيرا من المعجزات لـــكونك انســـانا ، ولكن هذه هي أعظم المعجزات .

ومنذ عهد قريب فقط ، أصبح من الممكن الدفاع عن ذكر كلمة « حب » . وكلما ذهبت لاتحدث في مكان ما ، سألني بعضهم :

– هل ستتحدث عن الحب ؟

فاجيب :

– بالتأكيـــد .

فيقـــول :

– وما هو عنوان حديثك ؟

فاجيب :

– دعنا فقط نطلق عليه « الحب » .

فيحدث تردد وجيز ، ثم يقولون :

– حسن ، نعرف . أنه لقـاء مهني ، وقد لا يفهم . ماذا ستقول الصـــحافة ؟

وهكذا اقترح كعنوان :

– « العاطفة كمعدل للسلوك » .

ويوافقون على هذا ، حيث يبدو مقبولا أكثر وعلميا أكثر ويصبح الكل سعيدا . لقد تجاهل العلماء الحب في واقع الأمر . وهذا عجيب .. لقد قمت أنا وطلابي بدراسة ، فبحثنا في كتب علم النفس ، وكتب في علم الاجتماع ، وكتب في علم الأنثروبولوجيا (دراسة الانسان) ، فلم نجد حتى اشارة لكلمة « حب » . وهذا شيء مذهل لأنه شيء نعلم جميعا أننا نحتاج اليه ، شيء كلنا نبحث عنه باستمرار ، ومع ذلك فليس ثمة فصل لتدريسه . اذ يفترض أنه يأتي الينا بواسطة ، وعبر قوة من القوى الغامضة في الحياة .

من آخر ما كتب بيتيريم سوروكن ـ Pitirim Sorokin ـ كتـــاب يدعى « طرق الحب وسلطانه » · انه كتاب ملىء بالدراســات الرائعة عن العاطفة ، التى شغل هذا الرجل بها نفسه اذ كان قلقا ـ بالفعل ـ بسبب ما يبدو من أن كل شخص يسير فى الاتجاه المضاد · ويقول دكتور ألبرت شفايتزر ـ Dr. Albert Schweitzer :

ـ « اننا جميعنا نعيش مع بعضنا البعض ، ولكننا جميعنا نموت من الوحدة » · انى أحس هذا ، وأنت تعرف هذا ، ودكتور سوروكن يعتقد فى صدق هذا أيضا وفى كتابه يحاول أن يشارك فى بعض الأشياء ، التى قد تجمعنا معا مرة أخرى ، واذا كنا قد احتجنا الى ذلك فى وقت ما ، فنحن فى حاجة اليه الآن · وفى مقدمة كتابه **يقول :**

ـ « ان العقلية الحسية التى لا تؤمن الا بالادراك الحسى تكفر بشكل مؤكد بسطوة الحب · انه يظهر لنا كشىء وهمى · ونسميه خداعا نفسيا ، مخدرا لعقول الشعب ، هراء غير علمى ، ووهما يرفضه العلم » ·

بعضنا قد نشــأ على كتاب مدرسى من تأليف **صامويلســـون** ـ Samuelson هل تذكرون هذا الكتاب الكئيب ؟ ومع ذلك ففى آخر طبعاته ، وهى الطبعة الخامسة ··· (تصور ··· خمس طبعات من نفس الكتاب ؟) يوجد فصل سيدهشك ، يدعى « الحب والاقتصاديات » · انه فصل جميل · يقول فى مقدمته :

ـ « أعرف أن زملائى فى هارفاد ، سيقولون اننى قد فقدت عقلى ، ولكنى أريدهم أن يعرفوا أننى الآن ـ فقط ـ قد وجدته » ·

ويقول سوروكن أيضا :

ـ اننا متحيزون ضـــد كل النظريات ، التى تحاول أن تبرهن على قدرة الحب فى تحديد الشخصية والسلوك البشرى ، وفى التأثير على مجرى التطور الأخلاقى والعقلى والاجتماعى والبيولوجى ، وفى التأثير على اتجاه الأحداث التاريخية وفى تشكيل المؤسسات الاجتماعية والثقافية ، وفى محيط الادراك الحسى ، تبدو هذه النظريات غير مقنعة ، وبالتأكيد غير علمية ، كما تبدو مجحفة وخرافية » ·

وأظن ان ذلك حيث نقف بالفعل · فالحب هراء مؤذ ملىء بالخرافات· وغير علمى ·

أحب أن أتدارس معك بعض الطرق ، التى أعتقد أننا نستطيع بها تدعيم أولئك المحبين ، من الناس ذوى الرقة والبهـــاء ٠٠٠ « الذين لا يذوبون » ٠

أول كل شيء على الفرد المحب أن يهتم بنفسه ٠ وهذا هو رقم واحد ٠ ولا أقصد بذلك رحلة مع الذات ٠ اننى أقصد الشخص ، الذى يهتم بنفسه حقيقة ، ذلك الذى **يقول :**

ـ كل شيء يصفى من خلالى ، لذلك كلما ازددت عظمة ، ازدادت مسئوليتى لكى أعطى ، وكلما ازددت معرفة ، ازددت اقبالا على العطاء ، وكلما ازددت فهما ازدادت قدرتى لتعليم الآخرين ولأجعل نفسى أعظم العالمين روعة ورقة وجمالا ٠

لقد أجريت أبحاث مثيرة ، فى كاليفورنيا ، على يد بعض علماء النفس الانسانيين العظام ، من أمثال : روجرز ـ Rogers ومازلو ـ Maslow وهيربرت أوتو ـ Herbert Otto ٠٠٠ يقول هؤلاء الرجال ، وغيرهم ، اننا لا نبرز فى حياتنا الا جزئية ضئيلة مما نملكه ، وأن هناك قوة كامنة هائلة فى الانسان ، وانه ليس من المستهجن القول بأننا اذا رغبنا فى أن نطير بالفعل ، فاننا نستطيع الطيران ٠٠٠ نستطيع أن نملك القدرة على الشعور بالأبهة والتسامى ، حتى لنستطيع الاحساس باللون ، نستطيع أن نملك القدرة على الابصار أفضل من النسر ، والقدرة على الشم أفضل من كلب الصيد ، وأن نملك عقلا يبلغ من الكبر الحد ، الذى يكون ممتلئا بشكل دائم بأحلام مثيرة ٠ ومع ذلك فنحن سعداء تماما أن نمثل ـ فقط ـ قدرا ضـــئيلا مما نحن فى الواقع ٠ ويقترح عـــالم نفسى لنـدنى ـ « ر٠د٠ لاينج » ـ R. D. Laing فى كتابه « سياسات التجربة » شيئا مثيرا جدا ٠٠٠ شيئا غريبا ومخيفا بعض الشيء ، ومع ذلك فانه يمثل تحديا مدهشا ، **يقول :**

ـ ان ما نفكر فيه أقل بكثير مما نعرف : وما نعرفه أقل بكثير مما نحب : وما نحبه أقل بكثير مما هو موجود ، والى هذا المدى المحدد ، فنحن أقل بكثير عما نكون ٠ أليس هذا مزلزلا للعقل ؟

واذا كان الأمر كذلك ، فانه ينبغى أن تكون لدينا رغبة هائلة لنصير ٠ واذا وجهت كل الحياة نحو عملية الصيرورة والنمو والابصار والشـــم واللمس والاحساس فلن تكون هناك لحظة سأمة ٠ انى أصرخ فى طلابى :

ـ « فكروا فى ماهيتكم ، وفى كل القوى الرائعة الكامنة فيكم » ٠

يبدو لى أننا لم نحتفل فى الماضى بشكل كاف بالتفرد المدهش لكل فرد · ولعلى أوافق على أن الشخصية هى المجموع الكلى للخبرات ، التى لمحنا بها ، منذ لحظة الادراك ، الى هذه اللحظة من حياتنا ، الى جانب الصفات الوراثية ، ولكن ما يغفل عنه دائما هو عامل مجهول · شىء ما داخلك أنت هو ، الذى يختلف عن كل انسان مفرد ، والذى سوف يحدد كيف ستتعامل مع هذا العالم ، كيف سترى هذا العالم ، كيف ستصبح انسانا خاصا · وهذا التفرد هو ما يقلقنى ، لأنه يبدو لى أننا نسقطه ، أننا نفقده · اننا لا نؤكده ، اننـــا لا نحث النـــاس على أن يكتشفوه وينمـــوه ···

ان التربية ينبغى أن تكون عملية مساعدة كل انسان ليكتشف تفرده ، وتعلمه كيف ينمى هذا التفرد ، ثم تريه كيف يشارك فيه ، لأن ذلك هو السبب الوحيد لامتلاك أى شىء · تخيل كيف يبدو هذا العالم ، اذا كان الناس الذين تلقاهم على طول الطريق ، يقولون لك :

ـ انه لشىء طيب أنك متفرد · انه لشىء طيب أنك مختلف · أرنى اختلافاتك لعلى أستطيع أن أتعلم منها ·

ولكننا نرى مرات ومرات ، عمليات لمحاولة جعل كل واحد يشبه كل شخص آخر ·

منذ بضع سنوات ، عدت الى الفصول الدراســـية مع بعض طلابى المدرسين بالجامعة ، ودهشت حين وجدت نفس الأشياء ، التى كانت تجرى عندما كنت طالبا بالمدرسة مازالت كما هى ··· من سنين وسنين · فعلى سبيل المثال ، مدرسة الرسم تأتى · أتذكر كيف كنا دائما نتوقع ونســتعد لمدرســة الرسم ؟ كنت تضع أوراقك أمامك ، وتخرج الأقلام الملونة ، وتنتظر ، وأخيرا تتقدم هذه المدرسة المتعجلة · اننى أشعر فى الواقع ، بالأسف لمدرسة الرسم المتنقلة · انها تأتى ـ كما لو كانت فى سباق ـ من فصل آخر ، وليس لديها من الوقت ، الا ما يكفى لتحيى برأسها المدرس أو المدرسة الموجودة ، ثم تستدير ، **وتقول** :

ـ اليوم أيها الأولاد والبنات ، سوف نرسم شجرة ، ثم تذهب الى السبورة وترسم شجرتها ، التى هى كرة خضراء ضخمة ذات قاعدة بنية صغيرة · هل تذكر تلك الأشجار « مصاصات الحلوى » ؟ اننى لم أر قط شجرة تشـــبه تلك الشـــجرة فى حياتى ، ولكنها تضعها أمامهم هناك ، **وتقـــول :**

ــ حسن ، هيا يا بنات ، وأنتم يا أولاد ، ارسموا ٠

وينكب الجميع منشغلين فى الرسم ٠

اذا كان لديك قدر من التعقل ، حتى فى تلك السن المبكرة ، فانك تدرك أن ما تريده ، فى الواقع ، منك هو أن ترسم شجرتها ، لأنك كلما ازددت قربا من شجرتها تحسنت درجتك ٠ فاذا كنت أدركت هذا ، فى الفصل الدراسى الأول ، ثم قدمت لها مصاصة الحلوى الصغيرة ، **فانها تقول :**

ــ أوه ، رائع ٠٠٠ رائع ! ٠

ولكن هنا المرحلة الابتدائية ، وتلاميذ يعرفون الشجرة ، كما لم تعرفها هذه المدرسة ، التى لم تشاهد شجرة فى حياتها ٠ فالتلميذ قد تسلق الشجرة ، وقد احتضن الشجرة ، وقد سقط من فوق الشجرة ، وقد أنصت الى النسيم وهو يهب متخللا الفروع ٠ انه يعلم ما هى الشجرة بالفعل ، ويعرف أن الشجرة ليست مصاصة حلوى ! وهكذا يأخذ اللون الأرجوانى ، والأصفر ، والبرتقالى ، والأخضر ، والأحمر البنفسجى ، ويرسم هذا الشىء الجميل النابض بالحياة ويقدمه ٠ فتنظر نظرة واحدة ، **وتصرخ :**

ــ تلف دماغ !

هناك قصة مدهشة فى التربية دائما ما أطرب لها ٠ انها تدعى « **مدرسة الحيوان** » ٠ اننى أحب دائما أن أرويها ، لأنها وحشية جدا ، ولكنها حقيقة ٠ لقد كان المربون يضحكون منها ، على مدى سنوات ، ولكن لم يقم أحد نحوها بأى شىء :

تجمعت الحيوانات فى الغابة ذات يوم ، وقررت أن تفتح مدرسة ، وكان هناك أرنب ، وطائر ، وسنجاب ، وسمكة وثعبان مائى ، فاجتمعت وكونت مجلسا للتعليم ، أما الأرنب فقد أصر على أن يكون الجرى من بين مواد المنهج الدراسى ، وأصر الطائر على أن يكون الطيران جزءا من المنهج ، وأصرت السمكة على أن تكون السباحة من ضمن المنهج ، وأصر السنجاب على أن يكون تسلق الأشجار العمودية من المنهج ٠

وهكذا وضعت كل هذه الأشياء معا ، وأعدت دليلا للمنهج ، ثم أصرت على أن تدرس جميع الحيوانات جميع المواد ، ومع أن الأرنب كان

يحصل على امتياز فى الجرى ، فقد كان تسلق الشجر العمودى مشكلة حقيقية بالنسبة له ، وهكذا ظل يسقط كلما تسلق • وبعد فترة وجيزة ، أصيب بنوع من تلف الدماغ ، ولم يعد يستطيع الجرى ، وأدرك أنه بدلا من حصوله على تقدير « أ » فى الجرى ، بدأ يحصل على « ج » ، وبالطبع كان يحصل دائما على أدنى الدرجات « د » فى التسلق العمودى • أما الطائر فقد كان جميلا حقا فى الطيران ، ولكن عندما جاء الى الحفر فى الأرض ، لم يستطع أداء ذلك جيدا ، وظل يكسر منقاره وجناحيه ، وسرعان ما أخذ يحصل على تقدير « ج » فى الطيران وعلى « د » فى الحفر والتنقيب • كما قضى وقتا عصيبا فى تسلق الشجر العمودى • ومغزى القصة ، أن الذى ألقى خطبة الوداع فى حفل التخرج (*) ، كان هو الثعبان المتخلف عقليا ، والذى أدى كل شىء بين بين ، ولكن التربويين كانوا كلهم سعداء لأن كل واحد كان يدرس جميع المواد ، وسمى هذا الضرب من التعليم ، بالتعليم العام ، عريض الأساس •

اننا نضحك من هذا ، ولكن هذا هو الواقع ، هذا ما فعلته أنت • اننا فى الواقع نحاول أن نجعل كل شخص على غرار أى شخص آخر ، وسرعان ما يتعلم الشخص أن القدرة على المطابقة والمماثلة هى مفتاح النجاح فى العملية التربوية •

وتستمر المطابقة قدما الى الجامعة ، فنحن فى التعليم العالى مذنبون مثلنا مثل كل شخص آخر • اننا لا نقول للناس :

ـ طيروا ! فكروا لأنفسكم •

اننا نعطيهم معرفتنا القديمة ونقول لهم :

ـ الآن ، هذا هو الأساسى • هذا هو المهم ، اننى أعرف أساتذة لا يدرسون الا أفضل « طريقة » ، وهى واحدة فقط ، انهم لا يقولون :

ـ هنا أدوات عديدة ، والآن هيا ابتكر أدواتك أنت :

هيا الى التفكير المجرد ••• هيا الى الحلم ••• احلم قليلا ••• أوجد شيئا جديدا •

أليس من الممكن أن يوجد من بين طلابهم حالمون أعظم منهم ؟ وهكذا يبدأ كل شىء بك أنت ، انك تستطيع أن تعطى فقط ما لديك • لا تتنازل

(*) عادة ما يلقى الطالب المتفوق خطبة الوداع فى حفلات التخرج - (المترجم) •

عن شجرتك ... تشبث بشجرتك ... انك أنت - فقط - توليفة القوى السحرية الوحيدة ، التى سوف تقدر - كما كانت دائما قادرة - على خلق مثل هذه الشجرة . فأنت هو أفضل « أنت » . وستكون دائما صاحب الأفضلية الثانية لأى شخص آخر .

اننا نعيش ، فى ثقافة لا يقاس فيها الشـــخص ، بمن يكون ، أو ما يكون ، ولكن بالأحرى ، بماذا يملك . فاذا كان لديه الكثير ، فلابد أنه رجل عظيم . واذا كان لديه القليل ، فلابد أنه تافه .

منذ حوالى سبع سنوات مضت ، قررت أن أقوم بشىء مستغرب حقا ، على الأقل كان يعتبر مستغربا فى ذلك الوقت . أقدمت على بيع كل ما أمتلكه ، سيارتى ، وثيقة التأمين على حياتى ، منزلى ، كل الأشياء « المهمة » ، وأن أرحـــل لمدة سنتين . كنت أريد ان أبحث عن نفسى . وحدث ، وقضيت معظم وقتى ، فى آسيا ، لأنى أعرف عنها أقل مما أعرفه عن أى جزء آخر من العالم . ان دول آسيا هى دول نامية ، فما لديهم ضئيل جدا ، ولذلك ، فلابد أن تكون دولا تافهة ، الى حد كبير .

حسن ، لقد اكتشفت خلاف ذلك تماما . فأولئك الذين ذهبوا منكم الى هناك أو الذين نقبوا وبحثوا ، فى الثقافة الآسيوية سيوافقون على أن هذه النظرة الغربية خطأ فاحش ، لقد تعلمت الكثير ... تعلمت فى آسيا الكثير من الأشياء ، وقد جلبته معى ، فوضعنى حقا على مســـار مختلف . الى أين يقودنى ؟ ... لا أدرى ولا أهتم ، ولكنه مختلف ومثير ورائـــع .

لقد وجدت شيئا ممتعا جدا فى كامبوديا ... فالبلد مؤلف فى الأغلب من بحيرة عظيمة تسمى تونل ساب - Tonle Sap ، ويعيش أناس كثيرون ويعملون حولها ، وعندما يذهب السياح الى كامبوديا ، يذهبـــون مبـــاشرة الى **انجـــكور وات** Angkor Wat ، وهـــذا ما يجب عليهم ، فهى فى منتهى الروعة ، فالأطلال البوذية ، التى قد التهمتها غابات من الأشجار الضخمة ذات القردة المتأرجحة خلالها ، شىء لا يصدق . انها تفوق أجمح أحلامك . عندما كنت هناك ، التقيت بسيدة فرنسية شـــغفها البلد حبا حتى ، لقد بقيت بعد مغادرة الفرنسيين كامبـــوديا ، ولو أنها كانت تعتبر مواطنة من الدرجة الثانية . لقد عشقت الناس والبلد حقا ، وكانت راغبة فى تحمل أى شىء فى سبيل ذلك ، قالت لى :

- تعرف ياليو ، اذا أردت أن تكتشف هؤلاء الناس بالفعل ، فلن تكتشفهم فى الأطلال البوذية ، بل تكتشفهم فى قراهم . خذ دراجتى ، واذهب الى تونل ساب - Tonle Sap ، وشاهد ما يحدث الآن .

ان الطبيعة فى كامبوديا قاسية جدا • فكل سنة تأتى رياح المونسون تجرف كل شىء ، الى الأنهار ، ومصارف المياه ، والبحيرات • ولذلك فأنت لا تبنى منازل دائمة كبيرة ، لأن الطبيعة قد كشفت لك أنها سوف تجرفها فى نهاية المطاف ، وانما تبنى أكواخا صـــغيرة • ان السياح ينظرون ويقـــولون :

ـ أليسوا ظرفاء وان كانوا فقراء ! يعيشون فى مثل هذه القذارة ، وهذا البؤس •

انها ليست قذارة ، وليست بؤسا • ان المسألة هى : كيف تنظر أنت اليهـــا ••• انهم يحبون منازلهم فهى مريحة ومناســـبة لمناخهم وحضارتهم • وهكذا ذهبت الى البحيرة ، ووجدت الناس فى مرحلة التجمع بعضهم مع بعض ، والتهيؤ لمواجهة رياح المونسون ، ومعنى هذا أنهم كانوا يشيدون أطوافا كبيرة مشتركة • وعندما تهب رياح المونسون وتجـرف معها منازلهم ، تعتلى عدة أسر الطوف ويعيشون عليه معا ، نحو ستة شهور من السنة •

أليس جميلا أن تعيش مع جيرانك ؟ تخيل لو أننا استطعنا أن نشترك فى صنع طوف • وأن نعيش معا حوالى ستة شهور فى السنة ! ماذا يحتمل أن يحدث لنا ؟ سوف نتحقق فجأة مرة أخرى ، من أهمية ، أن يكون لك جار ••• وأننى أحتاج اليك لأنك قد تصطاد سمكة اليوم وسوف نأكلها ، أو أحبك لأنى أستطيع أن أجلس وأتحدث معك اذا كنت وحيدا ، وأتعلم منك ، وأفهم عالما آخر • وبعد ما تتوقف الأمطار تعود الأسر الى سابق عهدها ، فتعيش فى وحدات مستقلة •

وقد أردت أن أساعدهم فى النقل فسرت نحوهم وقدمت نفسى للمساعدة ، مستخدما لغة الاشارة ، ولكن لم يكن لديهم شىء لينقل •• بعض القدور والمقالى ، وحصيرتان ، وقليل من الملابس ، **وقلت لنفسى :**

ـ ماذا ستفعل اذا هبت رياح المونسون غدا على لوس انجليس ؟ ماذا ستأخذ ؟ جهاز تليفزيونك ؟ سيارتك ؟ الزهرية التى أحضرتها خالتك كاثرين من روما ؟

فكر فى ذلك • لقد تصورنا هذا بشكل دراماتيكى خلال حرائق لوس أنجليس • لقد نشرت صور فى صحيفة « لوس أنجليس تايمز » أثارت فى الدهشة حقا • كانت احداها لامرأة تركض فى شوارع ماليبو • ومعها رزمة كبيرة من الكتب ، ومنزلها فى خلفية الصورة تلتهمه النيران ، **وفـــكرت :**

— واو ! أحب أن أعرف هذه المرأة ، .. أحب أن أعرف تلك الكتب التى اعتبرتها بهذه القيمة الغالية .

وأحضرت الصورة الى حلقة مناقشة بالجامعة لطلبة الدراسات العليا ، يفترض أن يكونوا من الممتازين حقا ، **وسألت :**

— ماذا تظنون محتوى هذه الكتب ؟

هل تدرى ماذا قالوا ؟

— تقارير ضريبة دخلها !

هذا هو ما نحن عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بل اننى سمعت أن احدى السيدات هربت ومعها طوابع سنداتها الزرقاء (١) ! **وقالت :**

— لا أدرى لماذا فعلت ذلك ؟

الشىء الذى يدلك على مدى سخافة كل ذلك ، ولكن هل تعلم ماذا كان لديها بالفعل ؟ كانت ماتزال لديها نفسها . وهذا هو كل ما هنالك فى النهاية لديك « أنت » فقط .

وعندئذ أظن هذا الشخص المحب قد جرد نفسه من الشعارات . تعرف ، اننا رائعون حقا ... أن تكون انسانا هو أعظم شىء فى الدنيا ، ولكننا مضحكون أيضا ، وعلينا أن نتعلم أن نضحك ثانية . وعلى كل ، فنحن نفعل أشياء مضحكة . لقد خلقنا الوقت ، مثلا ثم أصبحنا عبيدا للوقت . مثل الآن ... قد ترى فى خلفية عقلك أن أمامك عشر دقائق فقط ، قبل أن يتحتم عليك ان تفعل هذا أو ذاك . وقد تكون فى مكان ما حيث يحدث شىء مالا يصدق بالفعل ، ولكن الساعة ٧ : ١٠ ، موعد الانصراف ، وهكذا عليك أن تغادر . لدينا أجراس ترن . أجراس ! وكل مرة نسمع فيها جرسا ، نستجيب . انه يبلغنا بأننا يجب أن نكون هنا أو يجب أن نكون هناك . لقد خلقنا الوقت ، والآن أصبحنا عبيدا للوقت .

نفس الشىء يصدق مع الكلمات . عندما نقرأ كتبا مثل كتاب :

هاياكاوا — Hayakawa « استخدام اللغة واساءة استخدامها » أو كتاب : ويندل جونسون — Wendell Johnson « أناس فى ورطة » ،

---

(١) سندات تباع بسعر مرتفع بسبب ثقة الجماهير فى سجلها الطويل الحافل بالمكاسب الثابتة — (المترجم) .

فانك ترى مدى قوة اللغة الهائلة · فالكلمة هى مجرد بعض رموز صوتية لا معنى لها جنبا الى جنب ، وأنت تعطيها معنى ، ثم تلتصق هى بك · انك تعطيها معنى معرفيا ، وتعطيها معنى انفعاليا ، ثم ــ بعد ذلك ــ تعيش معها · لقد قام دكتور تموثى ليرى ــ Dr. Timothy Leary بعمل رائع على العقل عندما كان فى هارفارد · قال :

ــ « الكلمات هى تجميد للحقيقة » ·

فاذا تعلمت كلمة وفهمت المعنى العقلانى والمعنى الانفعالى لتلك الكلمة ، فلقد ارتبطت بتلك الكلمة بقية عمرك · وهكذا يبنى عالم كلماتك · وكل شىء يحدث يصفى من خلال هذا النظام اللصيق المتجمد ، ويعيقنا ذلك عن النمو · اننا نقول أشياء مثل :

ــ انه شـــيوعى ·

يا للهول ! نتفـــاداه ، ونتوقف عن الاستماع · بعض النـــاس يقــولون :

ــ « انه يهـــودى » ·

يا للهول ! نتفاداه ، ونكف عن احترامه ·

ــ انه داجـــو (*) ·

يا للهول ! شعارات ونعوت ، ونعوت وشعارات ! كم من الأولاد لم يتعلموا لمجرد أن شخصا ما وصمهم بنعت التصق بهم فى احدى مراحلهم الدراسية ؟ غبى ، مغفل ، غير متزن انفعاليا · اننى لم أعرف مطلقا طفلا غبيا · مطلقا ! مطلقا ! لقد عرفت أطفالا فقط ، وليس من بينهم اثنان متشابهان أبدا · ان النعوت هى ظواهر مبعدة ، تدفعنا بعيدا عن بعضنا البعض · السود ···· ما هو الرجل الأسود ؟ أنا لم أعرف اثنين متشابهين قط ··· هل هو يحب ؟ هل يقلق ويهتم ؟ ماذا عن أولاده ؟ هل بكى ذات مرة ؟ هل هو شاعر بالوحشة ؟ هل هو جميل ؟ هل هو سعيد ؟ هل هو يعطى شيئا لشخص ما ؟ هذه هى الأشياء المهمة ، وليس المهم أنه رجل أسود ، أو يهودى ، أو داجو ، أو شيوعى ، أو ديمقراطى ، أو جمهورى ·

لقد مررت بتجربة فريدة جدا فى طفولتى ، ويمكنك أن تطلع عليها فى السجلات التاريخية لأن جميعها مسجلة · لقد ولدت فى لوس أنجليس،

(★) مصطلح يطلق فى الولايات المتحدة الأمريكية على الايطالى أو الاسبانى أو البرتغالى كنوع من التعالى عليهم والحط من قدرهم ــ (المترجم) ·

وأبوای کانا مهاجرين ايطاليين • أسرة كبيرة ••• ماما وبابا كانا ـ كما هو واضح محبين عظيمين ! جاءا من قرية صغيرة فى سفح جبال الألب الايطالية السويسرية ، حيث كل فرد يعرف الآخر ، ••• يعرف كل واحد أسماء الكلاب ، ويخرج رجل الدين فى القرية ويرقص فى الشوارع ، فى المهرجانات الدينية ، مثله مثل أى شخص آخر • كان منظرا جميلا جدا ، وكان الحبور يعم هؤلاء الناس بهذه الطريقة القديمة • ولكنى ، عندما أخذونى الى المدرسة الحكومية ، فى سن الخامسة ، وتفحصنى شخص يبدو أنه رسمى جدا ، كان الشيء التالى الذى عرفته ، أنهم وضعونى فى فصل للمتخلفين عقليا ! لم يكن يهمهم أننى كنت قادرا على التحدث باللغة الايطالية وبلهجة ايطالية ، وأننى كنت أتحدث بعض الفرنسية وبعض الأسبانية ـ ولكننى لم أكن أتحدث الانجليزية بدرجة جيدة ، ولذلك اعتبرونى متخلفا عقليا • وأظن أن المصطلح الحالى هو « معوق ثقافيا » •

وهكذا وضعونى فى هذا الفصل المخصص للمتخلفين عقليا • والواقع أننى لم أمارس فى حياتى تجربة تعليمية أكثر اثارة مما مارست ! أقصد المدرسة الحنون ، التى يخفق قلبها بالحب •• كان اسمها مس هنت ، وأنا متأكد أنها كانت الوحيدة فى المدرسة ، التى تستطيع التدريس لهؤلاء الأطفال « البكم » •

كانت كبصلة كبيرة منتفشة ، وقد أحبتنى حتى لو كانت رائحتى ثوما • أذكر عندما كانت تأتى وتميل فوقى ، كم اعتدت أن أعانقها ملتمسا الدفء ! ولقد مارست كثيرا من أوجه التعلم من أجل هذه المدرسة ، لأنى أحببتها بالفعل • وفى أحد الأيام اقترفت خطأ فاحشا ••• كتبت صحيفة وكأننى رومانى • وصفت فيها كيف يقوم المصارعون بالقتال لامتاع الناس فى روما القديمة ، وما شابه ذلك • وكان أول شيء عرفته بعد ذلك ، هو أنهم أعادوا اختبـــارى ، وتم تحويلى الى فصل دراسى عادى ، أصبحت منه بملل بقية مسارى التعليمى •

كانت هذه فترة عصيبة بالنسبة لى ، فقد كان الناس يلتفون من حولى وينادوننى بلقب : داجو ، ووب (١) ، وهى تعبيرات كانت ذائعـــة الانتشار فى ذلك الوقت ، ولم أكن أفهمها ••• أذكر أنى تحدثت الى بابا ، الذى كان ـ ولايزال ـ من نوع الرجال المتدينين • **فسألته** :

ـ ما معنى داجو ؟ ما معنى ووب ؟

---

(١) ايطالى ـ مصطلح استفزازى للاهانة ـ (المترجم) •

فأجاب :

ــ أوه ، لا تعبأ يا فيليس ، الناس دائما يطلقون أسماء · انها لا تعنى أى شىء ، فهم لا يعرفون عنك أى شىء ليطلقوا عليك أسماء · فلا تدعها تقلقك · ولكنها أقلقتنى ! أقلقتنى لأنها نحتنى بعيدا ، وأقصتنى جانبا · انها خلعت على نعتا ··· وشعرت بشىء من الأسف ، أيضا ، لأنها كانت تعنى أن هؤلاء الناس لا يعرفون أى شىء عنى ، بالرغم من أنهم يعتقدون أنهم يعرفون ، بتسميتى داجو ، وبذلك صنفونى ، وقد أضفى عليهم ذلك بعض الراحة ، ولم يعلموا ، مثلا ، أن أمى كانت مغنية ، وأن أبى كان نادلا « جرسونا » عندما حل بهذا البلد · كان معتادا أن يعمل معظم الليل ، وكانت أمى تشعر ببعض الوحدة ، ولذلك كانت تجمعنا كلنا ــ نحن الأحد عشر ــ من حولها ونلعب أوبرا عايدة أو لابوهيم ، وكيف كنا نتصارع على الأدوار ! أذكر أننى كنت أفضل بترفلاى فى الأسرة ، ولا أزال ، وعندما تكتشفنى دار أوبرا متروبوليتان ، فسوف يتأتى لها استعراضها الحاسم المتميز · وفى سن العاشرة كنا قد حفظنا هذه الأوبرات عن ظهر قلب ، وكنا نستطيع أن نؤدى كل الأدوار · لقد فقد الناس كل هذا ، بسبب نعت ضيق الأفق ·

انهم لم يعلموا أيضا ، مثلا ، أن أمى كانت تعتقد بعدم اصابتك بأى مرض اذا وضعت ثوما حول عنقك ، فكانت تفرك الثوم وتلفه فى منديل وتضعه حول أعناقنا ، وترسلنا به الى المدرسة · وسأخبرك بسر صغير لقد تمتعت بصحة جيدة دائما · ولم أمرض فى يوم ما قط ، ولدى نظرياتى فى هذا الصدد ··· فلست أذكر أن أى شخص قد اقترب منى بشكل كاف لينقل الى جرثومة مرض ··· والآن ، وقد أصبحت رقيقا متنطسا ، وتخليت عن الثوم فان البرد يصيبنى كل سنة · لم يعلموا هذا ، حينما أطلقوا على ووب وداجو ، ولم يعلموا عن تعليمات أبى بأننا قبل أن نغادر المائدة ، كان علينا أن نخبره بشىء جديد قد تعلمناه فى ذلك اليوم · كنا نعتقد أن هذا شىء فظيع حقا ··· ياله من خبل وجنون ··· ! وعندما كنا أنا وأخواتى نغسل أيدينا ، ونتصارع على قطعة الصابون ، **كنت أقــول :**

ــ حسن ، من الأفضل لنا أن نتعلم شيئا ·

ثم نندفع الى دائرة المعارف وننقب عن شىء مثل « تعداد سكان ايران ··· مليون ··· » ونهمهم لأنفسنا : « تعداد ايران هو ··· » وكنا نجلس بعد تناول وجبة من أطباق الاسباجيتى الكبيرة ، وأكوام من لحم العجل عالية حتى لا تكاد ترى عبر المائدة ، وكان أبى يميل بظهره للخلف ، **ويقــول :**

— فيليس ، ما هو الجديد الذى تعلمته اليوم ؟

وأقول بنبرة رتيبة :

— سكان ايران يبلغون ٠٠٠

لم يكن يوجد أى شىء ليست له قيمة عند هذا الرجل ، ولقد كان يستدير نحو أمى **ويقول :**

— روزا ، هل كنت تعلمين ذلك ؟

فتجيب فى اعجاب :

— لا !

فنقول فى داخلنا :

— جى ، هؤلاء الناس مخبولون !

ولكن سأخبرك بسر ٠ ما أزال ، حتى الآن عند ذهابى الى سريرى بالليل متعبا كالمعتاد ، أستلقى وأقول لنفسى :

— فيليس ، أيها الولد العتيق ، ماذا تعلمت جديدا اليوم ؟

فاذا لم أستطع أن أذكر شـــيئا ، فعلى أن أتنـاول كتابا وأقلب صفحاته لأجد شيئا قبل أن أخلد الى النوم ، ولعل هذا هو ما يدور التعلم كله حوله ، ولكنهم لم يعلموا ذلك عندما نادونى : داجو ٠٠٠ ان النعوت ظواهر مبعدة ٠٠٠ فاياك من استخدامها ! وعندما يستخدمها الناس من حولك ، فلتكن لديك روح المبادرة والشجاعة **لتقول :**

—« ماذا وعمن تتكلمون ؟ ٠٠٠ لأننى لا أعلم شيئا كهذا ٠٠٠ » ٠

ولو أن كلا منكم وقف دونها ، لقضى عليها ، والواقع أنه ليست هناك كلمة تبلغ من السعة ما يكفى لوصف حتى أبسط رجل ، ولكنك أنت فقط تستطيع ايقافها ٠ ان الشخص الذى يحب الناس لا يتحملها ، فثمة أشياء جميلة كثيرة جدا عن كل انسان حتى تناديه باسم ، ثم ٠٠٠ تنحيه جانبـــا ٠

ثم ان على هذا الشخص المحب أن يكون ممن يقدرون المسئولية ، وليست هناك مسئولية فى العالم أعظم من أن تكون انسانا ، وخير لك أن تؤمن بذلك ٠

هذا الشخص المحب هو شخص يمقت الضياع ٠٠٠ ضياع الوقت ، ضياع طاقة الانسان الكامنة ٠ فكم من الوقت نضيع هباء ، وكأننا سنعيش

الى الأبد ! ٠ أرى أن أخبرك بهذه القصة لأنها واحدة من أعظم تجاربى ٠ كانت لدينا فتاة فى كلية التربية ، أعتقد أنه كان لديها كل الامكانات ، التى تؤهلها لتكون واحدة من أعظم المدرسات فى جميع العصور ٠ كانت بالغة الرقة والرفاهة ٠٠٠ وكانت تحب الصـــغار ٠ كانت تعقد العزم فيستحيل أن يثنيها أحد ٠٠٠ وسارت فى دراستها بالكلية ، وتخرجت ، واشــتغلت ، بالطبع ، لأنها كانت جميلة ٠٠٠ روحا وعقلا ، وعينت للتدريس فى فصول الصف الأول ٠ انى أذكر العملية كلها لأنى أشرفت عليها ، خطوة خطوة ، وفى لحظات عظيمة من الروعة من جانبها ٠

عندما دخلت المدرسة الشابة فصلها ، تطلعت الى دليل المنهج الذى كان يقول ــ وكما تعرف مازلنا نفعل ذلك ــ الوحدة الدراسية الأولى ستكون : « المتجر » ٠٠٠ الـ مـ ــ ت ــ ج ــ ر ٠ وتطلعت اليه **وقالت :**

ــ هذا غير ممكن ٠ هذه هى سنة ١٩٧٠ فى الولايات المتحـــدة الأمريكية ٠ وهؤلاء الصغار قد نشأوا فى المتاجر ، وارتادوها كثيرا وهم رضـــع فى العربات والسلال الصغيرة ، وكم تعثروا فى علب حســـاء « كامبل » وسكبوا الحليب ! انهم يعـرفون ما هو المتجـر ، فماذا نفعل بدراسة المتجر ؟ ومع ذلك فهذا ما هو مذكور فى دليل المنهج ، **وهكذا قالت لنفسها :**

ــ حسن ، ربما توجد بعض الميزات ٠ ويمكننى أن أعالج وحدة دراسية مثيرة حقا عن المتجر ٠ سأحاول بالفعل ٠ فى ذلك اليوم الأول ، جلست مع الصغار على السجادة ، **وقالت بحماس :**

ــ هيا يا أولاد ، هيا يا بنات ، ما رأيكم فى أن ندرس المتجر ؟ **فقـــالوا :**

ــ كريـــه !

لم يعد الصغار أغبياء فى هذه الأيام كما كانوا من قبل ٠ لقد بين **ماكلوهان ــ** Mcluhan أن معظم الأطفال قد شاهدوا (٥٠٠٠) ساعة تليفزيونية قبل دخولهم مرحلة الروضة ٠ لقد شاهدوا جرائم واغتصابات، لقد شاهدوا علاقات حب وغرام ، لقد استمعوا للموســيقا ، لقد زاروا باريس وروما ، وعن طريق أجهزة التليفزيون قد شاهدوا أناسا حقيقيين يموتون بعنف ٠ ثم نأتى بهم الى المدرســـة ، وندرس لهم عن المتاجر ، **أو نعطيهم كتابا يقول :**

« **توم قال :**

– أوه ، أوه ·

مارى قالت :

– أوه ، أوه ·

الجدة قالت :

– أوه ، أوه ·

سبوت (*) قال :

– أوه ، أوه ·

حسن ، اللعنة على سبوت ! لقد حان الوقت لكى ندرك أننا نعلم أطفالا لا أشياء · **ويجب أن نقول :**

– من هو الطفل الجديد الذى نعلمه ، وما هى حاجاته ؟

والا فكيف سيعيش ويبقى على قيد الحياة غدا ؟ وهكذا ، **قالت** ، هذه الفتاة الصغيرة – لأنها كانت مدرسة حقيقية :

– حسن ، موافقة ، ماذا تريدون أن تدرسوا ؟

فانفرجت أسارير ولد صغير واتسعت عيناه ، **وقال :**

– تعرفين ، يعمل أبى فى معامل اطلاق النفاثات ، ويمكنه أن يأتى لنا بمركبة صاروخية ونتعلم كل شىء عنها ، ونطير الى القمر !

وقال كل الأطفال :

– رائع ! هذا عظيم ·

فقـــالت :

– حسن ، فلنفعل ذلك ·

وفى اليوم التالى جاء الأب وأحضر لهم مركبة صاروخية · وجلس على السجادة مع الصغار ، وتحدث معهم عن الطيران الى القمر ، وكيف تعمل المركبة الصاروخية · ليتك كنت ترى ما كان يحدث فى ذلك الفصل · كانوا يتحدثون عن علم الفلك وعن النظريات الرياضية المعقدة · وأصبحت

(★) اسم لكلب مشهور فى بعض قصص الأطفال – (المترجم) ·

لديهم مفردات ليست من قبيل « أوه ، أوه » ، ولكن عن أجزاء المركبة الصاروخية ، والمجرات ، والفضاء ، مفردات ذات معنى وهدف ·

وفى يوم ما فى وسط كل هذا التعلم الرائع دخلت المشرفة الفصل ، وتطلعت حولها **وقالت :**

ـ يا سيدة « و » · أين متجرك ؟

فى يوم ما سوف أكتب هذه القصة لصحيفة النيويوركر ، وسأسميها « يا سيدة « و » ، أين متجرك ؟ » انتحت المدرسة بالمشرفة جانبا ، **وقالت :**

ـ تعرفين ، تحدثنا عن المتجر ، ولكن الصغار أرادوا أن يطيروا الى القمر · انظرى الى قوائم مفرداتنا ، وانظرى الى الكتب التى يعلمونها · وبعد ذلك سيأتينا رجل من معامل اطـــلاق النفاثات ويقوم بالشرح التطبيقى ···

فقالت المشرفة :

ـ ومع ذلك يا سيدة « و » فدليل المنهج ينص على أن يكون ثمة متجر ، وسيكون « ثمة متجر » ثم **قالت** وعلى شفتيها ابتسامة متزمتة « أليس كذلك يا عزيزتى ؟ » وجاءتنى المدرسة ·

وقالت :

ـ ما هذا الذى كنت تقوله لى عن الابتكار فى التعليم ، حتى جعلتنى أتحمس وأثار ، حتى اذا ما شرعت فى التدريس ، وجدت أن على أن أصنع موزا من الصلصال ! ··· انك أكلت موزا ، وانزلقت فوق قشرة مـوز وأصابك الملل من الموز ··· ثم قضيت ستة أسابيع فى وحدة دراسية تقوم فيها بعمل موز صناعى من الصلصال من أجل المتجر · يا للوقت الذى يضيع هباء ! ولذلك ، هل تدرى ماذا فعلت الفتاة ؟ لقد جلست مع صغارها ، **وقالت :**

ـ يا أطفال ، هل تريدون السيدة « و » أن تكون هنا فى السنة القـــادمة ؟

فقـــالوا :

ـ أوه ، نعم ·

ـ حسن ، اذن فعلينا أن ندرس وحدة المتجر ··

ـ وهو كذلك ، ولكن ، فلنقم بها بسرعة ·

وفى يومين قاموا بدراسة وحدة الستة أسابيع ... صنعوا هذا الموز اللعين من الصلصال ، ورصوا صناديق بعضها بجانب بعض ، ووضعوا كل شيء فيها . وأخبرتهم أيضا أنه عندما تأتى المشرفة ، فمن الضرورى أن يبينوا لها أنهم يمكنهم التعامل بالمتجر . وعندما جاءت المشرفة ، كانت سعيدة كل السعادة لوجود المتجر ، وكان الأولاد الصغار **يقولون :**

– هل تحبين أن تشترى بعضا من الموز اليوم ؟

وما أن غادرت حتى طاروا الى القمر ! يا له من نفاق ! وضياع ، ضياع ، ضياع !

ليس كافيا أن نعيش ونتعلم من أجل اليوم . لابد لنا أن نحلم عما سيكون عليه العالم فى غضون خمسين سنة ، وأن نعلم من اجل مائة سنة من الآن ومن أجل عالم أحلام يمتد الى ألف سنة من الآن .

فعالم اليوم لتلميذ الصف الأول لن يكون عالمه بعد ثلاثين سنة . انظر كيف تغير عالمنا ... لا عجب فى أننا مرتبكون ، وأننا نشعر بالضيق والقلق ... اذ لم نكن مستعدين للتعامل مع العالم الذى نعيش فيه ، وهو عالم يتحرك بسرعة فائقة ! وليس هناك وقت للجدة **لتقول :**

– أوه ، أوه .

ثم اننى أظن أن هذا الفرد المحب هو شخص تلقائى . هذا شيء أحسه بالفعل بقوة ، اذ أننى أعتقد أننا قد فقدنا القدرة على أن نكون تلقائيين ، فنحن جميعا متزمتون ازاء الوقت ، ونحن جميعا ملتزمون بنسق موحد ، ولقد نسينا ما هو الضحك ، ونسينا الاحساس بالضحكة الطيبة . لقد علمونا أن الفتاة المهذبة لا تضحك بصخب ... وانما تكون ضحكتها مكبوتة . من قال بذلك ؟ اميلى بوست (*) ؟ انها سقيمة ! ولماذا ننصت لشخص آخر ليخبرنا كيف نعيش حياتنا ؟ ومع ذلك نرى كل يوم فى الصحف : .

– « عزيزتى مس بوست ، ابنتى ستتزوج فى فبراير . أى نوع من الزهور يجب عليها أن تحمله ؟

اذا كانت ابنتك تريد أن تحمل فجلا ، فدعيها تحمله ...

– عزيزى مهندس التصميم الداخلى ، لدى ستائر حمراء داكنة فى حجرة الجلوس ، فماذا يجب أن يكون لون السجادة ؟

(★) من أشهر كتاب بريد القراء فى الصحف ـ (المترجم) .

انني أستطيع بدون تحيز أن أرى هذا القط الصغير جالسا فى مكتبه قائـــلا :

ـ « هاى ، هيه ، هيه » ٠

ويجيب :

ـ « أرجـــوانى » ٠

وهكذا تركضين وتشترين ســـجادا أرجوانيا ، بما يساوى آلاف الدولارات لقوائم الستائر الحمراء الداكنة ، وتقعين فى الفخ ، وتستحقين ذلـــك !

اننا لم نعد نثق فى أحاسيسنا ٠ الرجال لا يبكون ٠ من قال بذلك ؟ اذا شعرت أنك تريد البكاء ، فابك ٠ انى أبكى طول الوقت ٠

انى أبكى عندما أكون سعيدا ، وأبكى عندما أكون حزينا ، انى أبكى عندما يقول طالب شيئا جميلا ، وأبكى عندما أقرأ الشعر ٠

اذا شعرت بشىء ما ، فدع الناس يعرفون أنك تشعر به ٠ ألا ينتابك الضيق من هذه الوجوه الرواقية (*) الرزينة ، التى لا تبدى أى انفعال ؟ اذا شعرت بميل للضحك فاضحك ٠٠٠ اذا راق لك ما يقوله أحدهم ، فاذهب اليه وعانقه ٠ انها التلقائية مرة أخرى ، انها الحيوية مرة أخرى ، انها معرفة كيف يكون شعورك بالوخز الخفيف ٠

أحيانا أستيقظ فى الصـــباح ، وأشـــعر شـــعورا غريبا وطيبا ، ولا أســـتطيع أن أقاومه ٠ أذكر ذات مرة أننى كنت أغنى ، وأنا أقود سيارتى فى الطريق الى عملى ٠٠٠ كنت أغنى بترفلاى ، مشهد ثنائى الحب ، وكنت أؤدى كلا الدورين ، كأحسن ما يكون الأداء واذا برجل شرطة يحشر رأسه فى النافذة ، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة عظيمة ، **وقـــال :**

ـ سوف تكون هذه أكثر المخالفات التى أعطيتها غرابة ٠٠٠

فقلت :

ـ كيف ذلك ، أيها الضابط ؟

(*) الرواقية نسبة للمذهب الفلسفى الذى أنشـأه زينون حـوالى ٣٠٠ ق٠م ، والذى يقول بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة ـ (المترجم) ٠

فقـــال :

ـ كنت أطارد أحدهم من أجل السرعة ، فاذا بك تجتازنا كلينا ٠٠٠ اننى أحب ذلك ، وأشهد أننى حتى لم أره ، فقد كنت فى عالمى الجميل ٠

اننا على الدوام نبتعد عن أنفسنا وعن الآخرين ٠ يبدو أن المشهد هو الى أى مدى تستطيع أن تبعد عن الآخرين ، لا الى أى مدى تستطيع أن تقترب منهم ٠ اننى متحمس للعودة الى الطريقة القديمة للمس الناس ٠ ان يدى تمتد دائما لأنى عندما ألمس الناس أدرك أنهم أحياء ٠

اننا فى حاجة ملحة لهذا التأكيد ٠ ويقول الوجودى اننا نعتقد جميعا أننا غير مرئيين ، وان علينا فى بعض الأحيان أن نلجأ الى الانتحار ، لنثبت حقيقة أننا قد كنا على قيد الحياة ٠ حسن ، أنا لا أريد أن أفعل ذلك ٠٠٠ فهناك طرق أفضل وأقل تطرفا لاثبات ذلك ٠ فاذا عانقك شخص ما فانك تعرف أنك لابد موجود والا لكان قد اخترقك ونفذ من خلالك ٠٠٠ اننى أعانق كل شخص ، ما عليك الا أن تقترب منى ، فسأعانقك فى أغلب الاحتمالات ، أو أننى ـ بالتأكيد ـ سألمسك ٠

لا حاجة بنا لأن نخشى أن نلمس ، وأن نشعر ، وأن نبدى الانفعال ٠ ان أيسر شىء تكونه فى هذه الدنيا هو أن تكون « كما أنت » ، وان أشق شىء تكونه هو ما يريدك الآخرون أن تكونه ٠٠٠

أأنت ما « أنت » بالفعل أم أنت ما أخبرك الناس أنه « أنت » ؟ وهل أنت مهتم فعلا بمعرفة من تكون ، لأنك اذا كنت مهتما بذلك ، فتلك أسعد رحلة فى حياتك ٠

وهذا الشخص المحب هو أيضا من يرى الروعة والفرحة الدائبتين لكونه حيا ٠ أنا واثق أننا خلقنا لكى نكون سعداء ، اذ أن فى عالمنا الكثير ، الذى لا يحصى من الأشـــياء ٠٠٠ الأشـــجار ٠٠٠ والطيور ٠٠٠ والوجوه ٠ ليس هناك شيئان متشابهان ٠٠ والأشياء تتغير دائما ٠ فكيف يتسلل الينا الملل ؟

لم يحدث مطلقا أن تغرب الشمس نفس الغروب مرتين ٠ انظر الى وجه كل منا تجد كل وجه مختلفا عن الآخر ٠٠٠ وكل شخص له جماله الخـــاص ٠

وليس هناك مطلقا زهرتان متشابهتان ، فالطبيعة تمقت التماثل ٠ بل ان عودين من أعواد العشب مختلفان ، لقد علمنى البوذيون شيئا رائعا ، انهم يعتقدون فى « هنا » و « الآن » ٠٠٠ فالذى هو « هنا » الذى يحدث بينك وبينى الآن ٠ فاذا عشت من أجل الغد ، الذى ما هو الا حلم ، فان

كل ما ستحصل عليه ـ اذن ـ هو حلم غير واقعى ، والماضى لم يعد حقيقيا ، ان له قيمة لأنه جعلك ما أنت عليه الآن ، ولكن تلك هى كل القيمة ، التى له • من أجل هذا ، لا تعش فى الماضى • عش الآن • وعندما تأكل ، كل • وعندما تحب ، أحب • وعندما تتكلم مع أحد ، تكلم • وعندما تنظر الى زهرة ، انظر • اقتنص جمال اللحظة (*) !

والشخص المحب لا حاجة له أن يكون كاملا ، بل انسانا فقط • ان فكرة الكمال تخيفنى • اننا كثيرا ما نخاف أن نقدم على فعل أشياء كثيرة ، لأننا لا نستطيع أن نفعله على نحو كامل • يقول مازلو ـ Maslow : هناك خبرات ذروة رائعة يجب علينا جميعا أن نخوضها ، مثل ابداع وعاء من السيراميك أو رسم صورة ووضعها فى مكان ما ، **ونحن نقول :**

ـ « انها امتداد لى » •

وثمة نظرية وجودية اخرى تقول :

ـ « يجب أن أكون لأنى قد فعلت شيئا • لقد أبدعت شيئا ••• لذلك ، أنا أكون » •

ومع ذلك فاننا لا نريد أن نفعل هذا ، لأننا نخاف أنه لن يكون جيدا ••• انه لن يحوز القبول • اذا شعرت بالرغبة فى تلطيخ الحبر على الحائط ، فلتفعل ••• **قل :**

ـ « هذا نبع منى ، انه ابداعى ، أنا قمت به ، انه جيد » •

ولكننا نخاف لأننا نريد للأشياء أن تكون مثالية • اننا نريد لأطفالنا أن يكونوا مثاليين •

اجترارا من التجارب الشخصية ، أذكر دروس التربية الرياضية ، عندما كنت فى المدرسة الابتدائية والثانوية • واذا كان هناك أى من مدرسى التربية الرياضية يقرءون هذا ، فآمل أن يسمعونى عاليا وبوضوح• أتذكر المجاهدة من أجل الكمال • ان التربية الرياضية ينبغى أن تكون ساحة نحصل فيها جميعا على فرص متكافئة ، وحيث يجب أن تكون منافستنا الوحيدة مع أنفسنا • اذا لم نستطع أن نلقى بالكرة ، اذن فنحن نتعلم كيف نلقى الكرة بأفضل ما فى استطاعتنا • ولكن الأمر لم يكن كذلك ••• فقد كانوا دائما يكافئون الكمال • كان يقف هناك دائما ذوو

(★) قريب من هذا قول الشاعر العربى :
يا مضى فات والمؤمـل غيب ... ولك الساعة التى أنت فيها
(المترجم) •

العضلات المفتولة ، وكانوا هم النجوم · وكنت أنا هنـاك ··· جلدا على عظم ، مع كيس الثوم الصغير حول رقبتى ، وسروال قصير لا يتفق مع قدى ، ودائما يتدلى على ساقى الهزيلتين الصغيرتين · كنت أقف هنـاك فى الصف ليتم الاختيار من بيننا فى المباريات ، ولقد تعودت أن أموت كل يوم من أيام حياتى · تذكر ! كلنـا نقف فى الصف ، وكان هنـاك الرياضيون يقفون بصدورهم العريضة البارزة ، ثم يقولون :

ـ أختارك أنت ··· وأنت ··· وأنت ···

وترى الصف يتضاءل ، وتظل أنت واقفا هناك · وأخيرا تنتهى التصفية الى اثنين ، طالب آخر هزيل صغير ، وأنت · ثم قد يقولون :

ـ حسن ، سآخذ بوسكاليا ·

أو ···

ـ سآخذ « الووب » ·

وتخطو خارج الصف وأنت تكاد تموت لأنك لم تكن صورة للرياضى ، لم تكن صورة للكمال الذين يسعون للحصول عليه · كان معى فى الفصل طالب من لاعبى ألعاب القوى ، أوشك أن يفوز بالأولمبياد فى العام الماضى · كان ذا قدم مشوهة ، وفيما عدا ذلك كان يبلغ الكمال ، الذى تستطيع أن تتخيله ، الجسم الذى يحسده عليه أى شخص ، العقل الراجح ، خصلة الشعر الرائعة ، العيون اليقظة المتلألئة · ولكنه لم يكن الصبى الجميل فى رؤيته ··· انه مشوه القدم · وكل ما يسمعه عندما يمشى فى الشارع هو صوت وطء ثقيل من قدمه ، على الرغم من أن أحدا آخر لا يلحظه · ولكن اذا كان هو يرى ذلك ، اذن فهذا ما يكونه هو ، وهكذا فان فكرة الكمال هذه لا تستهوينى ·

ولكن الانسان قادر دائما على النمو والتغير ، واذا لم تؤمن بهذا ، فأنت فى طريقك الى الموت · كل يوم يجب أن ترى العالم بطريقة شخصية جديدة · فالشـجرة خارج منزلك لم تعد هى نفسها ··· لذلك انظـر اليها ! زوجك ، زوجتك ، طفلك ، أمك ، أبوك ··· الكل يتغير يوميا لذا انظر اليهم · كل شىء فى سياق التغير ، حتى أنت ·

فى أحد الأيام ، كنت على شاطىء البحر مع بعض من طلابى ، والتقط أحدهم سمكة من أسماك نجمة البحر جافة شائخة ، وبعناية فائقة أعادها للماء ، وقال :

ـ أوه ، انها جفت ليس الا ، ولكن عندما تبتل ثانية ، سوف تعود للحياة ثم فكر دقيقة والتفت الى ، **وقال :**

ـ تعرف ، لعل تلك هى كل عملية المواءمة حيث يصيبنا من وقت لآخر نوع من الجدب والجفاف ، وكل ما نحتاج اليه هو قليل من النداوة لتجعلنا نبدأ ثانية ٠

وربما كان هذا هو كل ما فى الموضوع ٠

وفى الحقيقة ، أى استثمار فى الحياة هو استثمار فى التغيير حتى النهاية ، ولا نستطيع أن نشغل أنفسنا بالموت لأننا يجب أن نكون فى شغل دائب بالعيش ! دع الموت يهتم بنفسه ، ولا تعتقد أبدا أن حياتك ستكون مسالمة فى يوم ما ٠٠٠ ان الحياة ليست كذلك ٠٠٠ ومع حدوث التغير فى كل ما حولك ، فعليك أن تستمر فى التكيف الذى معناه أنك سوف تكون فى مواءمة دائبة ، بدون توقف ٠ اننا جميعا فى رحلة غريبة ٠ كل يوم هو جديد ٠ كل تجربة هى جديدة ٠٠٠ كل شخص هو جديد ، كل شىء هو جديد ، وكذلك كل صباح من حيـاتك ٠ كف عن رؤيته كعبء ! فى اليابان ، جريان الماء له موسم يحتفل به ، لقد اعتدنا أن نجلس فى كوخ صغير عندما يجرى احتفال الشاى ، وتلتقط مضيفتنا مغرفة من الماء وتسكبها فى أبريق الشاى ، وينصت الجميع ٠ ويصبح صوت سقوط الماء مثيرا بشكل لا يقاوم ٠ أعتقد أن كثيرا من الناس ، الذين يقفون تحت الدش أو يجرون الماء فى الأحواض كل يوم ـ لا يسمعونه مطلقا ٠٠٠ هل تذكر آخر مرة أنصت فيها لقطرات المطر ؟

ان **هيربرت اوتو ـ** Herbert Otto **يقول :**

ـ « يحدث التغير والنمو عندما يغامر الشخص بنفسه ، ويجرؤ على أن يصبح منغمسا فى التجريب مع حياته هو » ٠

أليس ذلك لا يكاد يصـدق ؟ يغامر الشخص بنفسه ويجرؤ على أن يصبح منغمسا فى التجريب مع حياته هو ، واثقا فى نفسه ؟ ٠٠

وأن تفعل هذا ٠٠٠ أن تجرب بحياتك نفسها ، شىء منعش جدا ، زاخر بالبهجة ، زاخر بالسعادة ، زاخر بالروعة ، ومع ذلك فهو أمر مخيف كذلك ٠٠٠ مخيف لأنك تتعامل مع المجهول ، وتزعزع الرضا بالنفس ٠

ولدىشعور قوى جدا **أن نقيض الحب ليس الكراهية ٠٠٠ انه فتور الشعور ٠٠٠ انه اللامبالاة** ٠ فاذا كرهنى شخص ما ، فلابد أنه يشعر بشىء ما ازائى والا ما استطاع أن يكره ٠ ولذلك ، فهناك طريقة ما أستطيع بها أن أتفاهم معه ٠ اذا لم تكن تحب المشهد الذى أنت فيه ٠٠٠ اذا لم تكن سعيدا ٠٠٠ اذا كنت مستوحشا ، اذا كنت لا تشعر بأن الأمور تأخذ مجراها ، فغير مشهدك ٠ ارسم ستارة خلفية جديدة لمسرحك ٠٠٠ طوق

نفسك بممثلين جدد ··· اكتب مسرحية جديدة ، فاذا لم تكن مسرحية جيدة ، فاهبط من فوق خشبة المسرح واكتب مسرحية أخرى ، فهناك ملايين المسرحيات ··· بعدد ما هو موجود من البشر ، **يقول كازانتزاكس** Kazantzakis :

ــ « لديك فرشاتك وألوانك ، فارسم الفردوس ··· وادخله آمنا »·

ان الشخص المحب يدرك الحاجات · انه يحتاج الى أولئك الذين يهتمون ، الى الشخص الذى يهتم به على الأقل ··· الذى يراه ويسمعه بصدق · مرة أخرى ، ربما مجرد شخص واحد فقط ، ولكنه شخص يهتم بعمق ، أحيانا ··· تكفى اصبع واحدة فقط لاصلاح سد ، وتحول دون انهياره ·

لا أعلم كم منكم قد شاهد مسرحية « مدينتنا » فان أعظم مشاهدها تأثيرا هو ذلك المشهد الذى تموت فيه اميلى الصغيرة ، وتذهب الى المقبرة ، وتخبرها الملائكة أنها يمكنها أن تعود الى الحياة ليوم واحد ، فتختار أن تعود وتحيا ثانية عيد ميلادها الثانى عشر ، فتهبط السلالم فى رداء عيد ميلادها ، وجدائل شعرها تتفجر حيوية ، سعيدة جدا لأنهـــا فتاة عيد الميلاد · ولكن ماما مشغولة جدا فى عمل الكعكة لها فلا تتطلع اليها ، أما بابا فيدخل وهو مشغول جدا بأوراقه ودفاتره وعمل حساباته المالية ، ويمر بجانبها ولكنه لا يراها ، أما أخوها فهو فى عالمه الخاص ، ولا يكلف نفسه أن ينظر اليها أيضا ·

وأخيرا ، تنتهى اميلى الى الوقوف فى منتصف المسرح وحيدة ، فى رداء عيد ميلادها الصغير ، **وهى تقول :**

ــ من فضلك ··· يا أى شخص ··· انظر الى ·

وتذهب الى أمها مرة أخرى ، **وتقول :**

ــ ماما ، من فضلك ، لمجرد دقيقة واحدة ، انظرى الى ·

ولكن لا يأبه بها أحدا ، فتلتفت الى أعلى محلقة ببصرها نحو السماء ، لو تذكر ، **وتقول ما معناه :**

ــ خذونى بعيدا · لقد نسيت كم كان صعبا أن تكون انسانا ··· لم يعد أى أحد ينظر الى أى أحد ·

ولقد آن الأوان أيضـــا لنشرع فى أن يستمع بعضنا لبعض ··· نحن فى حاجة لمن يسمعنا وقد اعتدت أن أحب فكرة « شارك وارو » فى

حجرة الدراسة – كنوع من التنفيس عن النفس ، واعتقدت أنه الوقت المناسب لكى ينصت الناس ، عندما أخبر أحدهم المدرسين بأن عليهم تسليم قصاصات التسجيل الخاصة بالحضور والغياب فى الساعة ٥ : ٩ ، وهكذا استخدموا هذا الوقت « للمشاركة والرواية » ، فنهض الصغار **وقال أحدهم :**

– ليلة أمس ضرب أبى أمى بمرقاة العجين ، فاقتلع لها سنتين أماميتين ، وجاءت عربة الاسعاف وأخذتها ، وهى فى المستشفى الآن ·

فرفعت المدرسة بصرها **وقالت :**

– حسن ، من التالى ؟

أو الولد الصغير الذى جاء الى المدرسة وأراها قطعة من الصخر ، وقال :

– وجدت صخرة فى طريقى الى المدرسة اليوم ·

فقالت :

– جميل ، جونى ، ضعها على منضدة العلوم ·

انى أتعجب ماذا كان يحدث لو أنها التقطت الصخرة ، **وقالت :**

– دعنى أرى الصخرة ! انظروا اليها يا أطفال ، انظروا الى لون هذه الصخرة · تحسسوها · من صنع الصخر ؟ من أين تأتى الصخرة ؟ ما هى الصخرة ؟ ما نوع هذه الصخرة ؟

وأستطيع أن أتخيل كيف كان يمكن أن يتوقف كل شىء طوال اليوم ، وأن يتركز التعلم حول الصخرة فقط · ولكن :

– « ضعها على منضدة العلوم » !

والانسان يحتاج للاحساس بالانجاز · كلنا نحتاج لذلك ، أن نتميز لقيامنا بعمل جيد ، وأن يبينه أحد لنا · وأن يأتى شخص ما من وقت لآخر ويربت على الكتف **ويقول :**

– « الله ! هذا طيب · انى أحب هذا حقا » ·

ستكون معجزة لو أننا استطعنا أن ندع الناس يعرفون ما هو الصواب بدلا من أن نشير لهم دائما الى ما هو خطأ ·

وعندئذ ، يحتاج المحب – ليتعلم وليتغير وليتواءم – الى الحرية أيضا ، **قال ثورو** – Thoreau **شيئا مدهشا :**

– « ان الطيور لا تغرد أبدا فى الكهوف » ·

ولا الناس كذلك . لابد أن تكون حرا لتتعلم . لابد أن يكون حولك أناس يهتمون بشجرتك ، ليست شجرة « مصاصة الحلوى » ، ولابد أن تكون مهتما بشجرتهم .

ـ « أرني شجرتك ، أرني من تكون ، وعندئذ سوف أعرف من أين أبدأ » . ولكن الطيور لا تغرد أبدا فى الكهوف . اننا نحتاج الى الحرية لنبدع .

لقد مررت قريبا بتجربة لا تكاد تصدق . تحدثت الى مجموعة الصبية الموهوبين ، فى احدى مدارس منطقة كاليفورنيا ، وجعجعت ونمقت الحديث بطريقتى المعهودة ، وكانوا يجلسون وكأنهم مشدودون الى مقاعدهم ... كانت الذبذبات ، ونبض الحوار بيننا يفوق الوصف . وبعد فترة الدراسة الصباحية ، أخذنى المدرسون لتناول الغداء ، وعندما عدت ، قابلنى الصبية قائلين :

ـ أوه ، دكتور ب . لقد حدث شىء فظيع . أتذكر الصبى الذى كان يجلس فى مقابلك تماما ؟

فقلت :

ـ أوه ، نعم اننى لن أنساه أبدا ، لقد كان متجاوبا جدا .

ـ حسن ، لقد طرد من المدرسة لمدة أسبوعين .

فقلت :

ـ لماذا ؟

يبدو أننى فى محاضرتى قد تحدثت عن الطريقة التى تتعرف بها على شىء ما ، لكى تعرفه بالفعل لابد لك أن تخبره تماما ، وقلت :

ـ « اذا أردت أن تعرف شجرة حقا ، مثلا ، فلابد أن تتسلق الشجرة . ولابد أن تتحسس الشجرة ، وتجلس على الفروع ، وتنصت لحفيف الريح من خلال الأوراق . عندئذ تستطيع أن تقول :

ـ أنا أعرف هذه الشجرة .

ولقد قال الصبى :

ـ ايه ، تمام ، سأذكر هذا .

وهكذا رأى هذا الصبى ، خلال وقت الغداء ، شجرة وتسلقها . ومر نائب المدير لشئون الطلبة ورآه هناك ، فجرجره الى الأرض وطرده من المدرسة .

فقلت :

ـ أوه ، لابد أن هناك خطأ ! ··· هناك سوء فهم · سوف أذهب وأتحدث الى نائب المدير لشئون الطلبة ·

ولست أدرى لماذا يكون نائب المدير لشئون الطلبة دائما مدرسا سابقا للتربية الرياضية ···

ذهبت الى المكتب حيث كان يجلس وعضلاته بارزة **وقلت :**

ـ أنا الدكتور بوسكاليا ·

فتطلع الى بغضب ، **وقال :**

ـ انك الرجل الذى يأتى الى هذه المدرسة وتنصح الصبية بتسلق الأشجار ؟ انك خطر !

ـ **فقلت :**

ـ حسن ، انك لم تفهم ، أظن أن هناك شيئا من سوء الفهم ··

فصرخ قائلا :

ـ انك خطر ! تقول للأولاد أن يتسلقوا الأشجار !

ماذا لو سقطوا ؟ انهم مشكلون بما فيه الكفاية ····

حسن ، لم أستطع التعامل معه ، ذهبت الى منزل هذا الصبى الذى تحرر أسبوعين يتسلق فيهما الأشجار ، وجلست معه ، **فقال :**

ـ أعتقد أن الشيء الذى قد تعلمته من هذا ، هو : متى أتسلق الشجر ومتى لا أتسلقه · أظن أننى لم أحكم العقل جيدا ، أليس كذلك ؟

لقد أنصت ، وعليه أن يتكيف مع هذا الرجل الذى فى موقع الادارة ··· ولكنه لا يزال يتسلق الأشجار · هناك طريق لمواجهة حاجيات المجتمع ، ومع ذلك تقوم بعمل ما يخصك من أمور ، وذلك بمعرفة أين ومتى وكيف ·

ولكل شخص طريقته الخاصة ، ويجب أن تتاح له الحرية لكى يتبع هذا الطريق ، وثمة آلاف السبل للمحب ، وسيجد كل انسان طريقه الخاص اذا استمع لنفسه · لا تدع أى شخص يفرض طريقه عليك · وهناك كتاب مدهش اسمه « التدريس طبقا لدون جوان » للأنثروبولوجى

« كارلوس كاستانيدا » _ Cerlos Castaneda وكله عن هنود ياكوى (*) الذين قام بدراستهم • وفى الكتاب رجل يدعى دون جوان ، **يقول :**

– كل سبيل هو واحد فقط من مليون سبيل • لذلك يجب أن تتذكر دائما أن السبيل ما هو الا سبيل • فاذا شعرت بأنك يجب أن تتبعه الآن ، فلا تتوان تحت أى ظرف من الظروف • فالسبيل ما هو الا سبيل • ولا تثريب عليك ولا على الآخرين ان تخليت عنه ، فيما اذا كان هذا هو ما يمليه عليك قلبك • ولكن قرارك فى الاستمرار فى الطريق أو تركه يجب أن يكون متحررا من الخوف والطموح • وأنبهك : أن تنظر الى كل سبيل باحكام وترو • جربه مرات عديدة متى اعتقدت أن ذلك ضرورى ، ثم اسأل نفسك ، ونفسك فقط ، سؤالا واحدا وهو هذا : هل لهذا السبيل قلب ؟ كل السبل متماثلة فهى لا تؤدى لمكان • انها سبل تمر عبر الأجمة أو الى الأجمة أو تحت الأجمة • فهل لهذا السبيل قلب ؟ هو السؤال الوحيد • فاذا كان له قلب ، فالسبيل اذن جيد ، واذا لم يكن ، فهو غير مجد • اذا كان سبيلك هو الحب فالهدف ليس بمهم ، فالسياق سيكون له قلب •

أنت فقط تستطيع أن تكون « حقيقيا » طالما مضيت فى سبيلك • ان أقسى شىء فى هذه الحياة الدنيـــا هو أن تكون شيئا لست اياه • وبشرودك عن نفسك يجب أن تقترب وتقترب وتقترب الى ما تكونه ، وستجد أنه سبيل سهل لتكون • ان أسهل شىء تكونه فى هذه الدنيا هو أنت ، وأصعب شىء تكونه هو ما يريد الناس الآخرون لك أن تكونه • لا تدعهم يضعونك فى هذا الموضع • ابحث « عنك » ، من تكون ، وكن كما أنت • عندئذ يمكنك أن تعيش ببساطة • يمكنك استخدام كل الطاقة التى تؤدى الى « كبح الأشباح » كما يسميها ألبرت _ Alpert ، ولن يكون لديك أية أشباح لتكبحها بعد ذلك ، ولن تكون بعد ذلك فى حاجة الى اصطناع الألاعيب • تحرر منها جميعا ، **وقل :**

– هأنذا • خذنى كما أنا ، بكل زلاتى وبكل غبائى ، وهلم جرا • واذا لم تستطع ، فدعنى كما أنا كائن •

والآن ، نحن مستعدون لنشارك فى رحلة للحب • وليس المقصود بهذه الرحلة أن تكون سبيل عبور ••• انها مشاركة • خذ ما هو مناسب لك ، ولكن أولا ، أحب أن أقدم قطعة مدهشة من الفلسفة كتبها رجل اسمه

(★) قبيلة من هنود أمريكا يعيشون حاليا فى المكسيك _ (المترجم) •

زينكر – Zinker يعمل بمؤسسة الجيشتالت فى كيفلاند · كتب هذا كنهاية لبحث سماه « فى المعرفة العامة والالهام الذاتى » ، **قال :**

– « اذا أراد رجل فى الشارع أن يبحث عن ذاته ، فما نوع الأفكار المرشدة التى يخرج بها ازاء تغيير وجوده ؟

ربما يكتشف أن مخه لم يمت بعد ، وأن جسده لم يجف بعد ، وأنه لا يهم أين هو الآن ، فهو ما يزال المبدع لقدره · انه يستطيع أن يغير هذا القدر باتخاذ قراره فى التغيير بشكل جدى ، وبمحاربة مقاومته التافهة ضد التغيير والخوف ، وبتعلم المزيد عن عقله ، وباختيار السلوك الذى يشبع حاجته الحقيقية ،وبالقيام بأعمال محسوسة بدلا من أن يتصور مفاهيم عنها » ·

··· (أعضد ذلك بقوة ··· دعنا نتوقف عن الكلام ونشرع فى الفعل) ···

– « وبالتمرس بأن ينظر ويسمع ويلمس ويشعر كما لو كان لم يستخدم قط هذه الحواس من قبل ، وبابداع شىء ما بيديه بدون أن ينشد الكمال ، وبالتفكير فى طريق يصطنعها فى سلوكه القائم على كبح جماح النفس ، وبالاستماع للكلمات التى يتفوه بها لزوجته ، وصغاره ، وأصدقائه ، وبالاستماع لنفسه ، وبالاستماع لكلمات أولئك الذين يتحدثون اليه والنظر فى عيونهم ، وبتعلم احترام عمليه مواجهاته الابداعية وبالايمان بأنها ستبلغه مأربا ما قريبا · وعلى أية حال ، يجب أن نذكر أنفسنا ، أن التغيير لا يحدث بدون عمل شاق وبدون تلويث أيدينا ، وليست هناك وصفات ، ولا كتب نستذكرها للمواءمة · انى أعرف هذا فقط :

أنا موجود ، أنا كائن ، أنا هنا ، أنا سأصبح ، أنا أصنع حياتى ولا أحد آخر يصنعها من أجلى · يجب أن أواجه نقائصى ، وأخطائى ، وتجاوزاتى · ولا أحد يمكن أن يقاسى عدم تحقيق ذاتى ، مثل ما أقاسى أنا ، ولكن غدا يوم آخر ، ويجب أن أعقد العزم على مغادرة فراشى ، أنهض للحياة من جديد ، واذا أخفقت ، فلا أواسى نفسى بالقاء اللوم عليك ، أو على الحياة أو على ربى » ·



الحب ظاهرة مكتسبة بالتعلم

« اننا جميعا نعمل بجزء طفيف من طاقتنا لنعيش عيشة رحبة في المعنى الكلي للحب والرعاية والابداع والمغامرة · وبالتالي ، يمكن أن يصبح تحقيق طاقاتنا الكامنة أعظم المغامرات اثارة في حياتنا · »

هيربرت اوتو
Herbert Otto

- ١ -

فى بداية القرن ، عثر على طفل فى الغابات المجاورة لقرية صغيرة بفرنسا · كان أبواه قد تركاه ليلقى حتفه ، ولكنه بمعجزة ما لم يمت فى الغابة ، لقد نجا وبقى على قيد الحيـاة ، لا كطفل ، بالرغم من أنه جسمانيا انسان ، ولكن بالأحرى ، كحيوان · فكان يمشى على أربع ، وصنع بيته فى حفرة فى الأرض ، ولم تكن لديه لغة ذات معنى أكثر من صياح الحيوان ، ولم يعرف علاقات حميمة ، ولم يهتم بأى أحد أو بأى شىء سوى البقاء على قيد الحياة ·

وصلت الينا حالات مثل هذه ··· كحالة الفتاة الهندية كومالا ، مثلا ، ··· التى عادت بحياة الانسـان على الأرض الى بداية الزمان · وتشترك جميعها فى أن الانسان اذا نشأ كحيوان ، فسيسلك كحيوان ، لأن الانسان « يتعلم » ليكون انسانا · وكما أن الانسان يتعلم أن يكون انسانا ، فهو يتعلم كذلك ليشعر كانسان ، ويحب كانسان ·

كل انسـان يعيش الحب بطريقته المحدودة ، ولا يرجـع الاضطراب الناتج ولا الشـعور بالوحدة لنقص معلوماته عن الحب ·

ولقد اقترح علماء النفس ، والأطباء النفسانيون ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء الجنس البشرى ، والتربويون فى دراسات لا تحصى وأبحاث عديدة

أن الحب هو « استجابة مكتسبة بالتعلم » · ويبدو أن كيفية تعلم الانسان الحب تعود مباشرة الى قدرته على التعلم ، والى أولئك الذين فى محيطه والذين سوف يعلمونه ، وكذلك نوع ثقافته ونطاقها وصقالها · فالتنظيم الأسرى ، وممارسات المغازلة والتودد ، وقوانين الزواج ، ومحظورات الجنس ، مثلا ، تختلف كلها طبقا للمكان الذى يعيش فيه الانسان · والعادات والعرف ، وطرق التفكير ، أو الشعور ، أو السلوك المستخدم فى الحب والجنس والزواج والأسرة مختلفة ، فهى - على سبيل المثال - فى جزيرة بالى تختلف عنها فى مدينة نيويورك · ففى بالى ، مثلا ، ترى البنية الأسرية مترابطة ، بينما فى مانهاتن تراها متحللة وأوهى كيانا · ونظام الزواج فى بالى يبيح تعدد الزوجات ، أما فى مانهاتن ، على الأقل لأغراض قانونية ، فهو متفرد ·

وهذه الحقائق المتعلقة بتأثير التعلم على السلوك تبدو بدهية عند ذكرها ، ومع ذلك ، تبدو لها تأثير ضئيل - ان كان لها تأثير على الاطلاق - على غالبية الناس عند تطبيقها على الحب ·

فمعظمنا يستمر فى مسلكه وكأن الحب غير مكتسب ، بل يرقد كامنا فى قرارة كل انسان ، وينتظر ببساطة حلول فترة روحية من الوعى لينبثق فى ازدهار كامل · وكثيرون ينتظرون هذه الفترة الى الأبد ، ويبدو أننا نرفض أن نواجه الحقيقة الواضحة أن معظمنا يقضون حياتهم محاولين العثور على الحب ، محاولين أن يحيوا فيه ، ويموتون بدون أن يكتشفوه اكتشافا حقيقيا ·

وهناك أولئك الذين ينبذون الحب كبناء ساذج ورومانتيكى لثقافتنا · وآخرون يصبحون شاعريين ، ويقولون لك :

- « الحب هو الكل » ·

- « الحب هو نداء الطير ، وهو الومضة فى عينى فتاة فى ليلة صيف » · والبعض يكونون عقائديين ويقولون لك بتأكيد ان :

- « الله محبة » ·

والبعض يقولون لنا ، طبقا لخبرتهم الخاصة :

- « الحب هو ارتباط عاطفى قوى بشخص آخر » ···

الى آخره · وسوف نجد فى بعض الحالات أن الناس لم يفكروا قط فى بحث الحب ، ناهيك عن تعريفه ، ويعترضون بعنف على الاقتراح عليهم بالتفكير فيه · فالحب عندهم ليس للتفكر ، بل للخوض فيه ببساطة · وهكذا يحيا كل انسان الحب بطريقته المحدودة ، ولا يرجع الاضطراب الناتج ولا الشعور بالوحدة الى هذا النقص فى معلوماته عن الحب·

واذا رغب أن يعرف شيئا عن السيارات ، فسوف يدرس ـ بدون تردد ـ عن السيارات باجتهاد · واذا رغبت زوجته أن تصبح طباخة خبيرة ، فسوف تدرس بالتأكيد فن الطبخ ، بل وربما تحضر دروسا فى الطبخ · ومع ذلك ، فلا يبدو جليا له مطلقا ، أنه اذا أراد أن يحيا فى الحب ، فعليه أن يقضى فى دراسة الحب ما يضارع الوقت الذى يقضيه ميكانيكى السيارات أو خبير الطبخ على الأقل · وليس هناك مطلقا ميكانيكى أو طباخ يؤمن بأنه « بمجرد مشيئته » فى المعرفة فى ميدانه ، سوف يصبح خبيرا فيه ·

ومن المستحسن ، فى مناقشة الحب ، أن نضع فى اعتبارنا الفروض التالية :

— لا يستطيع المرء اعطاء ما لا يمتلكه

لكى تعطى الحب ، يجب أن تمتلك الحب ·

— لا يستطيع المرء أن يعلم ما لا يفهمه ·

لكى تعلم الحب ، يجب أن تدرك الحب ·

— لا يستطيع المرء أن يعرف ما لا يدرسه ·

لكى تدرس الحب ، يجب أن تحيا فى الحب (*) ·

— لا يستطيع المرء أن يقدر ما لا يفهمه ·

لكى تفهم الحب ، يجب أن تكون متفتحا للحب ·

— لا يستطيع المرء أن يشك فيما يرغب فى الثقة فيه ·

لكى تثق فى الحب ، يجب أن تكون مقتنعا بالحب ·

— لا يستطيع المرء أن يعترف بما لا يرضخ له ·

لكى ترضخ للحب ، يجب أن تكون مستعدا للتأثر به ·

— لا يستطيع المرء أن يحيا ما لا يكرس نفسه له ·

لكى تكرس نفسك للحب ، يجب أن تنمو فيه الى الأبد ·

ان الطفل المولود حديثا لا يعرف شيئا عن الحب · انه عاجز تماما ،

(★) هذا قريب من قول الشاعر العربى :
لا يعرف الشوق الا من يكـــابده   ولا الصبابة الا من يعانيهـــا
(المترجم) ·

وفى الأغلب جاهل ، معتمد على الغير ، وغير حصين ، واذا ترك بمفرده ، بلا رعاية لفترة من الوقت قبل أن يبلغ السادسة أو السابعة من عمره ، فسيموت فى أغلب الاحتمالات ، ولكى يتعلم الاستقلال عن غيره فانه يستغرق وقتا أطول من ذلك الذى يستغرقه أى مخلوق آخر ، ويبدو أنه ـ اذ أصبحت المجتمعات أكثر تعقيدا وصقالا ـ قد امتدت فترة ما قبل بلوغ الفرد استقلالا عن الغير الى درجة أنه يظل معتمدا على غيره حتى وفاته ، ان لم يكن من الناحية الاقتصادية ، فمن الناحية العاطفية والانفعالية ٠

وأثناء نمو الطفل ، سيعلمه العالم المحيط به ، والناس المتفاعلون مع عالمه ما معنى الحب ٠ فى البداية ، قد يكون معناه أن يصرخ عندما يكون جائعا أو مستوحشا أو متألما أو غير مستريح ، فصراخه قد يحقق له استجابة ، وهى عادة شخص ما ، ليطعمه ، وهكذا لن يشعر بآلام الجوع بعدها ، أو يحمله ، وهكذا لن يشعر بالوحشة بعدها ، أو يزيح مصدر ألمه أو يتخلص منه ، وهكذا سيشعر بالراحة ثانية ٠

ستكون هذه هى التفاعلات الأولى التى تعلمه أن يتعرف على كائن آخر ويظل غير قادر على أن يرجع مصدر راحته الى دور انسان مثل الأم أو الأب أو الخادمة أو المربية أو الجدة ٠

ومن المحتمل لو أن ذئبا تم تدريبه ليؤدى هذا الغرض من أجل الطفل ، وقضى له حاجاته الأساسية ، لكون ارتباطا بالحاجة نحو الذئب ٠٠٠ ولكنه ليس حبا بعد ، انه ببساطة ـ ارتباط حاجة ٠ هذا لا يهم ٠ ان رد فعل التفاعل الأول هذا ـ رغم أنه يبدو متحيزا وبسيطا ـ هو الذى سيؤدى بالتالى الى الظاهرة المعقدة المتعددة الأوجه ، **الحب** ٠

عند هذه النقطة فان اتجاه الشخص الذى يعتمد عليه الطفل ويتفاعل معه يلعب دورا مهما ٠ والشخص ـ أيضا ـ له حاجات ، وطبقا لحاجاته ، سوف تكون استجابته للطفل ٠ فمثلا ، قد يكون الحافز لنهوض الأم فى جنح الليل والعناية بالطفل أو أداء آلاف المهام المختلفة اللازمة لأمهات القرن العشرين ، هو ببساطة الشعور بتحقيق الذات حيث أنتجت الى الوجود حياة جديدة ، أو ابتسامة طفل ، أو الاحساس بالدفء الذى يبعثه الطفل الى جسدها ، حين تحتضنه وتضمه الى صدرها ٠ ولكنها ، مع ذلك ، سوف تظل فى حاجة الى هذا الحافز المدعم ، والا فانها تهجر الطفل ـ وطبقا لكيفية اشباع هذه الأفعال لحاجاتها ، وسوف تستجيب وهى بنفس الكيفية٠ولقد لوحظت المسترسلات فى التخيل تهربا من الواقع، فى حالة أمهات الرضع المصابين بحالة الشرود ، والذين لا يستجيبون

كلية ـ لوحظ أنهن يملن الى الابتعـــاد عن الرضيع ، والى أن يكن أقل حملا له ، وأقل مداعبة وتربيتا له ، وأقل استجابة له بصفة عامة .

وأثناء نمو الطفل ينمو معه عالمه وتنمو ارتباطاته ، ولا يزال عالم الحب الخاص به محدودا ، عادة لأسرته ، أبيه واخوته وأخواته ، ثم أمه بصفة خاصة ، وكل عضو فى الأسرة سيكون له دور فى تعليم الطفل شيئا من الحب . وسوف يفعل ذلك بطريقة حمله للطفل ، بطريقة ملاعبته أو التحدث معه ، وبطريقة استجابته له بالطبع ، لم يجلس أى فـرد من الأسرة مطلقا بقصد أن « يعلم » الطفل الحب ، فالحب عاطفة ، هذا صحيح ، ولكنه أيضا « استجابة » لعاطفة ولذلك ، فهو تعبير « نشيط » لما نشعر به . ان الحب لا يعلم بواسطة النفاذ الأسموزى (*) .

وبالتالى ، فكل فرد فى الأسرة يستطيع أن يعلم فقط ما يعرفه عن الحب . وسوف يؤدى الطفل شيئا فشيئا ما يتعلمه ، وسوف يتبنى تلك العناصر الايجابية التى يعبر عنها والتى تحظى بالاستحسان والتدعيم طبقا لأحاسيس الأسرة ومعتقداتها .. سوف يتبنى هذه العناصر لتصبح جزءا من سلوكه ، أما تلك العناصر السلوكية التى يعبر عنها والتى لا توافق عليهـــا أسرته والتى لا تحظى بالاستحســـان والتدعيم ، بل لعله يعاقب بسببها ، فانها لن تصبح جزءا من قائمة سلوكه . فمثلا ، اذا كانت الأسرة من تلك الأسر التى تجاهر بعواطفها ، فسوف يتم تدعيم الطفل باستجابة ايجابية عندما يعبر عن هذا ، فيقفز الطفل الى حضن أبيه ويزرع قبلة على فمه ، قبلة خصبة حافلة بالحيوية ، ويرد الأب على هذا لفظيا بود ، وبفرح ، وبرقة ، وبابتسامة وباستحسان ، وهو بهذا يعلم الطفل أن هذا التعبير الخارجى عن الحب هو تعبير طيب . ومن ناحية أخرى ، قد يقفز الطفل بتلقائية على أبيه الذى قد يكون مساويا له فى الحب ، ولكن تعبيره عن الحب لا يشتمل على المجاهرة بالعاطفة . وهذا الأب قد يحمل الطفل برقة بعيدا عنه ، ويقول **مبتسما :**

ـ الرجال الكبار لا يحضن بعضهم البعض .

لقد علم هذا الأب طفله أنه أمر طيب أن تحب ، ولكن هذا العرض الخارجى للحب غير مستحب فى بيئته . **ولقد قال الفيلسوف الفرنسى ، جان بول سارتر :**

ـ « قبل الولادة بفترة طويلة ، بل حتى قبل الحمل ، يقرر والدانا من سوف نكون » .

(★) تواصل بين سوائل مختلفة الكثافة وامتزاجها ، بالنفوذ من فاصل بينها حتى يتجانس تركيبها ، كما هو الحال فى انتقال العصارة الغذائية فى النبات (المترجم) .

وبجانب الأسرة المباشرة ، توجد مؤثرات أخرى تعلم الحب · ويمكن أن يكون أثر هذه المؤثرات قويا · احداها ثقافة الفرد ··· وهى هذه الثقافة التى ، فى حالات كثيرة ، قد علمت الأسرة استجاباتها للحب · وهكذا سوف تخدم هذه الثقافة زيادة تدعيم تصرفات الطفل ·

فالطفل الفرنسى ، مثلا ، الذى ولد وتربى فى مجتمع صينى لوالدين فرنسيين ، سوف ينمو كطفل صينى مع ألعاب الطفل الصينى ولهوه ، وفى استجاباته ، وتصرفاته ، وردود فعله ، وما يحب وما يكره ، ولغته وطموحاته وحتى أحلامه ·

ومن ناحية أخرى ، فان هذا الطفل الفرنسى نفسه اذا تربى فى ثقافة صينية لوالدين فرنسيين فسوف يصبح طفلا فرنسيا فى مجتمع صينى ·· مرتبطا بأوجه الثقافة الفرنسية التى تعلمها من والديه ، ويتكيف بها أثناء نموه لكى يعيش فى مجتمع صينى ، وسوف ينمى ، اذن ، تلك الخصائص الفرنسية الشائعة بين الأطفال الفرنسيين ، ولكنه – أيضا – سوف يكيفها طبقا للثقافة الصينية ·

ولا يمكن لشخص أن يتحرر كلية من الضغوط والتأثيرات الثقافية · ولكى يصبح المرء شخصا « مقبولا اجتماعيا » ، فلا بد أن يتخلى دائما عن بعض من نفسه · يستطيع **روبنصن كروزو** أن ينعم بالحرية المطلقة فى جزيرته ، ولكنه يسدد الثمن – وهو عزلته – فى سبيل حريته · وعندما يظهر « **فرايداى** » ، الشخص الثانى على الجزيرة ، فعليه أن يختار · يمكنه اما أن يتعايش معه ويصنع منه شخصا مثل نفسه ، الأمر الذى سيترتب عليه تغير عاداته ، والمشاركة فى التبادل الديمقراطى ، واما أن يجعل « **فرايداى** » عبدا له · وسوف يتطلب هذا القرار تغييرا قليلا أو لا تغيير لشخصية كروزو وحياته ، فيما عدا أنه ينبغى أن يضع حراسة قوية مستمرة على « فرايداى » ، عبده ·

فى خريف عام ١٩٧٠ ، خضعت تجربة ممتعة فى الحياة الاجتماعية · انى أستمتع بأوراق الأشجار الساقطة ، والألوان ، وصوتها المتكسر المطقطق أثناء سيرى عليها · لهذا السبب ، تركتها باختيارى تتجمع فى طريقى وعلى الممر الذى يؤدى الى بيتى ، وهكذا أصبحت تحت قدمى كسجادة متعددة الألوان مصوتة مطقطقة · وذات يوم ، كنت بالبيت مع بعض الطلاب ، واستجبت لطرق على الباب الأمامى · كانوا مجموعة من الجيران الذين أتوا ليشكوا هذا التكدس الذى يرونه « قذى لعين » الجيرة ، وطلبوا منى أن أزيل أوراق الشجر ، وعرضوا على أيضا بأدب أن يقوموا عنى بأداء هذه المهمة · فوافقت على الفور مستجيبا لطلبهم ، مما خيب

آمال طلابى فى ، اذ قد شعروا أننى ارتكبت خطأ فى حق نفسى ، وأنه كان يجب أن أواجه الجيران ، وأقول لهم الى أية طبقة من جحيم دانتى يذهبون ، فشرحت لهم أنه يمكننا أن نصل الى حل مرض للطرفين اذا ساعدونى فى التقاط أوراق الشـــجر ، ووضعها فى ســـلال ، فأذعنوا متسائلين ، ضنينين ، لاعنين التحكمات الاجتماعية ، التى تنتهك حقوق الفرد ٠

وهكذا جمعت أوراق الشجر فى النهاية ، وأخذت السلال الى حجرة معيشتى حيث نثرت الأوراق فوق أرضيتها ، والآن قد أصبح المنظر يتقبله الجيران تقبلا حسنا ، حينما تقع أبصارهم عليه ، أما أنا فلدى عالم الخريف الملون العجيب ، الذى يطقطق تحت قدمى ، فيملأ قلبى بالرضا (كان شيئا بسيطا يكنس بسهولة ، ويمكن تفريقه اذا رغبت فى ذلك) ٠ لقد رضخت للمجتمع وثقافته لأنى أنعم بالجيران وأحتاج اليهم ، ولكنى حققت أيضا حاجاتى ، فأنا أنعم بأوراق الخريف ، وأستشعر الحاجة اليها ٠

انه من الممكن عندما نختار ، أن نتخلى عن احدى حريات المرتبـة السفلية لنحرز حرية مرتبة أعلى ٠ (بكنس أوراق الشـــجر ، احتفظت بجيران يهتمون بى ٠ والانسان لا يعرف أبدا متى سيحتاج لفنجان من الدقيق) ٠ واذن ، فللثقافة وللمجتمع ، اذا اخترنا أن نكون أعضاء فيه ، القدرة على التأثير على أفكارنا ، والحد من اختياراتنا ، وصياغة سلوكنا ، واستعدادنا للتكيف ، وارشادنا لمعنى الحب ٠

كيف تتعلم الحب ، اذن ، ستشكله الى حد ما ، الثقافة التى نشأت فيهـا ٠

وقد تتعارض ثقافة الأسرة ، مع ثقافة الفرد فى بعض الأوقات ٠ والداى والأسرة — وهى أسرة ايطالية كبيرة مفعمة بالحنان ، مسفرة عن عواطفها الجياشة وانفعالاتهـــا ، ذات روابط وعلاقات شخصية قوية — علمونى التعبير الظاهرى للحب ٠ ولكن ذهابى للمدرسة ، وعناقى الأطفال والمدرسين وتقبيلهم ، جعلت منى انسانا مخنثا ، وأقل ما يقال ، ممزقا ٠

أستطيع تذكر التشويش الذى حدث فى عقلى عندما جاءت احدى أمهات زملائى فى الفصل الى بيتى ، وأعربت لوالدى المرتبكين عن أننى لا أصلح أن أكون رفيق لعب مناسبا لأولادهـا ، وأنى « جسمانى » — Physical أكثر من اللازم ولكن الأمر لم يتفاقم ويصبح مشكلة عندما اتضح الموقف ، واستطعت أن أفهم أننى عندما أكون فى بيتنا أو فى بيوت تشبهه ، فثمة طريقة صحيحة للتعبير عن عاطفتنا ، ولكن فى البيوت الأخرى قد يكون الأمر مختلفا ، وكان على أن ألاحظ وأستجيب طبقا لذلك ،

مستخدما حكمي الشخصي ، وفي هذا الوقت ، بالطبع كنت مقتنعا أن أي مصافحة ، أو حتى ابتسـامة دافئة ، لا يمكن أن تعنى من المتعـة قدر ما يعنيه عناق دافيء ، أو قبلة حنون (ولا أزال أؤمن بصحة ذلك) ٠

ان الطفل دائما تحت رحمة مدرسيه ٠٠٠ البيئة التى يعيش فيها ، وهؤلاء الأفراد (الآدميون) ، الذين يتصل بهم ٠ انهم مسئولون عن تعليمه الحب ٠ أما والداه بالطبع ، فسيكونان معلميه فى المقام الأول ، وسوف يكون لهما التأثير الأقوى عليه ، وسوف يعلمانه فقط نوع الحب الذى تعلماه وللدرجة التى تعلماه بها فقط ، ذلك لأنهما ، أيضا ، كانا تحت رحمة مدرسيهم وثقافاتهم ٠ والمدرسون يستطيعون أن يعلموا ما قد تعلموه فحسب ، فاذا كان الحب الذى تعلموه فجا ، مضطربا ، تملكيا ، هداما ، قاصرا ، فهذا هو الذى سوف ينقلونه ، ويعلمونه لصغارهم ٠ واذا كانوا ، من ناحية أخرى ، يعرفون حبا ناميا ، حرا ، ناضجا ، فسوف يعلمون هذا لأطفالهم ٠ والطفل لا يستطيع مقاومة مدرسيه ، اذ أن قدرته على هذه المقاومة قاصرة أو معدومة ، ولكى يعيش على مستوى من الراحة ، فعليه أن يقبل ما يقدم له ، وبدون سؤال غالبا ٠ وفى الحقيقة ، فان لديه قليلا من الأسئلة لأن معرفته ضحلة لا تسمح بطرح العديد من الأسئلة ، ولا تساعده على أوجه المقارنة ٠ لقد لقنوه عالمه ، وأعطوه الأدوات التى تعينه على قضاء متطلباته ، والرموز التى تنظم حياته بها ٠ بل انه لقن ما هى الأمور النافعة ، وما هى الأصوات التى عليه أن ينصت اليها ، وماذا تعنى ، وما الذى ليس له قيمة ، وبعبارة أخرى ، يعلم ليكون نوعا خاصا من الانسان المحب ، وليكون محبوبا فى المقابل ، ولا يحتاج الا الى أن ينصت ويرى ويستجيب كما يفعل الآخرون ٠ انه أمر بسيط ، ولكن التكلفة لفرديته باهظة ٠

واللغة هى الوسيلة الرئيسية ، التى ننقل بها المعرفة ، والاتجاهات ، والتحيزات ، والأحاسيس وتلك الأوجه ، التى تجعل كلا من الشخصية والثقافة فريدة ، ويتأتى تعليم اللغة وتعلمها فى الأسرة والمجتمع ومن خلالهما ، وأى طفل طبيعى لديه التجهيز البيولوجى ، والعقلى والجسمانى لتعلم أية لغة من لغات العالم ٠ ويستطيع أن يؤدى ، كطفل ، جميع أصوات **الأبجـــدية الصوتيـــة العالميـــة** Universal Phonetic Alphabet .

ومع أنه لا يتلقى تعليما نظاميا فانه حين يبلغ الثالثة أو الرابعة من عمره يكون قادرا على أن يتحدث لغة قومه بوضوح ، ويتعلم نظام اللغة وصيغتها ونبرتها ، أما الكلمات التى يستخدمها وما تحويه من معان ، فانها تتقرر بواسـطة هؤلاء الذين فى عالمه المبـاشر ، والذين يصبحون معلميه ٠ انه غير قادر على القراءة ، بالطبع ، ولذلك سيتعلم لغته شفهيا ٠

وهو لا يعى أن اللغة التى يتعلمها سوف تحدد من يكون ، وكيف يرى العالم ، وكيف ينظم العالم ، وكيف يعرض عالمه على الآخرين ٠

كل الكلمات لها مضمون عقلى ، وقد نجد بعض الصعوبة فى تعريف « منضدة » أو « بيت » ٠ مثلا ، ولكن لكل كلمة أيضا مضمونا عاطفيا ٠ ويصبح الأمر مختلفا تمـــاما ، حينما يطلب منك أن تعرف لفظ « بيت » كمقابل لتحدثك عن « أول بيت » يمكنك تذكره ٠٠٠ كلنا نعرف المعنى السطحى لكلمة « حر » ٠ ولكن اذا حاولنا أن نعرف الحرية بالنسبة لنا فى بيئتنا الحالية ، فسوف نجد مشقة فى ذلك ٠

عندما كان **تموثى ليرى** — Timothy Leary ، يقوم بأبحاثه الممتعة فى اللغة والوعى ، **أطلق على الكلمات أنها :**

— « دمغ (تجميد) الوعى الخارجى » ٠

وقد أوضح أن الآباء أو المجتمع حين يعلمون الطفل كلمة جديدة كرمز جـديد ، فهـم يعطونه مضمونا عقليـــا ومضمونا عاطفيا للرمز ٠ والمضمون تحدده اتجاهات الوالدين والمجتمع وأحاسيسهما ٠ وتبدأ هذه العملية مبكرا جدا للطفل ، ليكون لديه الكثير الذى يمكن أن يقوله عما تعنيه الكلمـــات بالنســبة له ٠ وعندما « تتجمد » ، فان الاتجاهـــات والأحاسيس تجاه الأشياء أو الشخص الذى تشير اليه الكلمات — تصبح مستقرة جدا ، ويتعذر الغاؤها فى حالات كثيرة ٠ واذن ، نجد أن الطفل — من خلال الكلمات — لم يعط مضمونا فحسب ، وانمـــا أعطى اتجاها كذلك ٠ وهكذا تتكون اتجاهات الطفل نحو الحب ٠

ويستمر « ليرى » قائلا :

— وينشأ ما يشبه الخريطة الجامدة ، والتى عليها يحدث كل التعلم اللاحق للاتجاهات والوعى ، وتحدد « خريطة » الطفل مدى قرب التشابه بين الرموز والحقائق ، وكيف تؤخذ ، وتجمع ، وتحلل وتدعم من خلال تجربته ، وهكذا سوف تنشأ اللغة ذات الأهمية فى تأصيل السلوك ، والعلاقات ، والفعل ، والاتجاهات ، والتعاطف ، والمسئولية ، والثقة ، والاهتمام ، والفرح ، والاستجابة ٠٠٠ وبعبارة أخرى ، لغة الحب » ٠

ومن هذه النقطة نرى أن الطفل لا يزال تحت رحمة مدرسيه ٠ لقد أجبر بسبب نقص خبرته وعدم استقلاليته — على أن يثق فى مدرسيه ، ويتقبل عالم الحب الذى يقدمونه له ٠٠٠ يتقبله كحقيقة ٠٠٠

وحول هذا الوقت ، يذهب الى المدرسة ، والأمل فى التعليم المدرسى كبير ، ومن خلال التربية المدرسية تتاح له أول فرصة ممكنة للهروب ٠٠٠

عالم رحب جديد ليكتشفه ، ملىء بالاتجاهات الاستثنائيـة المثيرة المختلفة وتعريفات الحياة والحب ، ولكنه يتحرر من الوهم سريعا ، وبدلا من تحريره ليتبع عالمه الخاص ، فهو الآن فى محيط جديد غالبا ما يكون أقل مرونة من بيته . ويعالج **تشـــارلز ريش** — Charles Reich هذه النقطة دراماتيكيا فى « تخضير أمريكا » The Greening Of America حيث **يقول** :

— بينما السلطة المدرسية غير خاضعة لسيطرة قانون ، فان المدرسة مع ذلك تجربة اجبارية يفرضها القانون بكل قوته ، (الاختيار للالتحاق بمدرسة خاصة قائم وموجود بالنسبة للأسر القادرة على ذلك ، ولكن هذا ليس اختيار الطلبة الشخصى ، وهو متاح للقلة فقط) ، والمدرسة ليس فيها قضبان كالسجن أو أبواب بأقفال ، مثل مستشفى المجانين ، ولكن الطالب لم يعد حرا ليغادرها ، مثله كمثل السجين ، الذى ليس حرا ليغادر سجنه .

ومع اعتقال الطفل بهذا الشكل ، يعتبر التعليم الرسمى أن مهمته الرئيسية هى عملية نقل « المعرفة المتراكمة للماضى » ، والتى عادة ما تكون على حساب الحاضر والمستقبل . انها عملية **تلقين** « Feeding in » بدلا من أن تكون عمليـة **اقتياد** « Leading out » وكل شىء يدرس فيما عدا ما هو ضرورى لنمو معرفة الفرد عن نفسه ، وعلاقة نفسه بالآخرين . انه يجد كثيرا من مدرسيه أفرادا تعوزهم الحيوية ، خالين من الحماسة ، والأمل والمرح .

ويقول اريك فـروم — Erich Fromm :

— « الحياة عملية ميلاد جديد مستمر . والمأساة فى حياة معظمنا أننا نموت قبل أن نولد تماما » .

ان التعليم الحديث لا يقوم الا بعمل ضئيل لارشاد الطفل للانتقال من الموت الى الميلاد الجديد . والواقع أنك لا تجد حب النفس — الذى يسميه التربويون احترام النفس — ولا حب الآخرين ، ولا المسئولية ، وحب الفرد لزميله الانسان — لا تجد شيئا منهـا فى نظامنـا التعليمى الراهن .. والمدرسون مشغولون ومثقلون بالأعباء عن أن يكونوا مبدعين .
وكما يقول البرت اينشتين — Albert Einstein :

— انه لا يخلو من معجزة ، أن تعليم اليوم لم يخنق حب الاستطلاع المقدس ، لأن النبتة الصغيرة الرقيقة فى حاجة الى الحرية ، وبدونها سوف تسقط فى دمار وخراب ، وتموت حتما » .

وهكذا يغـادر الفرد ، بعد اكتمال نمـوه ، مدارسنا مرتبـكا ، مستوحشا ، نافرا ، ضائعا ، حانقا ، ولكن بعقل ملء بحقائق معزولة لا معنى لها ، ومما يبعث على الضحك أنها تسمى - في مجموعها - تعليما . انه لا يعرف من يكون ، ولا أين يكون . ولا كيف وصل لمكانه ، وليست لديه أية فكرة الى أين هو ذاهب ، وكيف يصل ، ولا ما الذى هو فاعل اذا ما وصـل .. وليست لديه أية فكرة عما لديه ، ولا الذى يريده ، ولا كيف ينميه ويطوره ... وفى جوهـر الأمـر انه نموذج لروبوت - انسان آلى - قديم جاء قبل عصره يشيخ قبل شـبابه ، يعيش فى الماضى ، مضطرب بالحاضر ، وخائف من المستقبل أشبه كثيرا بالمدرسين الذين صنعوه .

والواقع أنه لم يتعرض بشكل مباشر فى أى مكان على طول الطريق للحب كظاهرة مكتسبة بالتعليم . وما قد تعلمه عن الحب قد جاءه بشكل غير مباشر بالصدفة ، أو عن طريق المحاولة والخطأ . أما أعظم ما تعرض له - وغالبا ما يكون تعلمه الوحيد - فقد كان من خلال وسائل الاعلام التجارية ، التى دائما ما تستثمر الحب من أجل أهدافها الشخصية . ولقد أنتج الشعراء المصابون بالاحباط - بمساعدة مترو جولدون ماير ، وفوكس للقرن العشرين - حبا رومانتيكيا للسـوق العالمية ، ومفهومهم للحب لا يعدو أن يكون مثل ولد يقابل بنتا ، أو بنت تتشاجر مع ولد (أو العكس) ، أو ولد يفقد بنتا ، أو بنت وولد يكتسبان نفاذ البصيرة من خلال ضربة حظ سحرية ، أو ولد يفوز ببنت ، ويعيشان « فى تبات ونبات ... » . كل هذا مع التنويع ....

وهناك حالة كلاسـيكية فى هذا المجـال ، وهى نجاح أفـلام **روك هدسـون - دوريس داى** . روك يقابل دوريس . روك يتودد الى دوريس بالتلطف والهدايا والزهور والكلمات الحانية والمطاردات الجامحة والسلوكيات الخاصة . تستمر دوريس فى الهروب من مبادرات روك ، الذى يلهث وراءها لمدة ست بكرات . وأخير لا تستطيع دوريس أن تقاوم أكثر من ذلك ، وتستسلم وتسلم نفسها لروك . روك يحمل دوريس عبر العتبة . **النهاية** .

ولعل الأكثر متعة هو رؤية ما يحدث بعد هذه النهاية . فمن المؤكد أن أية فتاة لها مثل الشخصية التى تمثلها دوريس ، والتى تباعدت عن رجل لمدة ست بكرات من الفيلم ، هى فتـاة باردة ، وأى رجل قام بهذه التفاهات ، هو انسان عقيم . وهما ، يستحق أحدهما الآخر . أو كما يقال : الطيور على أشكالها تقع .

ومع ذلك ، فهذا المثل وغيره من الأمثلة التى لا حصر لها ، هى التى تخلق لنا فكرة : ما هو الحب ٠

وتلعب شركات اعلانات الروائح والسجائر ومستحضرات التجميل دورا اضافيا فى تقوية هذه الفكرة المجنونة عن الحب ٠

فهى تؤكد لك أن الحب معناه الجرى معا عبر المروج ، مع اشعال سيجارتين فى الظلام ، أو استعمال مستحضرات التجميل أو مزيل رائحة العرق يوميا ، وهى تعطيك فكرة أن الحب يحدث بلا توقع ، وعادة من أول نظرة ٠ وليس عليك أن تسعى للحب ٠٠٠ الحب لا يتطلب معلما ، فأنت تقع فى الحب فحسب ، اذا اتبعت القواعد الصحيحة ، ولعبت اللعبة بشكل صحيح :

اننى لا أرغب فى تكوين شركة مع مهندس معمارى لا يملك الا معرفة ضئيلة بالبناء ، أو مع سمسار معلوماته عن البورصة محدودة ، ومع ذلك ، فنحن نكون ما نأمل أن يصير علاقات دائمة فى الحب مع أناس لا يكادون يعرفون شيئا عن ما هو الحب ٠ انهـم يعدلون الحب بالجنس والجاذبية والحاجة والأمان والقصص الخيالية والمجاملة وآلاف من الأمور المشابهة ٠ بالطبـع الحب هو كل هذه الأمور ، ومع ذلك ليس بأى واحد منها ٠ **وقال أحد طلاب فصل الحب الدراسى ذات مرة :**

ـ أتمنى منها أن تحبنى أكثر وتحتاجنى أقل ٠

وهكذا فان معظمنا لن يتعلم أن يحب على الاطلاق أبدا ٠ اننا ننهمك فى لعبة الحب ، ونقلد المحبين ، ونعامل الحب كلعبة ، فهل هناك عجب فى أن كثيرا منا يكادون يموتون من العزلة ، ويشعرون بالقلق وعـدم الاكتفاء الذاتى والخواء الداخلى ، حتى فيما يبدو أنه علاقات وثيقة ؟

ودائما نتطلع لمكان آخر ، مؤملين أن نجد شيئا أكثر ٠٠٠ ونشعر أن هذا الشىء لابد ـ ومن المؤكد ـ أن يكون هناك ٠ **وتتساءل الأغنية :**

ـ هل هذا هو كل ما هنالك ؟

وهناك شىء آخر ، انه ببساطة ما يلى : تلك القوة الكامنة اللا محدودة للحب داخل كل شخص والمتلهفة ، لأن تدرك ، والمنتظـرة لأن تتطور، والمشتاقة لأن تنمو ٠

ان الوقت لم يفت لكى تتعلم أى شىء ما دامت لديك القـدرة والاستعداد والقوة الكامنة . اذا أردت أن تتعلم الحب ، اذن فعليك أن تشرع فى عملية اكتشاف ما هو ؟ وما الخصائص التى تصنع الشخص المحب ؟ وكيف نمى ؟ كل شخص لديه القوة الكامنة للحب . ولكن القوة الكامنة لا تتحقق مطلقا بدون عمل . وهذا لا يعنى العذاب والألم . ان الحب ـ بصفة خاصة ـ يتأتى تعلمه على خير وجه فى غمار الروائعة .... وفى المرح .. وفى السلام .. وفى المعايشة .

***

يحتـــاج الانســـان
أن يحب وأن يحب

« يكتشف العلماء أخيرا أن الجمع بين الحياة والحب هو المسار الوحيد للبشر ، لأن هذا في الحقيقة ، هو طريق الحياة الذى تتطلبه طبيعة الانسان الفطرية • »

آشلى مونتاجـــو
Ashley Montagu

- ٢ -

صحيح أن كل انسان فى نهـاية الأمر يقف وحيدا ، ولا يهم عدد الناس الذين يحيطون به ، أو كم هو مشـــهور ، فهو فى معظم لحظات حياته المهمة يجد نفسه وحيدا • فلحظة الميلاد هى عالم من « الوحدة » ، كما فى لحظة الموت • وهناك ، بين هاتين اللحظتين المهمتين وحدة لحظات الدموع ، ولحظات الصراع من أجل التغيير ، ولحظات اتخـاذ القرار • هذه أوقات يواجه الانسان فيها نفسه فقط ، لأنه لا يستطيع أحد آخر أن يفهم باخلاص دموعه أو معاناته أو الدوافع المعقدة وراء قراراته • ويظل معظم الناس غرباء بشكل جوهرى ، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يحبونهم • **أورســـته** Orestes (*) كان وحيـــدا عندما قرر أن يقتل **كليتمنسترا** Clytemnestra ، أمه ، الفعل الذى حرره • وكان **هاملت** وحيدا ، عندما اتخذ قرار الانتقام لموت أبيه ، الفعل الذى دمره وكل من حوله • وكان جون كنيدى وحيدا ، عندما اتخذ قرار خليج الخنازير الشهير ، القرار الذى كان يمكن أن يجلب حربا عظمى أخرى الى العالم ، ولن يعرف معظمنا أبدا ثقل مثل لحظات الوحدة الخطيرة هذه •

(★) ابن أجاممنون ملك مايسينا قائد الاغريق ضد طروادة ، وأمه كليتمنسترا ، وهو الذى انتقم مع أخته الكترا لأبيه بذبحها ـ (المترجم) •

ان مفهوم الوحدة يصبح أكثر تدميرا عندما نســاوى **الوحدة** ــ Aloneness **بالوحشة أو العزلة** ــ Loneliness · فهما بالطبع شيئان مختلفان جوهريا ·

ويمكن للانسان أن يكون وحيدا ولا يشعر بالعزلة ، وعلى العكس يمكن للانســان أن يشعر بالعزلة حتى عندما يكون بين الناس · ولقد تعرضنا جميعا لدرجات من الوحدة ، ولم تكن مخيفة دائما ·

وقد نجد ، فى أوقات ، أن الوحدة ليست ضرورية فقط ، وانما نجد فيها تجديا وتنويرا ، بل بهجة وحبورا · فنحن نحتاج لأن نكون وحيدين مع أنفسنا لنتعرف على أعماق أنفسنا · ونحتاج الى وقت لنفكر فيه مليا ، لنعكس ، ونربط الأطراف السائبة بعضها مع بعض ، ولنجعل من التشويش شيئا ذا معنى أو ببساطة ، لنرتع فى الأحلام ونستجلى معانيها · ولقد وجدنا أننا غالبا نفعل هذه الأشياء بشكل أفضل حينما نكون بمفردنا · ولقد أكد هــذا **ألبرت شفايتزر** ــ Albert Schweitzer بشكل لاذع فى تعليقه بأن الانسان الحديث جزء من جمهور يحتويه ، لدرجة أنه يموت من الوحدة الشخصية ·

ويبدو أن معظم الناس قادرون على أن يناضلوا ــ مع معرفة أنهم وحيدون ــ كتحد فريد · ولكنهم لا يختارون الوحدة كحالة دائمــة ، فالانسان بالطبيعة مخلوق اجتماعى · ويشعر براحة أكثر بوحدته لدرجة يتطلع بعدها لمخالطة الآخرين · ويكتشف مع كل علاقة عميقة انه يزداد اقترابا من نفسه ، وأن الآخرين يساعدونه على كسب قوة شخصيته ، وتجعله هذه القوة ، بالتالى ، قادرا على مواجهة وحدته · وهكذا ، يجاهد الانسان عن وعى ليصل الى الآخرين ويقربهم اليه ، وهو يفعل هــذا للدرجة التى يقدر عليها ، وللدرجة التى يكون مقبولا بهــا · وكلمــا استطاع أن يقيم أواصر تحالف بينــــه وبين كل الأمــور ، حتى الموت ، قل خوفه من العزلة · ولهذه الأسباب ابتدع الانسان الزواج ، والأسرة والعشيرة ، وحديثا الكميونات ، والبعض يؤكد ، حتى الله ·

ويبدو أن هناك دليلا متزايدا على أن هناك حاجة فطرية بالفعل لهذا التلاقى ، هذا التفاعل الانســانى ، هذا الحب · ويبدو أنه بدون هذه الروابط الحميمة مع البشر الآخرين فان الطفل حديث الولادة ، مثلا قد يكون عرضة لأن يتأخر فى تطور نموه ، ويفقد الوعى ، ويقع فى بلاهة ويموت · وقد يحدث هذا حتى لو كان يعيش فى بيئة مادية كاملة ، ويتمتع بنظام تغذية رائع ، ورعاية صحية على نمط المستشفى · وكل هذا لا يكفى لاستمرار تطوره الجسمانى والعقلى ·

لقد كانت معدلات الوفيات فى الأطفال فى المؤسسات التى أحسن تجهيزها وقل العاملون فيهـا ـ فى العقد الماضى مفزعة ، وفى العقـدين السابقين ـ وقبل تقبل فهم أهمية الاستجابة الانسانية لنمو الطفل ـ كانت احصائيات وفيات الأطفال فى المؤسسات أكثر بشاعة ، ففى عام ١٩١٥ ، مثلا ، فى لقاء لجمعية طب الأطفال الأمريكية أعلن **الدكتور هنرى شـــابن** ـ Henry Chapin ، عن دراسة لعشر مؤسسات للأطفال فى الولايات المتحدة ، حيث يكاد لا ينجو كل طفل تحت سن سنتين من الموت ! وكانت تقارير أخرى فى نفس الوقت مشابهة .

وقد أعلن **الدكتور جريفث بانج** ـ Dr. Griffith Banning فى دراسة عن ٨٠٠ طفل كندى ينتمون الى آباء متوفين أو مطلقين أو منفصلين عن أمهاتهم ، ينقصهم الشعور بالحب والحنـــان ، فكان هذا أكثر وبالا على نموهم مما يسببه المرض ، وكانت أكثر خطورة من كل العوامل الأخـرى مجتمعة .

كما أعلن **سكيلز** ـ Skeels ، حديثا ـ وهو عالم نفسى وتربوى مرموق ـ فى دراسته الطويلة المأساوية ، التى أجراها على أطفال يتامى ، حيث كان المغاير الوحيد هو التغذية والحب الانسانى . ظل فريق من ١٢ طفلا فى ملجأ لليتامى لا يخرج منه ، وفريق آخر من ١٢ طفلا يخرجون يوميا الى فتاة معاقة ، فى مؤسسة مجاورة لتقدم لهم الرعاية والحب . ولقد أصبحت النتائج التى انتهى اليها شيئا كلاسيكيا فى التاريخ ، فبعد أكثر من عشرين سنة من الدراسة وجد أن أولئك فى الفريق الأول الذين ظلوا فى الملجأ بدون حب شخصى ، جميعهم فى الوقت الحالى ـ ان لم يكونوا قد توفوا ـ اما فى مؤسسات للمتخلفين عقليا ، أو فى مؤسسات للأمراض العقلية ، أما أفراد الفريق الثـانى ، الذين حصلوا على حب ورعاية ، فقد شبوا جميعهم يعولون أنفسهم فى ثقة ، ومعظمهم قد أنهى المدرسة الثانوية ، وجميعهم متزوجون ويعيشـــون فى سعادة ، مع حالة طلاق واحدة . احصائية مدهشة ، فى الحقيقة !

وفى مدينة نيويورك أجرى **د. رينيه سبتز** ـ Dr. Rene Spitz فى العقد الماضى دراســـة على الأطفـال الذين يعيشـون فى مؤسستين مختلفتين . كانت المؤسستان تختلفان بشكل رئيسى فى أسلوب القيـام بمسئولياتهم ، وفى الرعاية التربوية ، وفى التغذية التى يحصـل عليها الأطفال . ففى احدى المؤسستين كان الطفل يتعامل مع انســان ، عادة أمه ، يوميا . وفى المؤسسة الأخـــرى ، كانت توجـد ممرضة وحيدة هى

الحب كالمرآة · عندما تحب آخر فانك تصبح مرآته ، وهو يصبح مرآتك ··· وبانعكاس حب كل منكما ، تريان ما لا نهاية ·

المسئولة عن رعاية ما بين ثمانية الى عشرة منهم · وقد درس د · سبتز حالة كل طفل على ضوء عوامل تطوره ، طبيا ونفسيا ، واهتم **بحاصل النمو للطفل** ــ Developmental Quotient الذى يشمل الأوجه المهمة للشخصية كالذكاء والادراك ، والذاكرة ، والقدرة على المحاكاة ، وهلم جرا · وبينما كانت كل الأوجه الأخرى حين المقارنة متساوية فى الأطفال الذين حصلوا على التغذية والرعاية الانسانية ــ فقد ارتفع حاصل النمو لديهم من ١٠١ر٥ الى ١٠٥ وأظهر ارتفاعا مستمرا ·

أما هؤلاء الأطفال المحرومون من الرعاية التربوية فقد بدءوا بحاصل نمو مقداره ١٢٤ وفى السنة الثانية للدراسة هبط الحاصل الى ما يذهل : ٤٥ !

وثمة دراسات أخرى متعددة للدكاترة : **فرتز ريدل** ــ Fritz Ridel ، **دافيد وينمان** ــ David Wineman ، **كارل منينجز** ــ Karl Menninges وكلها تشير الى ارتباط ايجابى بين الرعاية الانسانية والصحبة ، وبين النمو الانسانى والتطور ، ويمكن العثور على تقرير ممتع جدا وأكثر شمولا حول هذه الدراسات فى مقال رائع كتبه **آشلى مونتاجو** ــ Ashley Montagu فى مجلة : Phi Delta Kappan ، مايو ١٩٧٠ ·

وهكذا يبدو أن الطفل لا يعرف أو يفهم ديناميكية الحب الدقيقة ، ولكن لديه حاجة قوية له ، حتى ان نقصه يمكن أن يؤثر على نموه وتطوره ، بل قد يؤدى الى موته · ولا تتغير هذه الحاجة مع سن الرشد · وفى حالات كثيرة ، تصبح الحاجة للصحبة والحب الهدف والدافع الرئيسى لحياة الفرد · ومن المعروف أن نقص الحب هو السبب الرئيسى لمرض العصاب الحاد والاضطراب العقلى ، فى مرحلة المراهقة ·

منذ سنوات ماضية ، كنت أقضى أمسيات الأحد فى محطة اتصالات بالراديو فى لوس أنجليس · وكان هناك خط مفتوح مع المدينة · وكنا اثنين فقط فى غرفة زجاجية صغيرة مملوءة بالمعدات الكهربائية ، وفى الخارج ، عامل تليفون وحيد يدير ستة خطوط عاملة · وكنا نتحدث من ٧ مساء الى ١٠ مساء ، الى أصوات غريبة تتصل بنا من المدينة · ولم تكن الخطوط خالية قط ، وانما كان هناك ــ دائما ــ واحد يتحدث ،

وخمسة ينتظرون . وكان الموضوع هو الحب . والغريب فى الأمر أن غالبية المكالمات كانت عن الشعور بالوحدة ، وعدم القدرة على حب الآخرين ، والاضطراب فى العلاقات الشخصية بالآخرين ، والخوف من الحب خشية الأذى . وكل واحد من المئات الذين استقبلنا مكالماتهم كل مساء كان يريد أن يحب ، ولكن لا يعرف كيف يفعل . قال أحد الشبان :

ـ انى وحيد تماما فى شقة صغيرة بشارع ملروز . وهناك أناس من جميع الأشكال فى مثل حالتى بهذا الشارع ، وكل واحد فى شقته ، وكل منا يريد أن يكون مع أحد ما ، ولا أحد منا يعرف كيف يكسر الجدران ويحطم الحواجز . ماذا دهانا ؟

فى الحقيقة ، أن الخوف من الوحدة ونقص الحب كبيران جدا فى معظمنا لدرجة يمكن معها أن نصبح عبيدا لهذا الخوف . واذا كان الأمر كذلك ، فنحن مستعدون لأن نتخلى حتى عن أنفسنا ، وعن أى شىء ، لاشباع حاجات الآخرين ، وبهذه الطريقة نأمل أن نكسب صحبة حميمة لأنفسنا .

هناك مسرحية غنائية مشهورة فى برودواى تدعى « **الصحبة** » التى تفترض أن السبب الوحيد للحب والزواج هو أن يستطيع الانسان أن يحصل على صحبة ، فى السراء والضراء . وهى تفترض أن أى شىء خير من لا شىء . **يقول وليم فولكنر** William Faulkner : فى «النخيل البرى» Wild Palms :

ـ « لو خيرونى بين الألم والعدم لاخترت الألم » .

وهكذا الشأن مع معظم الناس .

ان الطفل يستجيب لعادات تنشئة غير معقولة من أجل حب والديه ، والشاب قد يفقد شخصيته ، ويتخلى عن نفسه التى بين جنبيه ، ليصبح مقبولا كعضو فى جماعة . سوف يتزيا مثل أقرانه ، ويحلق شعره على غرارهم ، ويستمع لنفس الموسيقا ، ويرقص نفس الرقصات ، ويتخذ نفس الاتجاهات . وفى مرحلة المراهقة ، نجد أن أسهل طريقة للقبول فى جماعة من الرفاق ، هى أن نكون مثلهم وعلى شاكلتهم . وهكذا نعمل على أن نتطابق . فنقيم جسرا ، ونقرأ نفس الكتب المفضلة ونقيم حفلات كوكتيل مشابهة ، ونشيد منازل مشابهة ، ونرتدى بشكل يناسب مستويات المجموعة ، كل ذلك لكى نستطيع أن نحس روح العشيرة والأمان . وأثناء فترة التودد والحب الرومانسى ، سنغير أنفسنا بشكل جذرى للحصول على تقبل واستحسان الشخص الذى نحبه ، الى الحد

الذى عناه الشعر الغنائى ، « انه يحب الشعر الجعد ، وأنا لم أهتم قط بالجعد ، ولكنه يحب الشعر الجعد ، ولذا فهذا هو ضعفى الآن » .

وفى سن الشيخوخة ، فنحن نندمج ، بارادتنـــا أو مجبرين ، الى بيئات مصطنعة لكبار السن للهروب من عالم الشباب ، حيث نبـدو غير مفيدين أو مرغوبين الى عالم ، نحرص فيه أن يستمر شعورنا بأننا أعضاء فى جماعة .

وغير مجد انكارنا لذلك ، فنحن نجد أننا فى كل مرحلة من مراحل الحياة نتحرك نحو الآخرين ... نحو الآباء عندما نكون أطفـالا ، نحو أتـراب عندما نكون مراهقين ، نحو الزواج ، ونحو جماعات من المجتمع مناسبة لنا عندما نكون كبارا يافعين ، ونحو جماعات المتقاعدين عندما نشيخ ... وهكذا حتى وفاتنا .

نحن فى حاجة الى الآخرين ... نحن فى حاجة الى الآخرين لكى نحب ، ونحن فى حاجة الى أن يحبونا .. ولا شـــك أننا بدون ذلك ، نصبح ، كالطفل الذى يترك وحيدا ، سنتوقف عن النمو ، ونتوقف عن التطور ، ونختار الجنون ، بل نختار حتى الموت والدمار .

***

مســـألة تعـــريف

« الحب صابر عطوف ٠ الحب ليس غيورا أو مختالا أو متكبرا ، الحب ليس سيىء الخلق ، أو أنانيا أو سريع الغضب ، الحب لا يحتفظ بسجل للأخطاء : الحب ليس ســـعيدا مع الشر ، ولكنه ســعيد مع الصدق ٠ الحب لا يستسلم أبدا : فولاؤه وأمله وصبره لا يصيبهم الاخفاق مطلقـــا ٠ الحب أبدى ٠٠ هناك الولاء والأمل والحب ٠٠٠ هذه ثلاثة ، ولكن أعظم الثلاثة هو الحـــب » ٠

- ٣ -

الى حد كبير ، تركت وظيفة التعامل مع الحب للشعراء ، والفلاسفة ورجال الدين ، أما العلماء فيبدو أنهم يتجنبون الموضوع ٠

لقد ذكر أبراهام مازلو ـ Abraham Malsow

ـ « انه لمن المذهل ، مدى ضآلة ما تقدمه العلوم التجريبية لموضوع الحب ٠ والأغرب من ذلك سكوت علماء النفس ٠ واذا ما تحدثت عنـــه الكتب الدراسية فى علم النفس والاجتماع ، فغالبـــا ما تتناول الجانب الكئيب المثير للسخط ، اذ كلاهما لا يعترف أصلا بالموضوع » ٠

ويشرح بتيرم ســـوروكين ـ Pitirim Sorokin ، عالم الاجتماع بهارفارد الذائع الصيت فى كتابه « طرق الحب وسلطانه » ، لماذا يشعر بأن العلماء قد تجنبوا طويلا مناقشة الحب ، **فيقول :**

ـ « لا تؤمن عقولنا الحسية بسلطان الحب اذ يبدو لها شيئا وهميا ٠ فنسميه خداعا نفسيا ، مخدرا لعقول الناس ، هراء مثاليا ، تضليلا غير علمى ٠ اننا نتحيز ضد جميع النظريات التى تحاول أن تثبت سلطـــان الحب ، والقوى الايجابية الأخرى فى تقييد الســـلوك الانسانى وتحديد الشخصية ، فى التأثير على مجرى التطـور البيولوجى والاجتماعى والعقلى والأخلاقى ، فى التأثير على اتجاه الأحداث التاريخية ، وفى تشكيل سمات المؤسسات الاجتماعية والثقافية ٠ هذه الأمور تبدو غير مقنعة فى المحيط الحسى ، وغير علمية ومتحيزة ، وخرافية » ٠

وهكذا ظل العلم والعلماء صامتين عن الموضوع ، ويعترف البعض به كواقع ، بينما يراه آخرون أنه مجرد بناء وهمى لاعطاء معنى لحياة لا معنى لها ، والبعض يدينونه فيحكمون عليه بأنه مرض من الأمراض ·

لا شك فى أن الحب ليس بموضوع تسهل معالجته · ربما يكون اهتمامك به بمثابة أن : « تمشى حيث تخاف الملائكة أن تطأ » ·

ولكنه أمر مثير للضحك والسخرية أن تظل هذه القوة الجبارة فى الحياة متجاهلة أو مجهولة ، غير مستقصاة أو خارج نطاق الدراســة ، بل ومدانة من قبل علماء الاجتماع ·

وربما نشأت المخاوف على أساس المدلول اللفظى · فلا توجد كلمة أسىء استخدامها أكثر من كلمة الحب · والشــاعر الرومانتيكى الفرنسى **فرانسوا فيلون** ـ Francois Villon انتقد بقسوة حقيقية أننا دائمــا « نفقر الحب المسكين وندنيه لأحط استعمالات المطبخ ، والرغبات المبتذلة »· فالشخص قد « يحب » الله و « يحب » الفطير أو الكعك · أو قد يرى « الحب » كتضحية أو تبعية والتزام · أو قد يفكر فى « الحب » على أنه فقط علاقة الذكر بالأنثى ، كمرجع لـ « الحب » الجنسى ، أو قد يراه فقط فى طهارة القديسين وصفائهم الروحى ·

ونحن مضطرون كأفراد أن نصل الى درجة من تفهم الحب قبل أن نستطيع التعامل معه · وهذا ، كما أشرنا من قبل ، ليس بالعمل السهل ، ونحن راضون غالبا بأن نوليه قليلا من الاعتبار · بل ان المهمة قد تبدو لنا مستحيلة ومقيدة لمفهــوم عريض مثل هذا · ولذلك ، يفضل العلماء تجاهل الموضوع برمته ·

وهكذا انتهى الأمر الى أن يقع فى أيدى القديس ، الذى يعرفه على أنه حالة من الوجـد أو الجـذب · والشاعر ، الذى يراه فى حالة بهجة أو وهم مبالغ فيها ، والفيلسوف ، الذى يحــاول أن يحلله بطريقتــه العقلانية ، نقطة نقطة ، وغالبا بأسلوب غامض · ويظل الحب لا ينطبق بشكل كامل على واحد من هذه القوالب ، لأنه قد يكون جميعهــا فى وقت واحد ، حالة من الوجد ونشوة الروح ، وحالة من البهجة والسرور ، وحالة من الوهم والخيال ، وحالة عقلانية أو حالة غير عقلانية ·

فالحب أشياء كثيرة ، ربما لدرجة لايمكن أن تكون حاسما نحوها ، فتحددها فى كلمة أو كلمات لذلك،فان الشخص الذى يحاول تعريفه يتعرض لخطر الانتهاء الى أن يكون غامضا أو سديميا ، ولا يصل الى شىء ·

لقد قلنا من قبل ان كل انسان قد تعلم الحب ويستمر فى تعلمه بطريقته المميزة الفريدة • ولكى نتوقعه أن يفهم الكلمة عندما يستخدمها شخص آخر — فى أى شىء غير المعنى العام — فكأنما نتوقع المعجزة •

فاذا قال شخص لآخر :

— « انى أحب فطيرة التفاح » •

فليس هناك مجال للشك فيما يعنيه هذا الشخص • أى ، أن فطيرة التفــاح هذه راقت لتذوقه المعدى •• ولكن ، اذا فرض أن نفس **الشخص قال للآخــــر :**

— أنا أحبــــك •

فهذا أمر آخر •• ، وسوف نميل الى أن **نتساءل :**

— ماذا يعنى بذلك ؟ هل يحب جسدى ؟ عقلى ؟ هل يحبنى فى هذه اللحظة ؟ الى الأبد ؟ وهلم جرا • وعبرت طالبة فى فصل الحب عن ذلك بدقة عندما **قالت :**

— الفرق بين قول ، « أحبك » لصديق أو لحبيب هو أنك لو قلت « أحبك » لصديق ، لعرف الصديق بالضبط ماذا تعنيه •

من الواضح بالتأكيد للقارىء الذى وصل لهذا المدى ، أن يدرك أننا لكى نعرف الحب فاننا نجلب مشكلات ضخمة ، لأن المرء ينمو فى الحب ، ولهذا يتغير تعريفه ، ويتسع • ولكن هناك أشياء معينة يمكن أن تقال عن الحب ، عناصر عامة معينة يمكن بحثها ، وقد تساعد على توضيح الموضوع للمناقشة ، والمشاركة فى بعض الأفكار المتعلقة بأوجه الحب • وهذا هو هدفى من تأليف هذا الكتاب •

الحب هو رد فعل انفعالى مكتسب بالتعلم • انه استجابة لمجموعة من السلوك والمنبهات المكتسبة بالتعلم • ويتأثر ، مثل كل السلوك المكتسب بالتعلم ، بتفاعل المتعلم مع محيطه ، وبمقدرة الشخص التعلمية ، ونوع وقوة المدعمين الحاضرين ، •• أى الناس يستجيبون ، كيف يستجيبون ، والى أية درجة يستجيبون لما يعبر عنه من حب ؟

الحب هو تفاعل ديناميكى يعيش كل ثانية من حياتنا ، كل حياتنا • لذلك فهو فى كل مكان فى كل وقت • لهذا السبب ، أجدنى أنفــــر من

عبارة ، « يقع في الحب » • فأنا لا أؤمن بأن الانســـان يقـــع في الحب أو خارجه • فالمرء يتعلم أن يتفاعل بطريقة خاصة لدرجة معينة لمنبه محدد • وسيكون هذا التفاعل هو الدليل المرئي لحبه • انه لا يمتلك مزيـــدا من الحب – ل « يقع فيه » أو « يخرج منه » أكثـــر مما لديه ، وهو يتصرف بمقتضاه في أية لحظة محددة من حياته • ولعله يبدو أكثر دقة أن نقول ان المرء ينمـــو في الحب ، وكلمـــا زاد تعلمه ، زادت فرصته في تغيير استجاباته السلوكية ، وبالتالي ، تتسع قدرته على الحب • والانســـان اما أنه ينمو بشكل دائم في الحب ، أو يموت • لذلك سوف تظل أعماله وتفاعلاته في تغير مستمر طوال حياته •

المرء لا يقع « في » أو « خارج » الحب

المرء ينمو في الحب

واذا رغب الانسان في معرفة الحب ، فعليه أن يعيش الحب ، أداء وممارسة • ان التفكير في الحب ، أو القراءة عن الحب ، أو الاستمرار في مناقشات عميقة عن الحب ، كلها حسنة جدا ، ولكنها في التحليل النهائي – لن تقدم اجابات حقيقية شافية ، اذا كان لها أن تقدم شيئا على الاطلاق فالأفكار ، والقراءات ، والمناقشات عن الحب تكون ذات قيمة فقط حينما تقدم تساؤلات يعمل بمقتضاها • والمرء لا يتعلم الحب الا ببصيرة جديدة ، ومع كل معلومه جديدة يتفاعل معها ويؤديها ، والا كانت معلومته لا قيمة لها – أو كما عبر ريلكه — Rilke بمنتهى الدقة – انه يجب ببساطة – « أن يحب ليصل للاجابة » ، فالمرء – بعبارة أخرى – يعيش التساؤلات ، ولكن لكي يعيش التساؤلات ، فمن المنطقي أن يكون هو الذي يطرحهـــا •

وحينما يعيش التساؤلات فانه سوف يتعلم حقائق كثيرة عن الحب ، ومن بينها أن الحب ليس شيئا •• انه ليس سلعة يمكن مقايضتهـــا ، أو تباع وتشترى ، ولا يمكن أن يفرض على أحد أو ينتزع من أحد وانما – يمكن أن يمنح طوعا واختيارا • واذا اختار فرد أن يشارك فيه مع كل البشر سواء بسواء ، فهو حر أن يفعل هذا ، واذا اختار أن يدخره لقلة فريدة ، فله أن يفعل هذا ، أيضا • فحبه ملكه يعطيه كما يريد •

وثمة أناس على استعداد لبيع أجسادهم أو عقولهم باسم الحب • ولكن هذا خداع نفس ليس الا ، فالحب لا يمكن أن يشترى • قد يشترى انسان جسد آخر أو وقته أو ممتلكاته الدنيوية ، ولكنه لن يشترى أبدا

حبه وقد يختار المرء أن يتظاهر بالحب مقابل ثمن ، وهذا فن مأساوى قد اتقنه كثيرون الى حد يستحيل لأى شخص أن يتبين زيفه وخداعه ، ولكن هذه الطريقة للعب دور الحب ليست سهلة ، فالتكلفة عظيمة ولا تستحق ما يدفع فيها مطلقا ٠

ان الحب لايمكن أن يؤسر ، أو يكبل بالأغلال ، وانما ينساب الحب من خلال السلاسل والقيود ٠ واذا أراد الحب أن يسلك مجرى آخــــر ، فانه ينطلق فى طريقه ، وتعجز أمامه كل السجون والحراس والأغلال ، وكل عقبات العالم ، ولا تملك من القوة ما يكفى لتعويقه لثانية واحدة ٠ واذا توقف واحد من بنى البشر عن النمو فى حب شخص ما ، فقد يلعب الشخص الآخر أدوارا عديدة لكى يمسك به ، وقد يصبح وغـدا شريرا فيهدده ، أو يصبح جوادا كريما فيقدم له المنح والهدايا ، أو قد ينقلب ماكرا فيجعله يشعر بالذنب ، أو يحتال عليه ليبقى ٠ أو لعله يغير ما بنفسه ليواجه حاجات الآخر ٠ ولكن مهما يعمل ، فان حب الآخــــر قد ذهب ، وسيحصل ، فى مقابل كل ما بذل من طاقة وجهد ، على جسد خاو ، خال من الحب ٠٠ جثة هامدة لا حياة فيها ٠ وهكذا ، ستكون مكافأته عن مجهوداته أن يعيش بشكل يائس مانحا حبه لهيكل بشرى بلا حياة وبلا حب ٠

الحب دائما مفتوح الذراعين ٠ اذا ضممت ذراعيك عن الحب ،
فستجد أنك قد بقيت تحتضن نفسك فحسب ٠

وتصبح الديناميكية أكثر اثارة للدهشة والسخرية ، عندما يتفكر المرء أن هذه العلاقة الهامدة تهــدر كل امكانات النمو المستمر للمحب ٠

ان الحب دائما مفتوح الذراعين ، وبفتح ذراعيه فانك تسمح للحب أن يأتى ويذهب كما يريد بحرية ، لأنه سيفعل هذا على أية حال ٠ واذا ضممت ذراعيك عن الحب فستجد أنك قد بقيت وحدك تحتضن نفســك فحسب ٠

ان الحب موجود بنمط ما ، وبدرجة ما ، لدى كل انسان متحضر ، كما أن هناك أيضا قاعدة للحب وقوة كامنة للنمو فى الحب فى كل انسان ٠ الحب ، اذن ، هو عملية « بناء على » ما هو موجود من قبل ٠ والحب لا يكتمل أبدا فى أى شخص ، فهناك دائما متسع للنمو ، وفى كل نقطة من حياة الشخص ، فان حبه يكون على مستوى مختلف من التطور ومن عمليــة المواءمة ٠ ومن الحمق أن نشعر أن حب الانسان قد تحقق كلية ، فالحب الكامل نادر فى الحقيقة ، ولســـوف يكون من المستغرب أن يحققه أى

انسان • وليس معنى هذا أنه ليس ممكنا ، وأنه ليس هدفا يستحق أن يسعى اليه باخلاص ومعاناة • انه فى الحقيقة التحدى الأكبر لنا ، لأن الحب والذات هما واحد واكتشاف أيهما يعتبر تحقيقا لكليهما •••

وليس هناك « أنواع » من الحب • فالحب هو نوع واحد فقط • الحب هو الحب • فالمرء يعرف ثم يعبر ويسلك طبقا لما يعرفه عن الحب ، وهو يفعل هذا فى كل مرحلة من مراحل النمو • انه يشبه الطفل عندما يولد يعرف قليلا من الحب ، وكل الأشياء يحبها بالتساوى • وعندما ينمو فى الحب يفرق بما لديه من معرفة نامية ، ويختار مما يستجيب له من الأشياء ما يجعله محكا لاختيار حبه • انه يحب رضعته ، كما أنه يحب أمه • وأمه أكثر استجابة واشباعا له من غذائه •• هذا هو المأمول فيه • وهكذا ينمو فى حب أمه بعمق أكثر ، وهناك درجات للحب ، ولكن هناك نوعا واحدا فقط من الحب •

وسوف يكتشف أن الحب ثقة • ويبدو أن الخبرة تقنعنا أن الحمقى فقط هم الذين يثقون ، وأن الحمقى فقط هم الذين يصدقون ويقبلون كل شىء • فاذا كان هذا حقيقيا فان الحب يكون الأعظم حمقا ، لأنه اذا لم يكن مبنيا على الثقة والايمان والقبول ، فهو ليس حبا • **ولقد قال اريك فروم** Erich Fromm :

ـ الحب يعنى أن نسلم أنفسنا بدون ضمان ، أن نستودعها من نحب ، على أمل أن حبنا سوف ينتج حبا فى قلب المحبوب • فالحب مسلك ايمانى ، ومن يكن ايمانه قليلا فحبه أيضا قليل • والحب الواثق هو الذى يعطى كل شىء ولا يتوقع شيئا • وسيسره ويبهجه بالطبع أن يأخذ أى شىء يقدم له ، وكلما زاد العطاء كان أفضل ، لكنه لا يطلب شيئا ،اذا لم يتوقع المرء شيئا ولم يطلب شيئا ، فانه لن ينخدع أو يخيب رجاؤه أبدا ، فالألم لا يتأتى عن الحب الا اذا كانت للحب تطلعات ومطالب •

ان هذه المقولة تبدو أساسية جدا وبسيطة جدا ، ولكنها عند الممارسة الفعلية تكتنفها الصعوبة حقا • فقليلون منا أولئك الأقوياء الذين يتسامحون كل التسامح ، ويثقون فى الناس كل الوثوق ، ومن ثم يعطون ولا ينتظرون الجزاء • وليس هذا بمستغرب ، حيث اننا قد تعلمنا منذ الطفولة أن نتوقع جزاء لأى جهد يبذل ، فاذا عملنا ، فاننا نطلب أجرا مناسبا والا انسحبنا ، واذا زرعنا النبات وغرسنا الشجر فاننا نتوقع فاكهة وزهورا والا اقتلعناها وسويناها بالأرض ، واذا استثمرنا وقتا فى مهمة ما ، انتظرنا بعض الرضا أو الثناء ، والا رفضنا أن نقوم به ثانية • والواقع أن المكافأة المعلنة هى الباعث الوحيد غالبا للتعلم •

ولكن الحب شيء آخر . انه الحب حقا عندما يعطى بدون توقـــع الأخذ ، فمثلا ، لا يمكنك أن تصر على أن يرد لك الشخص الذى تحبه حبا بحب ، بل ان الفكرة مضحكة . ومع ذلك ، وبغير وعى ، انها الطريقة التى يعيش بها معظم الناس . اذا أحببت بصدق ، فليس أمامك اذن الا أن تؤمن ، وتثق ، وتقبل ، وتأمل أن حبك سيرتد اليك . ولكن لا يمكن أن يكون ثمة أى تأكيد ولا أى ضمان أبدا ، واذا انتظر الانسان ألا يحب الا عندما يتأكد من الحصول على حب معادل فى المقابل ، فقـــد ينتظر الى الأبد . وفى الحقيقة ، اذا أحب وفى نفسه أى توقع لما يقابل حبه ، فمن المؤكد أن يخيب رجاؤه فى آخر الأمر ، لأنه ليس من المحتمل أن يستطيع معظم الناس أن يشبعوا كل حاجاته مهما كان حبهم له عظيما .

ان المرء يحب لأنه يريد الحب .. لأنه يمده بالبهجة والمتعة .. لأنه يعلم أن نمو ذاته واكتشافها يعتمد عليه . انه يعلم أن التأكيد الوحيـد لديه انما يكمن داخل نفسه . فاذا وثق وآمن بنفسه فلسوف يثق ويؤمن بالآخرين . انه شغوف أن يقبل جميع القادرين على العطاء ، ولكنه لا يمكن أن يكون على يقين الا من نفسه ، أو أن يعتمد الا على نفسه .

يقول البوذى : انك تمضى فى طريقك قدما الى الشفافيـــة عندما « تكف عن الرغبة » .

ربما لا نستطيع أبدا بلوغ حالة السلام المرموقة هذه ، ولكن بقدر المدى الذى نقدر أن نعيش عليه بدون تطلع أو توقع لمقابل (الا من أنفسنا) بقدر ما نستطيع أن نتحرر من الوهم وخيبة الرجاء .

ان توقعنا لشيء ما من غيرنا باعتبار أنه حق لنا ، يكون بمثابة دعوة منا للتعاسة ، فالآخرون انما يعطون فقط ما يستطيعون ، لا ما ترغب أنت أن يعطوك وعندما تكف عن وضع شروط على حبك ، تكون قد اتخذت خطوة عملاقة نحو تعلم الحب .

وسيجد الانسان الباحث عن الحب أن الحب صبور . فالمحب يعلم أن كل شخص يمكن أن يعزز معرفته بالحب ، وأن يزيده قربا من نفسه ، انه يعلم أن خبرة الناس ومعرفتهم بالحب تختلف . انه مستثار بفكرة أن العلاقة هى مشاركة ، وأنها كشف متبادل بين الطرفين لمعـــرفة كل بالحب . انه يعلم أن لدى كل انسان قدرة لانهائية للحب ، ولكن هذه القدرة تتحقق بشكل مختلف ما بين شخص وآخر ، وكل شخص ينمو حسب معدله هو ، وعلى منواله هو ، وفى زمنه هو ، وبطريقة تتسق مع ذاته المتفردة . ولذلك فلا جدوى من توبيخ أو حـــكم أو تنبؤ أو تطلب أو افتراض . يجب على الحب أن يكون صبورا . وعلى الحب أن ينتظر .

وليس معنى هذا أن يقبع الحب بشكل سلبى الى الأبـــد ، اذا كان من الضرورى للشخص أن ينمو ٠

ان الحب ايجـــابى وليس سلبيـــا ٠ الحب مشغول دائما بعملية فتح أبواب ونوافذ جديدة لكى تســـمح بدخـــول أفكار واستفســارات متألقـــة ٠ انه يشـــارك فى المعـــرفة ويقـــدم أساسا ثابتا لاختبار ما قد تم تعلمه ٠ انه يهيىء مائدة شهية جذابة أنيقة ، ولكنه لا يستطيع أن يرغم أحدا على الأكل ٠ انه يتيح لكل الحرية ليختار أو يرفض حسب تذوقه ٠ ان الحب يقدم نفسه كوليمة مستمرة لمن يتغذى ، عالما أنه كلما تناول من عينات مائدتها وكلما استوعب وهضم أصبحت طاقاته أقوى وهو ـ بعد ـ لايستطيع أن يأكل فوق طاقته ، وانما ـ فقط ـ سيكون لديه المزيد مما يقدمه عندما يفد آخرون الى وليمته ٠ ان القوة الكامنـــة للحب لا حدود لها ٠

يقدم الحب نفسه كوليمة مستمرة لمـــن يتغـــذى ٠

ان للحب طريقة مختلفة للكشف عن نفسه من خلال كل انسان ٠ وأن تتوقع أن يحب الآخرون كما تحب أنت فى هذه اللحظة أمر غير واقعى٠ « أنت » فقط هو « أنت » ، ولذلك يمكنك أن تستجيب للحـــب ، وأن تمنح الحب ، وأن تشعر بالحب ، كما تفعل وعلى طريقتك ، وانما تكمن المغامرة فى اكتشاف الحب فى نفسك وفى غيرك ، وفى مراقبة الحب فى الآخرين كاشفا عن نفسه رقيقا لطيفا متجليا ٠

ان الحب لا يخشى أن يحس ولا يهاب أن يعرف ، ويهتف معبرا عن نفسه لينبه من عنه غافل ، وتختلف الثقافات فى اتجاهاتها نحو المجاهرة العاطفية ٠ ففى بعض الثقافات يعتبر انتحـــاب الأسرة فى الجنازة أمرا متوقعا ، وقد يدهش الأصدقاء ويصدمون اذا لم يحدث ذلك ٠ وفى ثقافات أخـــرى يستحسن كل الاستحسان الموقف الهادىء الرزيـــن من الموت ، أما اظهار الانفعال فانه ـ بالتأكيد ـ يقابل بالتجهم والاســـتنكار ٠ ففى أمريكا ، مثلا يعلمون الأطفال أن « يتحكموا » فى عواطفهم ، وأن يكبحوا أحاسيسهم ، فالمجاهرة بالانفعالات والضحك بقهقهة ، والبكاء بمرارة ٠٠ كلها من علامات عدم النضج ٠ ان الصغار ، فقط هم الذين يبكون ٠

ليس بمستغرب اذن أن يجد الكبير من الصعب عليه أن يعبر عن أحاسيسه القوية مثـــل الحب ، فيشق عليه أن يحول ما يشعر به الى ألفاظ ، فهو لا يملك الكلمات أو الممارسة ٠

ان عشاقا من الشعوب اللاتينية ، على سبيل المثـال ، مشهورون بقدرتهم على أن يزدادوا شاعرية بما يناسب كل حب جديد • وآية ذلك ما تزخر به لغاتهم من ألفاظ مشحونة بالعاطفة • فالفرنسية والاسبانية والايطالية أمثلة لمثل هذه اللغات « الرومانسية » وكثيرا ما يضيف من ينتمي الى احدى هذه اللغات الى كلماته من الحماسة والايماءات والحركات البدنية ما يعظم مضمونها العاطفي ، وكثيرا ما يستطيع المرء أن يفهم مثل هذا الشخص بمجرد ملاحظته وبدون أن يفهم كلمة واحدة مما يقول •

ان العواطف القوية يملكها الناس جميعا • فبدون الشعور لا نكون بشرا ومن غير الطبيعي للانسان أن يخفي ما يشعر به ، ولو أنه يستطيع أن يفعل ذلك اذا أتيح له أن يتعلمه • والحب يعـــلم الانســـــان أن يظهر ما يشعر به ، والحب لا يفترض مقدما أبدا أنه يمكن أن ندركه أو نشعر به بدون تعبير •

وفي كل مرة أعود فيها الى أقاربي في ايطاليا لا أجد أي شك في حبهم الذي يعبرون عنه بعذوبة ووفاء ، فأشعر في التو واللحظة بلهفتهم وبهجتهم لحضـــوري • انهم يحاصرونني بصيحات الســعادة ، وهتافات الحب ، وبالأحضان ، والقبلات ، والتدليل ، وكل ما يملكون من تأكيد لأحاسيسهم • واني لأجد في كل ذلك ما ينعشني ويبهجني • لقد نشأت في مثل هذه البيئة ، وكانت أسرتي دائما تسفر عما تشعر به وتعبر عنه بصراحة ، ولكنه من المفهوم ـ بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعتادوا على مثل هذا السيل من الأحاسيس ـ أن تكون هذه التجـــربة مفزعة بشكل صارخ ، بل انها قد تثير الحزن والأسى •

ان الدموع تكاد تختفي في ثقافتنا ، فالرجل ، بالتأكيد ، لايبكي ، وحتى المرأة توصف بأنها « عاطفية » اذا هي بكت • ولذلك ، يجب علينا جميعا أن نبكي بمفردنا والا نستحق لقب « عصابي » أو « شاذ » •

وحديثا ، ضبطت متلبسا ، أثناء مشاهدتي « رجل من لامانشـا » المسرحية الموسيقية المأخوذة من « دون كيشوت » ، رواية سيرفانتس • وكان ذلك في محاكمات الفارس المســـكين ، الذي أسيء فهمــه وأسيئت معاملته • لم يكن من الصعب أن يعود لحاجته لاعادة الاحتفال بكل جميل ورومانتيكي وطيب في عالم لم يعد يعتبر كل ذلك ذا قيمة • وخـــلال مشهد وفاته ، محاطا بهؤلاء الذين أحبهم ، نهض كيشوت وانتزع رمحه ، وكان مستعدا ثانيـــة لمهاجمـــة الطواحين الهوائيـــة ، من أجل حبه لدولسينا • لقد أثر في المشهد بشـكل عظيم وانهمرت دموعي بغزارة على

خدى ، فلكزت سيدة كانت تجلس بجوارى زوجها ، **وهمست له فى دهشة:**
ـ انظر ٠٠ انظر ، هذا الرجل يبكى !

ولما سمعت هذا ، أخـــرجت منديلى ، وتمخطت بصوت عال ، وأنا مستمر فى النشيج ٠ وكانت السيدة مبهورة لا تصدق أن رجلا كبيرا يمكن أن يبكى ، لدرجة أنى أشعر يقينا ، الى هذا اليوم ، أنها لم تعرف كيف انتهى العرض ٠ ان الحب لا يخشى الظهور والتعبير عن وجوده ٠

وكأشخاص آدميين ، فاننا نتباعد أكثر جسديا ٠ وفى جميع أنحاء أوربا وآسيا نجد السيدات والرجال سواء بسواء يقبلون ، ويعانقون ، ويسيرون يدا بيد وذراعا بذراع ٠ وهناك مدن معينة فى الولايات المتحدة ، تعتبر هذه السلوكيات جنحة ، ومثل هؤلاء الرجال والسيدات قد يسجنون ٠٠ ولايزال اللمس مسموحا به بين السيدات ، ولكنه ممنوع بشكل قاطع بين الذكور من طفولتهم ومع ذلك ، فان هذا اللمس يتيح شكلا من أشكال الاتصال ، غالبا ما تكون أكثر دلالة من الكلمات والتعبيرات ٠ ان وضعك ذراعك حول آخر أو على كتفه ، هو بمثابة **قولك :**

ـ انى أفهمك ٠
ـ انى أشـعر معك ٠
ـ انى أهتم بك ٠

لقد رأيت أشخاصا يبكون وينظر اليهم آخرون فى ارتباك غير مريح٠ وقد يقدم أحدهم منديلا ، ولكن نادرا ما يقدم لمسة حنان ٠

ويعتبر الأطفال الصغار والكلاب من الزوار العاديين لفصل الحب ٠ وذات مرة **أدلت فتاة بهذه الملاحظة :**

ـ « انه لأمر غريب ٠٠ ان أحــدا لا يتردد فى لمس صبى رضـيع أو تربيت كلب غريب واحتضانه ، وأنا أجلس هنا وأتمنى أحيـانا أن يلمسنى أحد ولا أحد يفعل » ٠ ثم مرت بين الطلاب على أربع ولا حاجة للقول ، ان رجاءها قد تحقق ، وقد انتهت فى حديثها بأن الملاحظة التى أبدتها ربما كانت ضرورية ، ولو أنه قد يبدو مخجلا للانسان أن يجعل الناس تعرف حاجاته ، **وقالت :**

ـ أظن أننا لا نثق فى أن ندع الناس يعرفون حقيقة أننا جميعا نحب

أن نلمس ، وذلك لأننا نخاف أن يسيئوا التفسير ــ لذلك نجلس متباعدين في وحدة وعزلة جسمانية ٠

ان الحب في حاجة للتعبير عن وجوده جسمانيا ٠

والحب يعيش اللحظة ٠ ومعظم الناس اما أنهم يعيشون في الأمس واما أنهم منشغلون في العمل من أجـــل الغد ٠ انهم ينظرون خلفهـــم « للأيام الحلوة القديمة » في اشتياق ويحاولون أن يجـدوا في الحاضر أمن الماضي ، وسرعان ما يكتشفون أنهم واقفون في غير حراك ، ولا يدركون أن الوقوف في غير حراك في عالمنا سريع الحركة ، يعني التحرك للخلف ، وأن التحرك للخلف يعني أن تمـــوت ٠ ان الماضي ميت ، انه غير حقيقي ان له قيمة فقط حينما يؤثر في الحاضر ٠

وهناك آخرون يعيشون من أجـــل الغد ، فهم يكدســـون الثروات ويكنزونها جانبا ، انهم ينكرون أنفسهم يوميـــا ليشتروا وثائق تأمين كبيرة ٠ انهم يوجهون عملية حياتهـم كلها الى مستقبل ســـديمي مجهول أو الى الموت نفسه ٠ انهم مهتمون بالغد اهتماما بالغا لدرجة أنهم قد فقدوا الغاية من الحياة ونسوا أنه ليست هناك أهداف دائمة ٠ فعندما يكون لهم هدف ويحققونه ، فانهم ، يجدون آخـــر يحل محـــله ٠ ان الغد الذي يخططون له لايأتي أبدا ، والغد يأتي ــ فقط ــ مع الموت ٠ ان الحيـــاة الدنيا ليست الغاية وانما هي الوسيلة ٠٠انها **كما يقول «ثورو»** Thoreau :

ــ « عملية الوصول ، لا الوصول نفســـه ٠ أوه ، يا الهي ، انك اذ تصل للحظة الوفاة ، تجد أنك لم تعش على الاطلاق » ٠

وهكذا الأمر بالنسبة للذي يعيش في الوهم فالماضي ميت ، والمستقبل لن يأتي أبدا ٠

ليس هناك الا اللحظة الراهنة (١) ٠ ان ما تمر به من تجربة في هذه اللحظة هو ــ وحده ــ الحقيقي ٠ وليس معنى هذا أن تعيش من أجـــل اللحظة الراهنة ، انه يعني أن تعيش ٠٠ « اللحظة » ٠٠ وشتان ما بين الحالين ٠ ان هناك قيمة في الماضي ٠ على الأقل ، انه هو الذي أتى بك الى

---

(١) اقرن هذا بقول الشاعر العربي :
ما مضى فات والمؤمـــل غيب
ولك الســـاعة التي انت فيهـــا
(المترجم) ٠

حيث أنت · وهناك قيمة فى المستقبل ، ولكنها ترقد فى الحلم ، اذ منذا الذى يستطيع أن يتنبأ بالغد ؟ ان اللحظة الراهنة لهـا قيمة حقيقية ، بما أنها حاضرة فعلا · والحب يعلم هذا ·· انه لا ينظر الى الوراء ·· انه يجرب الماضى ويأخذ أحسن ما فيه ·· انه لا ينظر للامام · انه يعلم أن حلم الغد يظل منتظرا ، وربما لا يأتى أبدا · الحب هو الآن ! انه لا يكون حقيقة الا فى « الآن » فقط · والحب له معنى فقط فى أثناء تجربته فى « الآن » فاذا كان المرء ناظرا الى زهرة ، فهو متوحد مع الزهرة ، واذا كان قارئا ، فهو مستغرق استغراقا تاما ، واذا كان منصتا للموسيقا ، فهو يحلق مع الصوت ، واذا كان متحدثا أو منصتا لآخر ، فهو الآخر ·

الحب له معنى ــ فقط ــ أثناء اختباره
فى « الآن » ·

هناك حكمة بوذية قديمة تروى قصة ناسـك يركض فرارا من دب جائع ، ويتسلق جرفا صخريا ، وكان لابد أن يقفز منه والا فسيأكله الدب الجائع · وأثناء سقوطه يتشبث بأجمة صغيرة من خشب الشجر بارزة من جدار الجرف · وينظر الى أسفل ، فاذا بنمر يتضـور جوعا وينتظـر سقوطه · ويأتى فى تلك اللحظة سنجابان جائعـان من جانب الجرف ، ويشرعان فى الحال فى قضم أجمة الخشب ، التى يتدلى منها ! ·· وهذا هو ، دب جائع فوقه ، ونمر يتضور جوعا تحته ، وسنجابان بجانبـه · ويتطلع فيما وراء السنجابين فيرى شجيرة من الفراولة البرية وثمرة كبيرة حمراء ناضجة ريانة دانية منه ، فيقتطفها ويضعها فى فمه ويأكلهـا ، وهو يصيح :

ــ كم هى لذيذة !

فالحب يستمتع وينمو فى اللحظة ، وفى فرحة اللحظة ·

وهكذا نجد أن الحب أشياء كثيرة ، على الرغم من أننا نعلم أنه ليس شيئا ، بمعنى أنه لا يمكن أن يشترى أو يبـاع أو يوزن أو يقـاس · وانما الحب يمكن أن يعطى وأن يعبر عنه بحرية · انه لا يمكن أن يؤسر أو يقيد ، لأنه ليس موجودا لكى يوثق أو يمسك به ·· انه فى كل واحد ، وكل شىء بدرجات مختلفة ، وينتظر أن يتحقق ليصبح أمرا واقعـا · انه ليس منفصلا عن النفس ، عن الذات · فالحب والذات شىء واحد ·

وليس هناك أنواع من الحب ، فالحب هو الحب ، وانما هناك ــ فقط ــ درجات من الحب . الحب هو الثقة ، والقبول ، والايمان بدون ضمان . الحب صبور ، وينتظر ، ولكنه انتظار ايجابى وليس فى غير عجز ولا خمول. لأنه يقدم نفسه باستمرار فى سفور متبادل ، ومشاركة متسقة . الحب عفوى تلقائى وهو تواق للتعبير من خلال الفرح والبهجة .. من خــلال الجمال .. من خلال الحقيقة ، بل ومن خلال الدموع . ان الحب يعيش اللحظة الراهنة ... انه ليس مفقودا فى الأمس ، ولا تواقا للغد ... الحب يكون الآن !!!



الحب لا يعــرف عمــرا

« من شرب سيعاود الكرة ، وكذلك من حلم ٠ انه لن يتنازل عن تلك الهوة المغرية ، ولن يقلع عن الاصغاء لذلك الصوت الذى لايسبر غوره أحد ، ذلك الولوج فى الممنوع ، ذلك الجهــد لتحسس غير الملموس ولرؤية الخفى ، ســـيعاوده مرات ، وينكب فوقه ، ويخطو نحوه خطــوة ، ثم خطوتين ، وهكذا يقتحم المستغلق ، وهنـــاك ، يجــد المرء الانطلاقة اللانهائية للتامل الذى لا حدود له » ٠

فيكتور هيجو
Victor Hugo

« لا يوجد حب حيث لا توجد ارادة » ٠

غانـــــدى
Gandi

- ٤ -

يستطيع الانسان أن يتعلم ، ويتعلم ثانية ، أو لا يتعلم حتى لحظة الموت ٠ وهناك دائما المزيد مما يكتشف ، ومهما يكن مدى المعرفة التى لديه ، فان الانسان لايستطيع أن يعــرف كل شىء عن أى شىء ٠ ولهذا السبب يقول عالم علم دلالات الألفاظ وتطورها بأن جميع الجمل يجب أن تنتهى بـ « و ، الى آخره ٠٠ » ٠

ان التغيير هو النتيجة النهائية لأى تعلم حقيقى ، ويتضمن التغيير ثلاثة أشياء : أولا ، عدم الرضــا عن النفس ٠٠ الاحساس بالفــراغ أو الحاجة ، ثانيا ، قرار بالتغيير ٠٠ لملء الفــراغ أو تحقيق الحاجـة ، **وثالثا** ، تكريس واع لعملية النمو والتغيير ٠٠ الفعــل المقصود لاحداث التغيير ، ولعمل شىء ما ٠

والانسان يعبر دائما وأبدا عن وحدته ويأسه ، واحباطه وفقـــدان أمله • وهو يجد فى حياته اليومية صعوبة فى المشاركة والفهم والاتصال بالآخرين ، ويشعر بأنه يجب أن يكابد كما هائلا من الحسد ، والخوف ، والقلق ، والكراهية ، ويجد على الدوام أسبابا لتعاسته فى هؤلاء الذين من حوله ، وفى محيطه الخارجى : « النظام السياسى فاسد وسيظل دائما هكذا » • « الحروب شىء حتمى » • الانسان شرير أساسا ولا يمكن أن يتغير » « العدالة والسلام والأمان هى فقط للأغنياء ، أما الرجل العادى فهو مجرد مغفل فى هذا النظام » • « التعليم ليس له معنى للمستقبل ، متجمد فى خروجه عن المطلوب » • « الوجود شارع مغلق ، حيث يقف الموت ممسكا بسكين ملطخة بالدماء • وليس هناك منعطفات ولا مهرب » •

انه يرى نفسه كمن لا حيلة له فى موقف يائس • انه يبدو مصمما على البحث عما هو كئيب مظلم ، ويبدو أكثر رغبة فى تقبل السلبى منه للايجابى ، وأكثر استعدادا للشك منه للثقة • وهو يعيش باستمرار فى قلق بشأن المستقبل ، وفى وهم بشأن الماضى ، ونادرا ما يجد ذاته عند مصدر تعاسته • انه يهزأ لفكرة أنه يستطيع أيضا أن يختار السعادة • وفى الحقيقة ، ان الانسان قد يكون المخلوق الوحيد الذى له ارادة وذكاء كافيان لاختيار السعادة • وكم هو محزن أنه يختار اليأس غالبا ! • بل ان المتفائل ينظر اليه الناس على أنه أحمق ، كمـا ينظرون الى العاشق على أنه رومانتيكى فاقد للحيلة • واذا استمتع انســان بالحياة فهو سفيه « لا يجيد شيئا أبدا » • والواقع أن الانسان يتكون لديه احساس أنه اذا كان مبتهجا ، فمن المؤكد أنه سوف يعاقب على ذلك غدا ،**والقول المأثور القديم الذى يقول :**

ـ كل ما هو طيب فى العالم وطعمه لذيذ اما أن يكون غير مشروع أو غير أخلاقى أو مسببا للسمنة » •

يمثل هذا القول المأثور حالة فى صميم الموضــــوع • ان الخلق المسيحى ، الذى يقنع الانسان بأنه لم يخلق على ظهـــر البسيطة ليعرف المرح والرضا وانما ليعمل ويعانى لكى يشق طريقه الى السلام الخالد مع الله ، ونادرا ما يناقش الانســـان حقيقة أن القبح والشر موجودان فى الدنيا ، ولكنه ليس على استعداد ليعترف بأن الحياة تقدم أيضـــا جمالا غير محدود ، وقوة كامنة للمرح ، بالاضافة الى فرص لا نهاية لها للمتعة والسرور •

وحين يصبح الانسان غير راض مع نفسه ، ملقيا اللوم على القضاء والقدر فى هذه الدنيا المعادية ، فانه يشعر بالراحة فى اليأس الذى يخلقه بنفسه • وبهذه الطريقة يزيح عن نفسه كل مسئولية •

اننى لا أدعى بأنه ليس ثمة شر فى الدنيــــا وأنه لا شيء نخافه ، ولا فساد ولا كراهية ولا مكر ولا حقد ، يكفى المرء أن يلتقط أية صحيفة ، أو يشاهد أية شاشة تليفزيون ، أو يقرأ أية رواية حديثة ، أو يتابع مشهد العالم السياسى ليجد كل المنغصات والمظالم ، التى تعزز موقفه السلبى ٠

ولكن معظم الناس لا يقدرون أن هنــــاك على الأقل ـ قوتين عظيمتين تسيطران عليه فى تلك العملية المعقدة ٠٠ عملية تكيفه ٠ وبالتأكيد يجب عليه أن يرضى بالقوى الخارجية ، القوى الطبيعية ٠ فقد يصيبه زلزال أو فيضان أو صعقة برق فتدمره أو تدمر هؤلاء الذين يحبهم ٠ وقد يصيبه حادث بشلل دائم ، أما كيف يستجيب ويتعامل ويعيش مع الاعاقة أو فى خضم الفيضان أو الزلزال فهذا أمر آخر ٠ انه يستطيع أن يواجه هذا وأن تكون له بعض الهيمنة عليه ، فالانسان يملك الارادة ومن ثم يوجه حياته الى حد كبير ٠ ان التأثيرات المدمرة للقوى الخارجية لا تحدث كثيرا فى مدى عمر الانسان ، ولهذا فهو حر فى استخدام طاقاته الداخلية ليصنع حياته الشخصية ٠ يمكنه أن يكتب حواره ، ويحيط نفسه بممثلين من اختياره ، ويرسم ستارته الخلفية وينسق موسيقاه التأثيرية ٠ وبعدئذ ، اذا لم تعجبه التمثيلية التى ابتدعها لمسرح حياته ، فلا يلومن الا نفسه ٠ ولكن حتى عندئذ فلديه فرصة الاختيار ٠ يمكنه أن ينزل من على خشبة المسرح وينتج مسرحية جديدة ٠

فالانسان الحر حر حتى فى أحلك السجون ظلاما ٠ ومعظم الناس فى حالة اليأس لايملكون الا قليلا من المعرفة ، وارادة أقل فيما يصنعونه لجعل الأمور أفضل بالنسبة لهم ، فهم مقتنعون أن الأشياء لا تتغير وستظل كما هى الى الأبد ٠ وطالما يمتلك الانسان الارادة فسيملك قدرا من التحكم فى ردود فعله ، واستجاباته واستنتاجاته ٠ والى هذا المدى يستطيع أن يتحمل المسئولية عن حياته الشخصية ٠ انه ليس تحت رحمة قوى أكبر منه كلية ، لأنه هو نفسه يصبح قوة هائلة ٠

ولكى يحدث التغيير ، اذن ، فيجب على الانسان أن يثق أنه قادر على التغيير ٠ فاذا لم يكن راضيا عن قدرته على أن يعيش فى الحب ، مثلا ، اذن فيجب أن يواجههذه الحقيقة ولكن على أن يكون مقتنعا بأنه قادر أن يفعل شيئا ازاءها ٠

اذا عرفنا أن المرء قادر دائما على التغيير ، فان الخطوة الثانية تكمن فى صنع قرار التغيير ، فالتغيير لا يحدث بمجرد ارادته كما لا يتغير السلوك ببساطة خلال نفاذ البصيرة ٠ يمكن أن يعرف المرء أن أمرا ما ذميم أو مؤلم

أو خطير ، ومع ذلك يظل يلاحقه بدون هوادة · والمرء لا يستطيع أن يتحرك نحو التغيير ، الا عندما يصل عن ارادة الى قرار بأن يفعل ذلك · فالرجل السمين الذى يريد بتلهف أن يصبح نحيفا وسيما فى ملابس البحر ، لا يمكنه أن يحقق ذلك بالرغبة وحدها · يجب أن يخطط نظام أكل مناسبا ، ويواظب على هذا النظام ، ويأخذ نفسه بالتمرينات الرياضية الصحيحة ، والا ، فرغبته لن تصبح حقيقة واقعة أبدا · ان لديه البصيرة عن كيف يحقق هدفه ، ولكن حتى لحظة العمل فان بصيرته كلها تذهب للعدم ، فالرغبة لاتتحول الى واقع الا بالعمل · **يقول الوجودى :**

ـ « أن تكون هو أن تفعل · والانسان يصبح (انسانا) حقيقيا عندما تحين لحظة العمل » ·

اذا أراد المرء أن يحب ، فمن الجلى اذن ، أن يتحرك الى الحب ·

ان الاستغراق التام فى الحياة

يقدم افضل فصل دراسى لتعلم الحب ·

أما الخطوة الثالثة فى التغيير ، فلعلها أكثر صعوبة · انها تتضمن العمليات الفعلية لاعادة التعلم ، وكل تعلم يتضمن البحث ، والكشف ، والتحليل ، والتقييم ، والتجريب ، والقبول ، والرفض ، والمزاولة ، والتعزيز · **وكثيرا ما يقال ان :**

ـ « الحب هو مكافأة نفسه » ·

فاذا كان هذا يعنى أنك بكونك انسانا محبا تحصل على كل التعزيز الذى تحتاج اليه ـ فهذا صحيح جزئيا فقط · انه يعنى ، أيضا : بما أن المجتمع والانسان لن يبلغا أبدا درجة الكمال ، فان على المرء ـ من حين لآخر ـ أن يدعم نفسه لكى يستمر فى التعلم ويواصل اكتساب ما ينقصه من معرفة · **وعلى المحب أن يقول من آن لآخر :**

ـ اننى أحب لأنى يجب أن أحب ·· ، لأنى أريده · أنا أحب من أجل نفسى ، لا من أجل الآخرين · اننى أحب من أجل ما يكسبنى الحب من مرح وبهجة ، وبشكل عرضى فقط ·· من أجل السرور الذى يكسبه للآخرين ، فاذا دعمونى وآزرونى فسيكون ذلك طيبا · واذا لم يفعلوا ، فسيكون أيضا طيبا ، لأنى أريد أن أحب ·

وكما يحدث فى تعلم كل شيء ، يجب على المرء أن يكون دائما يقظا ، مدققا ، صابرا ، واثقا ، متفتح العقل ، ليس من السهل أن تثبط همته . يجب أن يكون راغبا فى التجريب ، دائبا على التقويم فى مرونة ولطف . ان الحياة ، والخبرة التى يكتسبها المرء من خلال الاستغراق التـام فى المعيشة تقدمان أفضل فصل دراسى لتعلم الحب .

ان أعظم « جورو » (المعلم الروحى عند الهندوس) لا يستطيع أن يعطيك الحب ، وانما يمكنه فقط أن يساعدك بارشـــادك ، وتقديم ثاقب فهمه ، ومقترحاته وتشجيعه ، كما أنك لن تتعلم بمراقبة وتأمل الذين يعيشون الحب ، سوف تتعلم فقط اذا كنت مشاركا فعالا فى الحب .

واذا كان الانسان غير راض ، اذن ، فلابد أن يواجه مواقف المعيشة بالحب ، وهذه قد تكون الخطوة الأولى فى العثور على الحب الذى يتوق اليه . ولكن هذه ليست الا البداية ، على أن يكون لديه أيضا ارادة التغيير وأن يتحرك ليغير ، فالتعلم عملية معقدة مستمرة مدى الحياة ، ولكى تتعلم أن تحب فعليك أن تكون فى تغير دائم ، والعملية لا نهاية لها ، لأن قدرة الانسان الكامنة على الحب غير محدودة .

***

الحب له عوائق كثيرة

« ان احتمال عدم وصول الرســـالة ، لا يعنى أنها لا تستحق الارســـال »

ســـــيجاكى
Segaki

- ٥ -

الحب لن يكون أبدا أمرا هينا ، والانسان الذى قرر أن يعيش فى الحب ستواجهه عوائق كثيرة · ولكنه اذا حلل هذه العوائق بعناية وبذكاء، فمن المحتمل أن يكتشف أنها كلها عقبات مصطنعة ومعظمها من صنعه هو· وقد تكون فى الواقع ، ليس لها أى وجود · فأغلبها ، ببساطة معاذير لعدم قبول تحدى الحب · ان الانسان الذى ينخدع بهذه العقبات انما يدين نفسه الى الأبد ، ليظل أقل بكثير من حقيقته ·

وهناك سبب واضح لأن يلقى الانسان باللوم على عدم قدرته على الحب لعوامل بعيدة عن نفسه ، فهو يمكنه أن يصر ، مثلا ، على أن الآخــرين — أصلا — فاسدون منحرفون وغير قادرين على التغير · ولذلك ، ألا يكون من الحمق أن يحاول تغييرهم والتأثير عليهم بأى شكل ؟ وقد يتهم الانسان بكونه عدوانيا بالطبيعة · اذن ، أفليس قراره بأن يتجنب الاتصـــال بالآخرين حكمة بالغة ، الا اذا كان سفيها ، باحثا عما يضره ؟ وقد يشير الى أن العوائق التى لا نهاية لها ، والتى تقع فى طريق الحب لا يمـــكن تذليلها ، وهكذا كانت دائما على مر التاريخ · أليست محاولته لازالة هذه الحواجز كمثل حشرة تحاول أن تغير مجـــرى نهر كبير ؟ مضيعة للوقت وللطاقة ! وقد يجلس مسترخيا ، وهو على يقين أنه من المحبين ، واثقاً من قدرته على أن يحب وأن يحب · ألن يكون أبله ، اذن ، اذا قامر بأمنه الحالى ، من أجل مستقبل مشكوك فيه ؟

وكثيرا ما يتخفى الانســـان مستريحا وراء هذه التبريرات المدعمة بسهولة طوال حياته كلها · انه لا يرى أبدا علاقتها بعدم قدرته على تكوين علاقات جادة مفيدة أو يستمتع بتجارب ذروة ، وخبرات مهمة ·

واذا كون صورة لشخص على أنه عدواني وشرير ، فمن الحكمـة ألا يكشف عن مكنون نفســـه ، ولايبدى له أى حب ، حتى لايتعرض لأى ضرر·ومن الأسهل والأسلم له أن يجلس وحيدا ـ حتى لو شعر بحافز طبيعي للاتصال بالآخرين ـ من أن يخاطر ويتحاشاه الآخرون · ان أول افتراض له بالطبع ، هو أن الآخرين سيرفضونه ، لأنه من النادر أن يضع فى اعتباره أن أمامه فرصة مساوية فى أنهم سيتقبلونه ·· ولا يبـــــدو ممكنا له أن الشخص الذى على المائدة المجاورة أو فى الحجرة المقابلة قد يكون فى حاجة كبيرة اليه كحاجته هو ، فيؤثر أن يبقى صامتا منعزلا وحيدا ، **ويقول كدفاع اساسى له :**

ـ ماذا لو اقتربت منه وأشاح بوجهه عنى ؟

ونادرا ما يسأل نفسه :

ـ ماذا لو مددت يدى وكان رده : « أرجوك أن تشاركنى ؟ » ·

أذكر أمسية فى مطعم فى سان فرانسسكو حيث كنت مع نخبة من الأصدقاء الطيبين · وكان الحديث مفعما بالحيوية ·· شاركنا جميعا فى ردود أفعال ما قمنا به من لهو وتسلية فى يومنا الرائع ، ووقع نظرى على شاب يجلس بمفرده الى مائدة قريبة ، محملقا فى كوب شرابه الممتلئ الى نصفه ، **فقلت لرفاقى :**

ـ لماذا لا نسأله أن ينضم لنا ؟ انه يبدو وحيدا !

أنا أعرف معنى أن تكون وحيدا فى حجرة مملوءة بالناس ·

وكان اجماع الآخرين :

ـ دعه وشأنه · ربما يريد أن يكون بمفرده ·

ـ هذا جميل ، ولكن اذا سألته ، فسيكون لديه الخيار ·

واقتربت من الشاب ، وسألته ان كان يحب أن يشاركنا ، أم يفضل البقاء بمفرده ، فاشتعلت عيناه بالدهشة ، وقبل الدعوة فى ســـعادة ·

كان زائرا من ألمانيا · وعندما انضم الى مائدتنا أخبرنا أنه قد سافر وجاب الولايات المتحدة بطولها دون أن تتاح له فرصة التحدث مع أحد ، فيما عدا موظفى الفنادق ، ومرشدى السياحة ، والندل (الجرسونات) ، ومن ثم كانت دعوتنا تغييرا رحب به كل الترحيب ·

طبعا ، يجب أن نعترف أن بعض الخطأ كان يقع على الشاب الألمانى ، لأن جزءا من المسئوليـــة يقع على كل واحد منـــا · لنمد يدنا ، ونأخذ المبادرة ، وصحيح انه قد يخيب ظننا ، ولكن محتمل أن نصبح أصدقاء ومحبين فيما بعد ··

اننا نميل الى توقع الشر فى الانسان منا الى توقع الخير ، وما نتوقعه من شر فيه هو الذى يصنع الاعلام الاخبارى ، ومن النادر عكس ذلك ·· واذا خذنا فى الاعتبار تعداد سكان العـالم لوجدنا أن عدد جرائم القتل والسرقة والاغتصاب والجرائم الكبرى قليلة نسبيا · ولكن عندما تقع جريمة فبالتأكيد نسمع عنها ، لا لأنها خبر من الأخبار ، ولكن بالأحـــرى لأنها تروج بيع الصحف ، ويبدو أن الناس تستمتع بالاثارة وتجد المتعة فى ردود الفعل المفاجئة · ولكن أغلب الناس ـ فى الواقع ـ مثلنا · انهم لا يؤذون غيرهم ، أو يسرقونهم أو يقتلونهم ، بمحض اختيـــارهم ، انهم عادة ـ جديرون بالثقة والاهتمام ، وفيهم مودة ، ومعظمهم يعيشون حياتهم بدون التعامل مع الشرطة ، أو المحاكم ، أو المحامين · فأولى بنا أن نأخذ بهذه الحقيقة فى تعاملنا مع الناس ، ومن ناحية أخرى ، فان جانب الشر فيهم ، يضخم كثيرا لأنه يثير الاهتمام لأنه انحراف ، ولكننـــا نتصرف ، غالبا ، وكأن الانحراف هو القاعدة · ولعل أعظم تمجيد للخير فى الانسان يتمثل فيما قدمته **آن فرانك** الفتاة اليهودية التى قضت معظم حياتهـــا القصيرة مختفية من النازيين فى شقة صغيرة فى أمستردام ، وأخيرا لقيت حتفها على أيديهم ، وكانت لاتزال قادرة على **أن تكتب فى مفكرتهـــا قبل قتلها بلحظات :**

ـ « لا يهم · لازلت أؤمن أن الانسان طيب القلب » ·

ان الانسان يتعلم الشر بنفس الطريقة التى يتعلم بهـــا الخير · فلو أنه آمن بعالم الشر ، فسيستجيب بارتياب وبخوف ، وسيبحث دائما عن الشر · وسيعثر بالتأكيد على ما يبحث عنه · أما اذا آمن ـ من جهة أخرى ـ بعالم الخير ، فسيظل واثقا ، ومطمئنا ، متعاطفا ، فسيح الأمل · انك ان تتبين الشر ـ فقط ـ فى هذه الدنيا وتعش فى ظلاله راغبا فيه ـ فانك تضع عقبة أخرى فى سبيل الحب ·

وثمة عائق آخر للحب وهو التبرير بأن هناك قوى كثيرة جدا تحول بين الشخص العاقل وبين الحب · وعلى الرغم من أن الانسان ، بطبيعته مبدع خلاق حيث يبدع فى حياته ، ويضيف الى المعرفة ، فانه غالبا ما يتعلم فى سن مبكرة أن بقاءه ذاته يعتمد على قدرته على الهدم ، فيتصور على أنه دائما تحت رحمة سلسلة من قوى الهدم المهلكة · وأن الهدامين هم أولئك الذين ينجحون فى الحياة · واذن فمن المنطقى ألا يكون لديه باعث قوى لكى يستخدم قوته المبدعة لمحاربة قوى الهــدم ، اذ ليس هنــاك أمل فى الانتصار عليها ·

الحب الحقيقى يبدع دائما ، انه لا يدمر أبدا ·
وفى هذا فقط يكمن رجـــاء الانســـــان ·

والحق ان الانسان ليبدو فى أقصى سعادته عندما يكون خلاقا مبدعا· وأرفع الحالات التى يتحلى فيها الانسان بمقدرته تكمن فى العمل الخلاق · والحب يبدع دائما ، ولا يدمر أبدا · وفى هذا فقط يكمن رجاء الانسان ·

ينهى ثورنتون ويلدر Thornton Wilder ، روايتـــه الفلســفية القصيرة المدهشة ؟ جسر على نهر سان لوى راى ، **بالمقولة التالية :**

ـ هناك أرض للأحياء وأرض للأموات ، والجسر بينهما هو الحب ، الحق الوحيد ، والمنقذ الوحيد ·

واذا تطلع المرء الى غير المحبين وغير المحبوبين فى العالم ، فان المشكلة تبدو متفاقمة تماما ، الى حد أنها غالبا ما تسبب له فقدان الأمل كلية · ولو أنه تدارس الماضى ، لوجد أن الأنانية والجشع والاثم والبلاء كلهـــــا موجــودة منذ بدء التاريخ ولأيقن أن النــاس عاشوا دائما هذه المآسى · وسيظلون دائما ، يشتهون المزيد من الأشياء المختلفة ، ويحاربون فيما بينهم للحصول عليها ، الكاثوليك ضد البروتستانت ضد اليهود ، والشيوعيون ضد الاشتراكيين ضد الرأسماليين ، والأغنياء ضــد الفقراء ضد الطبقة المتوسطة ، والأســود ضد الأبيض ضد الأصفر ، والأكبر ضد الأصغر ، والعبقرى ضد الذكى ضد الجاهل · أما دليله ومســـتنده فيتركز فى أن الأمر كان دائما هكذا ، ومن ثم سيظل دائما كذلك ، وأنه ـ كفــرد ـ عاجز عن تغييره · صحيح أن مشكلات الفقر والجوع والحروب والجهل والتعصب والمخاوف والكراهية تتفاقم فيما بيننا · وهنــاك أفراد قلائل

يملكون القدرة لايقاف التعصب ، والفقر العالمى ، أو الحروب العالمية ، ولكن هذا ليس السؤال · **انما السؤال الوحيد الذى نستطيع أن نوجهه لأنفسنا بحق هو :**

ـ ماذا يمكن أن نفعل ؟

والاجابة ـ عادة ـ بسيطة ومقبولة ، خصوصا اذا كنا نهتم بصدق ، وكنا راغبين فى تحمل المسئولية ·

ذات مرة قابلت لاجئا صينيا شـــابا فى هونج كونج · كان فردا فى أسرة مكونة من أحد عشر شخصا ، وجميعهم كانوا على شفا التضور جوعا ، وعلى الرغم من أنه كان على معـرفة ببعض اللغة الانجليزية فأراد بشغف أن يتعلم قسطا أوفر لكى يحصل على وظيفة طيبة الأجر فى المدينة · وقد أسهمت ببضعة دولارات من أجل الكتب وأدرجته فى جمعية المتحدثين باللغة الانجليزية ، بما مكنه من أن يجد الوسيلة فى جعل أسرته من الأسر ذات النفع · وقد صمم على أن يعيد الى عند التخـــرج ما كنت دفعتـه ، فرفضت ، وطلبت منه أن يبحث عن شاب آخر ، يشبهه ، ويقدم له فرصة مماثلة فأرسلنا ، الى الآن ، ثلاثة شبان للدراسة ·

اننى لم أحل ، بهذه الطريقة ، مشكلة اللاجئين فى هونج كونج ، ولكنى ساعدت ثلاث أسر على الحياة · ولو أن كل شخص أخذ على عاتقه مسئولية صغيرة ، لأصبحت الأمور فى حالة أفضل · ان المساعدة من خلال نظم خيرية كبيرة تعتبر شيئا عظيما ، ولكنهـــا تفتقد القيمـة الشخصية والفرحة والرضا فى ادراك وتجربة النتائج · ان الأمور يمكن أن تتغير · ولا شىء متعذر تعديله · ربما لا أستطيع بصفة شخصية أن أفعـل الكثير بخصوص معدل وفيات الأطفال أو مشكلات المسنين ، ولكن قد أخصص جزءا من وقتى لأجعل يوم طفل ، أو الأيام المتبقية لأحد المسنين على الأرض أكثر ســــعادة ·

والمعرفة القليلة بالحب · والاكتفاء بذلك تعتبران عائقان أيضا للنمو واذا وجد الانســـان أن هنـــاك بعض من يحبونه فى حيـــاته وأنه قادر على أن يحبهم بدوره ، فانه يفترض أن هذا هو كل ما يحتاج الى معرفته عن الحب أو كل ما يتوقع أن يجده · وماذا يمكن أيضا أن يكون ؟

انه لا يتوقع أن الحب لا محدود ، عميق ، لا متناه وأن القوة الكامنة لمزيد من الأمن ، والبهجة والنمو تتأتى منه · انه لا يفكر فى أنه من المحتمل أن يكون هناك ، فى مكان آخر وفى هذه اللحظة ، شخص ما فى حاجـة

لحبه • وقد يتطلب الأمر غالبا صدمة عاطفية حادة لايقاظ الانسان من حالته السباتية •

فلنفترض أن له زوجة يحبها وتحبه ، وحياتهما الزوجية مستقرة ، ولهما طفلان ينموان على صورته ، وبيت ذو جدران حصينة ، وأقفال ضخمة لحمايته من العالم الخارجي ، ووظيفة طيبة ، وقدر من المال في المصرف لتأمين مستقبله ، أو بالأحرى لديه كل شيء • ولكن ماذا يحدث ــ كما في قصة أيوب (١) ــ اذا توالت المحن من فوقه ؟ فولداه ينحــرفان ويلحقان بجماعة هيبية ، وزوجته تصاحب عشيقا ، ويفقد وظيفته ، وجدرانه تنقض، والمصرف ينهار • ستكون أمامه عدة اختيارات : يحاول أن يجد نفس الحياة مرة أخرى ، وهذا مستحيل • فالانسان لا يستطيع أن يعيش ثانية أي شيء أبدا ، لأنه سيظل دائما ــ في أفضل الظروف ــ مجرد نسخة رديئة من الأصل • يجنح للجنون أو ينهي حياته • أيصبح مكلوما ويعيش بلا ثقة أو أمل أو اكتراث ؟ أو يكون له الاختيار ليتعلم من صدمته ، وينمو اثر التجربة ويبدأ من جديد ، بمعـــــرفة جديدة وأمل جديد ، واحتمالات وبدائل جديدة ؟

عندما يواجه الانسان التغيير ، فانه غالبا ما يستخدم الاعتذار ويتعلل بأنه كبر على التغيير ، وكبر على التعلم • ويقول :

ــ لا يمكنك أن تعلم الكلب المسن حيلا جديدة (٢) •

هذه المقارنة ــ عندما توجه الى الانسان ،فانها تهبط بمستواه ، كما أنها غير صحيح •• فحتى « الكلب المسن « يمكن أن يتعلم حيلا جديدة •

ان السبب الحقيقي هو أنه يعوزه الحافز ، أو ــ ببساطة ــ شديد الكسل ويميل الى الخمول•ان مقدرة الانسان على التعلم ستكون دائما أعظم من مقدرة هذا « الكلب المسن » وفي المقارنة بينهما حط من القوة ذاتها التي تجعل الكلب كلبا وتصنع من الانسان انسانا يتسم بالانسانية •

في كل يوم تتاح لنا وسائل جــديدة للتعلم ، والنمو في الحب • وكل يوم نصبح فيه أدق ملاحظة ، وأكثر مرونة ، وأوسع اطلاعا ، وأعظم وعيا ، فاننا ننمو في الحب • بل ان ما يبدو ظاهريا أتفه الأشياء ، يمكن

---

(١) قصة الرجل الصالح الذي انتصر بايمانه بربه على اختيــار المحن المتوالية ومعنى أيوب بالعبرية « مضطهد » ــ (المترجم) •

(٢) المثل المصري العامي يقول :

« بعد ما شاب ، أخذوه الى الكتـــاب » • (المترجم) •

أن يقربنا من أنفسنا ، وبالتــالى للآخرين ولو أننا فى كل لحظة أنصتنا وتعلمنا ٠٠ لأخبرتنا صرخات طيور النورس على شاطىء عاصف مهجور بالكثير عن الحياة ، وعن الأحياء والأموات ، مثــــل ما تخبرنا المأساة التى تدمر بيتنا وأحبابنا ٠ وكما يقول **الهايكى (١) اليابانى :**

ــ أما وقد احترقت صومعة غلالى ،

حتى سويت بالأرض ٠

فانى أستطيع الآن أن أرى القمر ٠

ان هناك تبصرا ومعرفة واكتشافا فى الصومعة ، كما فى القمــر ٠ والآن ، أصبح المزارع يعرف ما فى كليهما ٠

ان المرء لا ينبغى مطلقا أن يقنع بقدرته على الحب ٠ ولا يهم أين هو منه ، فما هى دائما الا البداية ٠

وأخيرا ، فثمة عائق كبير للحب كائن فى أى شخص يخشى التغيير ، لأن كلا من النمو والتعلم والتجربة ــ كما ذكر آنفا ــ تغيير ٠ ان التغيير حتمى ٠ هناك شىء واحد فقط يمكنك أن تكون متأكدا منه وهو التغيير ٠ ومن ينكر التغيير ، فانما ينكر الحقيقة المفردة الوحيدة فى الحياة ٠ ان الاتجاهات تتغير ، والأحاسيس تتغير ، والرغبات تتغير ، والحب بصفة خاصة ، يتغير ٠ ليس هناك ما يوقفه ولا ما يصده ويسترجعه ، دائما هناك ــ فقط ــ من يسايره ويمشى معه ٠

وهناك حكاية هندية ، عن رجل فى زورق صغير يجدف ضد التيار ، فى نهر هادر ٠ وبعد معركة رهيبة مع التيار ، يكتشف أخيرا أن المجهود غير ذى جدوى ، ولذلك يستسلم ، ويرفع مجدافيه الى أعلى ويبدأ يغنى ٠

ان اللحظة علمته طريقة جديدة للحيــاة ، حينما ينساب مع النهر المتغير الدافق ، حينئذ فقط ــ أصبح حرا حقا ٠

ان عوائق الحب من صنع الانسان ٠ فالحب لن يحول دونه شىء ٠ الحب يفيض مثل النهر ، هو نفسه دائما ، ومع ذلك فهو متغير الى الأبد ، ولا يعترف بأى عائق ٠

***

---

(١) الشعر اليابانى فيه ثلاثة أنواع : هايكى ، ونجا أوتا ، وتانكا ــ (المترجم) ٠ انظر « مختارات من الأدب اليابانى ــ سلسلة الألف كتاب ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ المترجم ٠

لـكى تحب الآخـرين
يجب أن تحب نفسـك أولا

« **نحن فى النهاية واحد ، وعلى كل ، أنت وأنا ، معا نعانى ومعا نعيش ، والى الأبد سوف يبعث كل منا الآخر** » ٠

تيلهارد دى شاردان
Teilhard de Chardin

ـ ٦ ـ

لكى تحب الآخرين يجب أن تحب نفسك ٠ لقد ذكرنا من قبل مرات عديدة أنك تستطيع أن تعطى الآخرين ما تمتلكه أنت نفسك فقط ٠ وهذا صحيح بصفة خاصة عن الحب ٠ فأنت لا تستطيع أن تعطى ما لم تتعلمه وتخبره ، بما أن الحب ليس شيئا ، فانه لا يفقد عندما يعطى ، ويمكنك تقديم حبك الى مئات من الناس وتظل تحتفظ بنفس الحب ، الذى لديك أصلا ٠ انه مثل المعرفة ، فالرجل الحكيم يستطيع تدريس كل ما يعرفه ، وعندما ينتهى سيظل يعرف كل ما قد درسه ٠ لكن أولا ، يجب أن تكون عنده المعرفة ، ومن الأفضل أن نقول ان الانسان « يشارك » فى الحب ، كما « يشارك » فى المعرفة ، ولكنه لا يستطيع أن يشارك الا فيما يمتلكه ٠

ان حب الانسان لنفسه لا يعنى حقيقة التمركز حول الذات مثل الساحرة العجوز فى « ثلجية البياض » Snow White ، التى استخفها الطرب وهى **تتطلع فى مرآتها سائلة :**

ـ مرآتى ، مرآتى من هى أجمل من فى الدنيا ؟

ان حب الشخص لنفسه يعنى اهتماما أصيلا ورعاية وتعلقا واحتراما للنفس ٠ ورعاية النفس هى أساس للحب ٠ فالانسان يحب نفسه عندما

يرى نفسه بدقة ، ويقدر ما يراه بشكل خال من الرياء أو الغرور ، ولكنه يثار ، ويحس بالتحدى ، حينما يتطلع الى ما يمكن أن يبلغه ، فيخطو نحو تحقيقه ٠

وكل انسان فريد فى ذاته ، لا مثيل له ، فالطبيعة تمقت التماثل ٠ وكل زهرة فى الحقل تختلف عن غيرها ٠ وكذلك كل عود من العشب ٠ هل رأيت قط وردتين متماثلتين ؟ حتى من بين نفس النوع الواحد ؟ هل رأيت وجهين متطابقين تماما ، حتى فى التوءم ؟ بصمات أصابعنا هى بصماتنا المتفردة ، حتى انها تدل علينا بشكل قاطع ٠ ولكن الانسان مخلوق غريب فالاختلاف يخيفه ، وبدلا من تقبل ما فى التنوع من تحد وبهجة وعجب ، فهو عادة يرتعب منه ٠ فهو اما أن يبتعد عنه واما أن يحاول أن يلوى التفرد ويحوله الى تطابق ، وعندئذ فقط يشعر فعلا بالأمان ٠

كل مولود هو مخلوق بلا نظير ، توليفة جديدة من العجب ٠٠ ويتشابه تشريحه البشرى بصفة عامة مع الآخرين ، ولكن على مستوى دقيق ، تختلف كيفية قيام الجهاز البنيوى بوظائفه من فرد لآخر ٠٠ ويبدو أن تطور شخصيته له عناصر عامة تؤثر فيه ، وكذلك يتأثر بعوامل الوراثة والبيئة والصدفة ٠ ولكن هناك بالتأكيد عنصرا اضافيا ـ لم يحدد علميا بعد ـ يمكن أن نسميه عامل الشخصية المجهول ٠٠٠ توليفة القوى الخاصة التى تؤثر على الفرد وتعمل فيه ، ومن ثم يستجيب ويدرك ، بطريقته الخاصة هو وحده ٠ ان الطفل متفرد ، ولكن معظم التعلم الذى يحصل عليه منذ مولده ، لن يمكنه من الحرية ليكتشف ، ويطور هذا التفرد ٠

وكما أشرنا سابقا ، فان المهمة الحقيقية لتربية الطفل يجب أن تكون عملية مساعدته لاكتشاف تفرده والأخذ بيده نحو تطويره ، وتعليمه كيف يشارك فيه مع الآخرين ٠

ومع ذلك ، فالتربية هى « فرض » ما يسمى « الحقيقة » على الطفل ٠ والمجتمع ، من جهة أخرى ، ينبغى أن يكون المجال الذى يشارك الطفل تفرده ٠ لأنه فى حاجة ملحة لطرق جديدة لمعيشة الفرد والجماعة ٠ ولكن المجتمع يدين بفكرة أن ما ظل على مدى قرون ، حتى لو لم تثبت صحته ، هو أفضل طريق ٠ وهذه المغالطة ـ اذا تمسك بها مجتمع ما ـ فانها ستقود الفردية الى حتفها ٠

كل طفل يقدم أملا جديدا للحياة ، ولكن هذه الفكرة تخيف معظم الناس بشكل واضح . ماذا سيكون شكل المجتمع اذا كان مؤلفـا من « أفراد متفردين ؟ » **ألن يصبح جامحا ويؤدى الى الفوضى ؟** اننا نتراجع فرقا عند هذه الفكرة . اننا نشعر بارتياح أكثر مع « الغالبية الصامتة » . **اننا لا نثق ، بل ونرتاب فى « غريبى الأطوار »** . **ونطالب الأسرة أن تجعل** الطفل « يتلاءم » مع الخطة المجتمعية للأشياء ، وتؤدى التربيـــة دورا مشابها ، وانها لتبلغ أوج نجاحها عندما تحافظ على الوضع الراهن ، عندما تصنع ما نسميه **« المواطنون الصالحون »** ، **ويعرف المواطن الصالح** « عادة بأنه الذى « يفكر ويسلك ويستجيب مثل أى شخص آخر » . ويشعر التربويون أيضا أن هناك كما جوهريا من المعرفة . وأن واجبهم هو أن يغرسوا هذا الكم فى كل طفل . أما دفاعهم عن هـذا فهو أنهم يدرسون « حكمة الأزمان » .

ان حبك لنفسك ، هو أن تناضل لكى تعيد اكتشاف تفردك ، وأن تصونه وتحافظ عليه . انه يعنى فهم وتقدير فكرة أنك سوف تكون « أنت » الوحيد مدى حياتك على هذه الأرض ، وأنك عندما تموت سوف تموت معك كل امكاناتك الرائعة . انه يعنى الوثوق من أنه ـ حتى أنت نفسك ـ **لا يمكن أن تدرك تماما العجائب التى ترقد كامنة داخل نفسك** ، **يقول هيربرت أوتو** ان حوالى ٥٪ فقط من قدراتنـا الانسانية الكامنة هى التى تتحقق فى فترة حياتنا . **ولقد افترضت مارجريت ميد Margaret Mead** أن نسبة ٤٪ فقط هى التى تم اكتشافها . وماذا عن ال ٩٥٪ الأخرى ؟

ولقد كتب عالم الطب النفسى **ر . د . لاينج ـ R. D. Laing** **يقول :**

ـ نحن نفكر أقل كثيرا مما نعرف ، ونعرف أقل كثيرا مما نحب ، ونحب أقل كثيرا مما هو موجود ، والى هذا المدى المحدد فنحن أقل بكثير مما يجب أن نكون .

هناك « أنت » آخـر ، يرقد كامنـا فيك . انه كامن فى داخلك ينتظر أن يتحقق . ولا يهم ما اذا كنت تتمتع بنسبة ذكاء تبلغ ٦٠ أو ١٦٠ ، فالواقع أن هناك شيئا من « أنت » .. أكثر مما تعيه حاليا . ربما كان السلام والبهجة الوحيدان فى الحياة يكمنان فى ملاحظة وتطوير هذه القوة الكامنة . ومن المشكوك فيه أن الانسان سوف يحقق كل « ذاته » فى فترة الحياة حتى لو كرس كل لحظة من لحظاته لذلك .

وهذا ما جعل **جوته** ـ Goethe **يحث فاوست** ـ Faust على أن يكتشف هذا عندما **يقول** :

ـ لو استطعت أن أجد على هذه الأرض لحظة سلام واحدة ، اذن لقلت لها : **« تريثى وابقى فى مكانك قليلا ، انك غاية فى الجمال ! »** ، وان ارتاح من بحثه حتى للحظة وجيزة ، فهو يلاطف الشيطان ، لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلام فى صراع الانسان الدائب من أجل المواءمة · وتحقيق الذات · ان تعاليم القديس يوحنا تقول لنا ان منزلنا فيه حجرات كثيرة ، لكل منها عجائبها الخاصة بها لتبديه للعيان ، فكيف نرضى بأن ندع العناكب ، والجرذان ، والعفن والموت تتغلغل وتسكن فى منزلنا ؟

كل ما يمكن أن يكون ، يحتمل دائما اكتشافه · والوقت ليس متأخرا أبدا ، وهذه المعرفة ينبغى أن تقدم للانسان أعظم تحدياته ـ ملاحقة النفس الأوديسية الشخصية الخاصة به ، اكتشاف حجراته وترتيبها ، لتؤازره فى أعظم تحدياته ليس فقط لكى يكون شخصا خيرا ، شخصا محبا ، شخصا حنونا ، شخصا ذكيا ، ولكن ·· لكى يكون الأفضل ··· ليكون أعظم الناس حبا وحنانا وذكاء على قدر استطاعته · ان بحثه ليس على سبيل التنافس مع أى شخص آخر ، انه تحديه الشخصى الخاص به ·

الحب والذات هما واحد واكتشاف أى منهما انما هو تحقيق لكليهما ·

وهكذا ، فان حبك لنفسك يتضمن اكتشاف العجيبة الحقيقية لك أنت ··· ليس فقط أنت الحالى ، ولكن بامكاناتك الكثيرة الخفية · انه يتضمن التحقق المستمر من أنك متفرد ، لا تشبه أى شخص آخر فى العالم ، وأن الحياة هى ـ أو يجب أن تكون ـ الاكتشاف والتطور والمشاركة فى هذا التفرد · ان العملية ليست سهلة دائما ، لأن الانسان لن يسلم من أولئك الذين سيشعرون أنهم مهددون بذاتك المتغيرة المتطورة · ولكنه سوف يكون دائما مثيرا ، ودائما متجددا ـ وكمثل كل الأشياء الجديدة والمتغيرة ـ لن يكون كئيبا أبدا · ان رحلة الانسان داخل نفسه ، هى الأكثر جلالا ، والأعظم متعة ، والأطول دواما · وأجر الرحلة زهيد ، فقط لا يتطلب سوى الخبرة ، والتقويم ، والتعليم المستمر ، وتجربة سلوك جديد · وأنت وحدك الحكم الأخير فى تحديد ما هو خير لك ·

ان الثقافة الغربية كانت دائما ثقافة متنافسين . وقيمة الانسان تقاس دائما بقدر زيادة ما يملك عما يملك غيره من الناس . فاذا كان يملك بيتا أكبر ، وسيارة أقوى وتعليما رسميا أكثر تأثيرا ، فلابد أنه انسان أفضل . ولكن هذه ليست قيما عالمية ، فهناك ثقافات تتوجه بأعلى تقديرها لرجل الدين ، والعـلم ، الذى أنفق عمره فى اكتشاف ذاته ، ولا يملك قيمة نقدية يتباهى بها. وهناك ثقافات تضفى القيمة على الابتهاج، وراحة البال ، أكثر مما تضفيها على الملكية ، والعمل . وهذه الثقافات تفترض أنه طالما أن الناس جميعا يحق عليهم الموت سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ، فالهدف الحقيقى الوحيد للحياة هو ، ما فيها من بهجة حاضرة ، وتحقيق الذات فى هذه البهجة ، وليس فى تجميع الأشياء المادية وهناك على أرضـنا حيث أعطت الطبيعة فيها هذا الدرس — وهى مستمرة فى اعطائه — بشدة بالغة — اذ ما الخير فى تكديس المقتنيات أو تشييد القصور الفسيحة عند سفح جبل ايتنا (١) ؟ وما الهدف من المساكن الدائمة حيث تهب رياح المونسون سنويا ، وتكتسح كل شىء ما عدا الناس والأرض الخراب ؟ .

عندما يملك الانسان الحب لا يصبح تحت رحمة قوى أكبر منه ، لأنه هو نفسه يصبح القـــوة الطاغيـــة .

لقد أدت الثلاثينات من هذا القرن ، الى أن يتجـه الكثيرون فى الولايات المتحدة الى أن ينظروا للقيم بعمق . وقد حدث ذلك بعد انهيار السوق بأولئك الذين كدسوا أموالهم فى « أشياء » فانهاروا معها الى حد الانتحار . أما الآخرون الذين وضعوا أملهم فى أنفسهم ، **فقد تنهدوا قائلين ، كما قال واحد منهم :**

— لقد فعلتها مرة . ويمكننى أن أفعلها مرة أخرى .

وذهبوا منطلقين ليعيدوا الكرة من جديد . ان حبك لنفسك يعنى أنك تقدر قيمتك أنت ، فوق كل شىء آخر .

كما يعنى حب نفسك أيضا المعرفة بانك أنت فقط يمكنك أن تكون أنت . واذا حاولتَ أن تشبه أى شخص آخر ، فقد تقترب كثيرا ، ولكنك

---

(١) أعلى بركان نشط فى أوربا ، شرق جزيرة صقلية — (المترجم) .

ستكون دائما أفضل ثانى اثنين · ولكن ، أنت أفضل أنت — بنفسك — الأفضل · ان ذلك هو الأيسر ، وهو الأعظم من الناحية العملية ، كما أنه الأعظم من حيث النتائج · اذن فمن المنطقى أن تكون بالنسبة للآخرين ، تماما كما أنت بالنسبة لنفسك ·

واذا عرفت ، وتقبلت ، وقدرت نفسك وتفردك ، فسوف تسمح للآخرين أن ينهجوا نهجك · اذا عرفت قيمة اكتشافك لذاتك ، وقدرته حق قدره ، فسوف تشجع الآخرين أن ينشغلوا باكتشاف أنفسهم · واذا أدركت حاجتك لتكون حرا فى اكتشاف من تكون ، فسوف تسمح للآخرين بحريتهم فى أن يفعلوا مثل ما فعلت وعندما تدرك أنك أفضل ال « أنت » ، فسوف تتقبل حقيقة أن الآخرين أفضل ال « هم » ، ولكن يتبع ذلك أن كل شىء يبدأ بك أنت · ويمكنك أن تعرف الآخرين حتى تعرف نفسك ، اذ أننا جميعا متشابهون أكثر مما نحن مختلفون ، وعندما تحب نفسك ، فانك سوف تحب الآخرين · وبقدر العمق والمدى اللذين تستطيع بهما أن تحب نفسك ، سوف تستطيع أن تحب الآخرين ··· بنفس العمق وبنفس المدى فحسب ·

***

لــــكى تحــب
يجب أن تحرر نفسك من الشعارات

« ان لدى الانسان صورة مستقرة جميلة للعــالم ، مطبوعة فيه مصادفة أو عنوة عن طريق سلسلة ارتباطات مشروطة ٠ ويؤمن الانسان بأن لوحته المطبوعة هى الواقع الحقيقى » ٠

تيموثى لــيرى
Timothy Leory

ناقشنا فى فصل سابق أهمية الكلمات فى عملية تعلم الحب ، وذكرنا أن الكلمات تسببت فى بصمة دائمة ، حقيقية متجمدة ، من خلالها يصفى كل تعلم وادراك حسى مستقبلى ٠ وهذه التصفية هى عقبة كبيرة فى سبيل الحب ، فاذا كان تعلمك سببا فى رد فعل تجنبى للسود أو اليهود أو المكسيكيين أو ، أولئك الذين تختلف سلوكياتهم وأزياؤهم عن سلوكياتك وزيك ، اذن فان احتمالات حبك لهؤلاء الآدميين ستنخفض للحد الأدنى ٠

لقد ابتدع الانسان الكلمات ليحرر نفسه ٠ ابتدع اللغة لكى يستطيع الاتصال بالآخرين ، ويسمح لهم أن يفعلوا نفس الشىء ٠ واصطنع الكلمات لتكون عونا له فى تنظيم ، وتسجيل حكمة الماضى ، وأحلام المستقبل ، ووجد أن الكلمات ساعدته فى تنظيم بيئته ، ولكن أهم شىء ، أنه استخدم الكلمات ليفكر بها ويبدع ٠ وطور اللغة ليحرر نفسه ، ولم يتصور قط أنه قد يصبح عبدا للغة ٠ لقد وجد أن النعوت والشعارات ذاتها التى انشأها لمجرد الدلالة على شىء ما سرعان ما بلغت من القوة ما جعلها تصبح هى الشىء ذاته ، وبدأ الانسان يتصرف وكأن الكلمة هى الشىء ٠ وافترض الانسان ، والأسماء فى يده ، أنه قد امتلك « الشىء » فى يده ٠ ولذلك ، استدل على أنه يستطيع توصيله للآخرين ببساطة ــ باستعمال الشعار ٠

فعندما يتحدث عن الرجل الفرنسى ، يفترض أن كل الناس لديهم نفس الصورة الثابتة عن الرجل الفرنسى الذى فى مخيلته • وهذا ، بالطبع ، غير صحيح • وهكذا تبدأ قدرته على الاتصال تنهار • لقد خدع الشعار الانسان ليصبح عبده ، وباعد بينه وبين الآخرين • ولم يتوقف قط ليسأل مثلا : مـاذا فهم هو أو الآخرون بالفعل عن فـرد آخـر عندما نعتـه ب « شيوعى » ، « كاثوليكى » ، « جمهورى » ، « يهودى » • انه لم يعبأ بأن ما اذا كان « الشيوعى » أبا طيبا أيضا ، رجلا ألمعيا ، مدرسا مخلصا ، انسانا خيرا ، محبا حنونا ، داعية للسلام ، حالما أو مبدعا • لقد كانت المثيرات السلبية التى أنتجتها كلمة « شيوعى » كافية لتقنعه أنه يستطيع أن « يكره » الفرد كانسان • وهكذا مضت الأمور •

عندما كنت طفلا ، كان من الذائع تسمية الايطاليين بأسماء مثل « داجو » و « روب » • ثم انتقلنا الى منطقة لم تعش بين قاطنيها أية أسرة ايطالية من قبل • وفى الحال بدأ الشعار يعمل عمله •

ـ جماعة الداجو كلهم أعضاء فى المافيا •

ـ وجود داجو فى المنطقة سـوف يؤدى الى هبوط قيمة الملكيـة العقارية •

ـ السـلام فى المنطقة قد ولى • جماعة الداجو أناس صـاخبون انفعاليون •

وتجاهلونا لعدة شهور ، على الرغم من أننا حاولنا أن نكسر الحواجز ، لكنهم نحونا جانبا ، وصنفونا • وتسبب **المعنى الضمنى** Connotation للفظة « داجو » أن يجعل جيراننا يعتقدون أنهم يعرفوننا ، وأصـبحوا يشعرون بالارتياح لرفضهم لنا •

وكان ما لم يعرفوه عنا أعظم بكثير ، وأكثر دلالة مما كانوا يعرفونه • لم يكونوا يعرفون أن ماما كانت مغنية ، وأن منزلنا كان دائمـا يعج بالموسيقا ، والنغم •

وكان لماما ، أيضا ، سر عظيم فى معلوماتها الطبية ، وحينما كانت طبيبتنا لم يمرض أحد من العائلة قط • وكان علاجها يتكون أساسا من دواءين رئيسين « الثوم » ، الذى كان شافيا عاما للاستعمال اليومى ،

و « البولنتا » وهى عصيدة حارة ملتهبة تصنع من دقيق الذرة والماء ، وتوضع حارة ببخارها على صدورنا عندما تخفق العقاقير الأخرى ، وكان الثوم يربط مفروكا ونيئا — فى منديل صغير حول أعناقنا كل صباح قبل المدرسة · والغريب تماما ، أننا لم نكن نمرض قط · (لقد كشفت عن نظرية فى هذا · فالثوم النيىء حول رقابنا أدى الى ألا يقترب أحـد منا فينقل الينا الجراثيم) أما العصيدة فقد فعلت المعجزات ، على الرغم من أننى لم أستطع قط أن أتوصـل الى القيمة العلاجية التى فيها · وربما كانت تكمن فى ادراكنا لحقيقة أنه مهما كان المرض فستتضاءل آلامه اذا ما قورنت بحروق الدرجة الثانية التى تتركها وجبة الذرة الحارة الملتهبة فوق جلدنا ·

كانت هذه أسبابا كافية لكيلا يتجنبنا الجيران · فأى علاج طبى كان يمكنهم أن يشاركونا فيه أفضل من ذلك ؟ وهذه الألحان ، والأوبرات ، التى تؤدى بمنتهى الروعة ، لن تتهيأ لهم فرصة لسماعها أبدا ···

وكان أبى يصنع شرابا يليق بالمذبح البابوى · كما كان أيضا يسعى الى نمو مستمر فى تعليمنا جميعا ·· وكان سؤاله المفضل ، الذى يوجهه لكل منا بعد كل وجبة هو :

— حسن ، ما الشىء الجديد الذى تعلمته اليوم ؟

وكان شغوفا دائما بأن يتعلم ، وكان دائب الاهتمام بتعليم نفسه ·

كنا نعتقد أن شرابه رائع · والواقع أننى قد فطمت عليه · ولم تكن الممارسة فى مشاطرة المعارف الجديدة بمثل هذا الاغراء ، فعندما يكون معنا على مائدة العشاء ، ترى الأسرة منهمكة فى تقليب صـفحات دائرة المعارف باحثة عن شىء جديد لتعلمه لبابا ، بينما هو مستند بظهره للخلف ، يبرم شاربه ويرتشف شرابه · لقد فقد جيراننا المتباعدون هذا التبادل الفكرى ، ولكى يستطيع المرء أن يحب ، يجب أن يتحكم فى لغويات البيئة المحيطة به ، « ازالة تجمد » كل التصورات السابقة التى جلبتها فخـاخ الكلمـات القديمة · لقد قيل ان **بكمنستر فوللر** Buchminster Fuller كان مهتما كل الاهتمام بتحكم الكلمات فيه حتى انه قضى سنتين، فى شـبه عزلة ، دارسـا ماذا كانت تعنى الكلمات له بصـفة خاصة ، ولم يشعر بالتحرر بالقدر الكافى من فخاخ اللغة الا بعد انقضاء السنتين ،

حيث أصبح قادرا على استخدام اللغة كوسيط لتقريب الأشياء بدلا من أن تدفعه بعيدا عنها ··· قادرا على اتخاذ اللغة أداة له ·

لقد أصبح أثر اللغة على الشخصية الآن هو علم النفس اللغوى · وعالم النفس اللغوى يبين مرارا وتكرارا كيف تؤثر اللغة على السلوك · وهناك هؤلاء الذين خلقوا بيئة لغوية ايجابية ، فكلماتهم سارة ، مبهجة ، عاكســـة للجمال ، داعمة للخير · وثمة آخرون تتحكم فيهم الكلمـات السلبية ، فحياتهم مصنوعة من كلمات صلبة ، كلمات كاوية ، تعوزها الحيوية ، كئيبة ، مملة ، بغيضة ، خالية من المرح ، داعمة لما هو سلبى·

ربما كانت أعظم كلمة ايجابية فى اللغة ، والتى تؤدى الى النمو المستمر فى الحب هى كلمة « نعم » · « نعم » هى أفضل « مزيل للتجمد » ···· نعنى الرموز والأفكار المتجمدة · يقول المحب « نعم » للحياة ، « نعم » للبهجة ، « نعم » للمعرفة « نعم » للناس ، « نعم » للاختلافات · انه يدرك أن كل الأشياء ، وكل الناس فى حوزتهم شىء ما يقدمونه له ، وأن كل الأشياء موجودة فى كل الأشياء · واذا كانت « نعم » مهددة أكثر من اللازم ، فليستعمل « ربما » ·

اذا رغب الانسان فى أن يكون محبـــا
فعليه أن يستهل الحب بكلمة « نعم »

أما أن تقول « لا » لشىء ما ، يعنى أن تستبعده ، وأن تستبعده يعنى أن تغلق عليه ، وتقطع عليه خط الرجعة ، ربما الى الأبد ·

ان **جيمس جويس ــ** James Joyce فى عمله الرائع ، **يوليسيس ــ** Ulysses ينهى الكتاب بأعظم تأكيد فى الأدب عندما جعل **مولى ــ** Molly تكتب متلهفة عدة صفحات من « النعمات » ··· « نعم » · نعم · نعم !

ولقد كتب **داج هامرشولد ــ** Hammarskjold ، فى مذكراته الشخصية الرائعة ــ علامات ــ Markings **يقول :**

ــ لا أدرى من ··· أو لماذا ···· وجه السؤال ، ولا أدرى متى قد وجه ، بل انى لا أذكر الاجابة · ولكن فى لحظة ما أجبت « نعم » لشخص ما أو لأمر ما ، ومنذ تلك الساعة أيقنت أن للوجود معنى ، وأن حياتى ، لذلك ، فى الاستسلام المطلق ، لديها هدف ·

اذا رغب الانسان أن يكون محبا ، فعليه أن يستهل الحب بكلمة « نعم » ويمكنه أن يفعل هذا بالنظر باهتمـــام وباتزان للكلمـات التى يستخدمها عنـدما يتحدث الى زوجته أو أطفاله ، الى رئيسه وزملائه فى العمل ، الى جيرانه وأصدقائه الحميمين ، الى العاملات والعاملين الذين يلتقى بهم فى معاملاته اليومية .

ذلك لأن الكلمات التى تستخدمها تخبرك عمن تكون ، وعما شاهدت ، وعما تعلمت وكيف تعلمته . ذلك لأنك أنت كلماتك ، ويمكنها أن تكون خطوة واسعة مهمة ، فى الطريق لاكتشاف الحب .

***

الحب يتضمن المسـئولية

« حيث يكون واجبـا أن تحب ، عندئذ فقط ، يكون الحب أبديا ومكفولا بالسعادة ضد اليأس » ٠

كيركيجارد
Kierkegaard

- ٨ -

قبل ما يستطيع الانسان أن يحب كل الناس أو أى انسان آخر تكون مسئوليته الأولى فى الحب ، وستظل دائما ، نحو نفسه هو ٠

ان ما جاء فى الانجيل :

ـ أحبب جارك حبك لنفسك ٠

يفترض مقدما حب الذات ، ويقرر أن الانسـان يجب أن يحب الآخرين ، الى المدى الذى يحب فيه نفسه ٠ ولقد ناقشنا من قبل حب الذات فى فصل سابق ٠ وبحسبنا أن نقول الآن انه بقدر العمق ، وبقدر المدى الذى يذهب اليه فى شعوره بالمسئولية للنمو فى حب الذات ، يكون عمق ومدى هذا الشعور نحو مساعدة الآخرين فى أن يفعلوا نفس الشيء ٠

ان كل الناس مرتبطون ومترابطون الى مدى ، قد يكون صغيرا أو كبيرا ، وكل انسان اذا تقرب الى نفسه بشكل ما ، فانه يتقرب الى غيره من الناس ٠

كان **البرت شفايتزر** ـ Albert Schweitzer ، يكرر القول بأنه طالما وجد رجل فى العالم جائع أو مريض أو وحيد أو يعيش فى خوف ،

فهو مسئوليته ، ولقد أكد ذلك بأنه عاش حياته بهذا الايمان ، حياة النظام الأعلى ، والانجاز الأسمى ، والمرح الأعظم ، والجلال الأرفع ، ومن ثم ، الحب الأعلى شموخا ٠

ان المجتمع لم ينتج الكثيرين من أمثال شفايتزر ، ولكننا جميعا نعرف ونتقبل بعض المستوى من المسئولية لأنفسنا وللآخرين ٠

والحقيقة هى ، أن تكون انسانا يعنى أن تكون مسئولا ٠٠٠

ويجد أناس كثيرون صعوبة فى تحمل مسئولية كاملة حتى نحو أنفسهم ، فما بالك اذا كانت نحو فرد آخر ، أو مجموعة من الأفراد ، لذلك فان فكرة كونك مسئولا عن « أسرة الانســـان » تبدو لهم أمرا لا يصدق ، وغير واقعى ، وهراء مثاليا ٠٠٠

وعندما يكون الحب مسئولا بصدق ، فمن واجب المرء أن يحب كل الناس ، وليس ثمة خيار للانسان الا أن يتقبل هذا الواجب ، لأنه اذا لم يفعل ، فسوف يجد أن البدائل هى الوحدة والهلاك واليأس ٠ ان تحمله هذه المسئولية يعنى ـ بالنسبة له ـ أن يصبح منغمسا فى النشوة ، وفى الغموض ، وفى النمو ، ولكى يكرس نفسه لعملية مساعدة الآخرين لتحقيق حبهم من خلاله ٠ وببساطة ، يمكن القول : أن تكون مسئولا فى الحب يعنى أن تساعد أناسا آخرين على أن يحبوا ، وأن تتأتى مساعدتك تجاه تحقيق حبك ، يعنى أن تكون محبوبا من قبل أناس آخرين ٠

ومن المعلوم عن الناس أنهم يقارنون مسئولية الحب هذه بأساليب كثيرة ، ولكن النتائج ـ دائما ـ هى هى ٠٠ ، حب عام ٠ البعض يبدءون بانغماس شخصى عميق مع فرد آخر ، ومع ذلك يتعلمون أن الحب لا يمكن أن يكون مقصورا على شخص واحد ٠ يتعلمون أنه لكى ينمــو الحب ، فسوف يحتاج لعقول متباينة ، وأفراد لا يحصرهم العد ، وارتياد قنوات متنوعة ٠

ولا يستطيع انسان واحد أن يقدر على كل هذه الأشياء ، لذلك يجب أن يوسع حبه ليشـــمل كل البشر ٠ وكلما طوق الجميع حبـــه ، عظم نموه ٠ وحب الانسانية هو الثمرة الطبيعية للحب الفردى ، من انسان واحد الى كل الناس ٠

ويذكر هيربرت أوتــو :

ـ « فى العلاقة المستمرة ـ فقط ـ توجد امكانية أن يصبح الحب أعمق وأنضج لكى يطوق كل حياتنا ويمتد الى المجتمع » ٠

ذلك ، لأن العلاقة العميقة وحدها هى التى تقدم :

ـ « مغامرة كشف عمق حبنا ، وارتفاع انسانيتنا ٠٠ وهذا يعنى المخاطرة بأنفسنا جسمانيا وعاطفيا ، تاركين أنماط العادات القديمة البالية واحلال أخرى جديدة وقادرين على التعبير عن رغباتنا كاملة ، ونحن نحس بحاجات الآخــرين ، وواعين بأن كل فرد حسب معدله ، ولا نتهيب من طلب المساعدة عند الحاجة لها ٠

وثمة آخرون يحسون أن أى شيء أقل من حب كل البشر ليس بحب على الاطلاق ، ويحاجون بأن من لا يحب كل البشر باخلاص لا يمكن أن يحب بعمق حتى شخصـــا بمفرده ، حيث ان كل البشر واحــد ٠ وحب كل البشر هو نفسه كحب فرد واحد ٠

وكيركيجارد ـ Kierkegaard ، هو أحــد المؤيدين الرئيسيين لهذه الفكرة ، فهو **يقول :**

ـ « انه ، فى الحقيقة ، الحب المسيحى ، الذى يكتشف ، ويعــرف أنه لا فرق بين حب المرء لنفسه وحبه لجاره ٠٠٠ فكل واحد جار الآخر ٠ واذا لم يكن من الواجب أن نحب ، اذن فلا معنى للجار على الاطلاق ٠ ولكن ـ فقط ـ عندما يحب المرء جاره ، فهنــا فقط تزول أنانية الحب التميزى ، وتبقى مساواة الحب الخالد » ٠

لقد وجد **شفايتزر** ـ بتكريس نفسه للانسانية ـ أن ذلك امتداد فقط للحب الذى يشعر به لكل كائن حى ٠ ويشــعر **هيربرت أوتو** ـ Herbert Otto من خلال حب شخص واحد ، أن الانسان يكتسب قوة كافية لتحمل المسئولية للمجتمع الانسانى برمته ٠ وأيا كان الطريق الذى يتجه اليه المرء فانه يجد أن الحب ليس أنانيا ولا قاصرا ، ولكنه غيرى (١) وشامل ٠ وتظل الحقيقة قائمة ، وهى أن العالم ما يزال يجد صعوبة فى

---

(١) نسبة للغير ـ (المترجم) ٠

تقبل الحقيقة العامة · اذا أحب الانسان نفسه فقط ، فانه يوسم بأنه متمركز حول الذات ، فردى ، وأنانى·واذا أحب نفسه وعشيرته الصغيرة ، بما فى ذلك الزوجة والأسرة ، فسوف يسميه المجتمع محبا مخلصا ، ويمجده كرجل عاقل · أما اذا أحب الناس بأسلوب مفعم بالسمو ، فسيسخر منه العالم ، ويوصم بأنه ساذج ، وخيالى وأحمق ·

بمجرد أن تتوقف عـلاقة الحب عن أن تقودنى الى نفسى ، وبمجرد ألا أقود ـ فى علاقة حب ـ شخصا آخر الى نفسه ، فهذا الحب ، حتى لو كان يبدو كأعظم ارتباط وجدانى آمن خبرته ، فهو ليس بحب حقيقى ·

والمسئولية الثالثة التى يتضمنها الحب تكمن فى التأكيد المستمر على أنه موجـه دائمـا نحـو نموه ، سواء أكان ذلك فى النمـو الشخصى ، أم فى نمو النفوس ، أم نمو الذين نحبهم ·

ولقد عرف **أنطوان سانت ـ اكسوبرى** Antoine Saint-Exupery الحب بالآتى :

ـ عملية قيادتى لك لردك لنفسك ·

وهو يؤكد فى مقولته هذه ايمانه بقدرة الانسان على توجيه غيره للحب ·

وهو يرى أن النمو النفسى يجلب معه نمو الحب ·

والحب يمقت الاهدار ، خصوصا اهدار القوة الانسانية الكامنة ·

فى حفل زفاف قريب حيث سمح للعروسين أن يكتبا عهد الزواج الذى يقسمان به أمام عاقد الزواج ، **كرر كل منهما :**

ـ سوف أحبك ما دمت أستطيع أن أساعدك على النمو فى الحب ·

ويبدو لى أن هذا هو جوهر حب الغير ، أن نؤكد لهم أننا مكرسون لنموهم ،ولتحقيق قواهم الكامنة التى لا حد لها · لقد عزم هذان العروسان على أن يستخدما طاقاتهما المتحدة ، فى مساعدة كل منهما للآخر ، من خلال عملية لا نهاية لها لاكتشاف من هما بالفعل ، ثم يستمتعان للأبد

فى هذه المعرفة المستمرة التغير وفى هذا الاكتشاف ، وبهذه الطريقة يمكن للحب الانسانى أن يزدهر · وبمجرد أن تتوقف علاقة الحب عن ان تقودنى الى نفسى ، وبمجرد الا أقود – فى علاقة حب – شخصا اخر الى نفسه ، فهذا الحب ، حتى لو كان يبدو كأعظم ارتباط وجدانى آمن خبرته – ليس بحب حقيقى · ذلك لأن الحب الحقيقى مكرس للمواءمة المستمرة وعندما ، تتوقف هذه العملية لسبب ما يصبح الحب مضجرا ، وفاترا ومقدرا له أن يذوى ، ويتفسخ · ثم يدمر نفسه · ولذلك ، فالذى قد يبدو كبداية ، ما هو – فى الواقع – الا بداية النهاية ·

ان المسئولية – أيا كان نوعها – يمكن أن تبدو مرعبة ، ولهذا السبب كثيرا ما يخاف الانسان من العلاقات الحميمة مع أناس آخرين · فالعلاقة توحى له بأقصى درجات المسئولية ، وتنطوى على عبء وتقييد لحريته ، ونادرا ما يكون العكس · وقد علق طالب فى فصل الحب ، مثلا ، قائلا :

– لقد كنت أخشى دائما من العلاقة العميقة بسبب المسئولية التى يبدو أنها تفرضها على ، وكنت أخشى من المطالب التى تقتضيها منى ، وانزعج لأنى قد لا أستطيع تحقيق تلك المطالب · ولقد دهشت لاكتشافى – عندما واتتنى الشجاعة لتكوين علاقة – أننى أصبحت أشد قوة بالفعل · لقد أحرزت عقلين بدلا من عقل واحد ، وأربع أياد ، وأربع أذرع ، وأربع أرجل ، وعالم شخص آخر · وبانضمام القوى مع شخص ما ، حصلت على ضعف القوة لأنمو ، وضعف كل الخيارات والبدائل والآن ، لقد أصبح من السهل على حب الآخرين · أصبحت أقوى ، وأقل خوفا · لقد اكتشف مهما ·

وثمة مسئولية أخرى للحب ، وهى أنه يخلق المرح والبهجة · ان البهجة دائما جزء متمم للحب · هناك بهجة فى كل مسلك من مسالك الحيــاة ، مهما يكون وضيعا أو مكررا ، وأن تعمــل فى حب يعنى أن تعمل فى بهجة ، وأن تعيش فى حب يعنى أن تعيش فى بهجة · ربما لا يكون أمامك يوم من أعظم الأيام ابداعا وارضاء لتعيشه ، ولكنك تعلم أن عيشته أمر محتوم · انك تستطيع أن تجعل اليوم روتينيا ، كئيبا ، مدمرا للأعصاب ، مثبطا للعزم ، واهدارا للوقت · وتستطيع أن تجعل من نفس اليوم واحدا من أفضل أيام حياتك ، لنفسك ولهؤلاء الذين من حولك ، بالنشاط والحماس والعزيمة يمكنك أن تعيش كل لحظة كما لو كان اليوم – طبقا للقول المأثور :

– انه آخر يوم من عمرك ·

انه نفس اليوم ، يتطلب نفس النشاط ونفس الساعات ٠ والفرق هو أنك تستطيع أن تختار أن تعيشه فى بهجة ومرح ، أو أن تعيشه فى بؤس وشقاء ، فلماذا لا تختار المرح والبهجة ؟

اننى أكلف طلابى فى بعض الأحيان أن يكتبوا عن موضوع :

– اذا فرض أننى سأموت غدا ، فكيف أعيش الليلة ؟

ودائما ما تفضى الاجابة عن هذا السؤال الى تبصر عظيم ، ويكتشف الطلاب عند أدائهم لهذا الموضوع أنهم يهدرون وقتهم الثمين بطرق متعددة ٠ وبالرغم من أنهم يحسبون فى شبابهم ، أن الموت لا يزال بعيدا ، فالواقع أن وقت الحياة حتى لأطول الأعمار – وقت محدود ٠ فلماذا لا نعيشه فى بهجة ؟

ويحتاج الحب المسئول التعبير عنه ، فالحب اتصال متبادل ، وكما أن الانسان يتولى المسئولية للتعبير عن بهجته ، فهو مسـئول ، بنفس الطريقة ، للافصاح عن حزنه ووحدته ٠ وفى الحقيقة ، يبدو أنه كلما أصبح الانسان أكثر تدميرا ، بنى دفاعات وتبريرات وخلق جدرانا يتذمر خلفها ، فهو يعلل نفسه بأنه يساء فهمه ، وأنه غير محبوب ، وأنه تساء معاملته ، وأنه يستغل ٠ وبعبارة أخرى : كلما بدا أنه فى حاجة الى تفهم يتسم بالحب ، ابتعد عن أى احتمال للحصول عليه ٠ وأفضل مثل لذلك هو « أعراض التجهم » ٠ اذا احتاج المرء لشىء ، فعليه أن يدع الآخرين يعرفون حاجته والا فلن تتحقق حاجته هذه ٠ حتى المحبون ليسوا قراء للأفكار ٠ وفى أغلب الأوقات ، عندما يسمح الناس لأنفسهم أن يعبروا عن حاجتهم ، فانهم يدهشون للاستجابة التى يحصلون عليها فمثلا :

– لم تكن لدى فكرة أنك تشعر بالوحدة ٠

– انك تبدو دائما مكتفيا ذاتيا جدا ، رابط الجأش جدا ، ناجحا جدا ٠ اننى سعيد حقا أن أعرف أنك انسان ٠

وكما يبين الانسان للآخرين أنه يحبهم ، ينبغى أن يفشى لهم حاجته للحب ٠ وليس يمكنك أن تفترض أن النـاس ، – حتى أقرب المقربين اليك – سوف يعرفون ويفهمون حاجاتك وأحاسيسك التى لم تعبر عنها ٠ واذا أردت أن يعرفك الناس ، فأنت مسئول عن توصيل نفسك اليهم ٠

والحب المسئول ينطوي في قلبه وجوهره العام على انسانية الانسان ٠ ونحن جميعنا ، في أعماق أحاسيسنا ، قلب وجوهر من الانسانية ٠ وأعظم شيء يمكن للمرء أن يبلغه هو أن يكون انسانا بما يتضمنه معنى الانسانية من قوة ووهن ، ان أعظم اعلام العالم كانوا غالبا أعظمهم « انسانية » وأعظمهم تحفظا في الكشف عن عظمتهم ٠٠ فعلى ظهر الأرض ، بكى المسيح ، وشعر بالوحدة ، وخيبة الأمل ، والألم واليأس ٠٠٠ وبهذه الطريقة وحدها استطاع أن يفهم ما معنى أن يكون الانسان انسانا ٠

وعرف **بوذا** أهم الخصائص الانسانية ، الفوضى والتمركز حول الذات ، والكبرياء والحسد ، وحتى عسر الهضم ٠ وشعر **غاندى** بالمهانة والارهاق والحرمان الجسماني والمرض والوهن والتعذيب ، وعانى مما سماه « الحدث الزائل لوجوده الشخصي » ٠ ولكنا شعرنا بدرجات متفاوتة بما قد شعر به عظماء الرجال أمثال **عيسى المسيح وبوذا وغاندى** ٠ وبقدر هذه الدرجة يكون تعاطفنا ٠٠٠ رابطة مشتركة كثيرا ما نسمع ، **أو نقول لأنفسنا :**

- انها مجرد انسانية ٠
- ما هو الا انسان ٠

اننا نقول هذا لأننا نعلم أن الكمال هو مفهوم بعيد جدا عن معظمنا ، وفي نفس الوقت ، يجب أن نتعايش مع ما لدينا ٠ ولكن من البساطة أن نفهم أنه ليس بأسهل على الأب في الهند أن يقف موقف المتفرج ، ويراقب أسرته تتضور جوعا ، مما هو بالنسبة للأب في أى مكان في العالم ٠ والأفريقيون قادرون على السعادة ، مثل سكان بيرو تماما ٠ والأثرياء معرضون لذرف الدموع مثل الفقراء تماما ٠ والحكماء ليسوا مبرئين من الارتباك ، مثلهم كمثل المتخلفين تماما ٠ وبعبارة أخرى ، انها انسانية الانسان ، التي تعطينا القاعدة العامة ، التي منها نستطيع أن نحوز التعاطف في الحب ٠

ليس ثمة خيار للانسان الا أن يحب لأنه اذا لم يفعل ، فان البدائل هي الوحدة ، والهلاك واليأس ٠

انه التعاطف الذى يجعلنا مسئولين فى الحب عن كل الناس. ومع كل انسان يموت فى العالم ، يموت كل منا قليلا . ومع كل شخص يعانى ، نحن ، أيضا ، نعانى قليلا . ومع كل طفل يولد فى العالم ، نصبح جميعا أكثر ثراء فى الامكانات . اننا جميعا بدون قيد ولا شرط نشبه الآخرين ، كل ما فى الأمر أننا نعيش فى أراض مختلفة ، ونلعب أدوارا مختلفة فى ملابس متنوعة ، أمام ستائر خلفية غير متشابهة ، على مسارح شتى ، أمام متفرجين غرباء . وانه ليبدو ممتعا اذا استطعنا تغيير الملابس من آن لآخر ، والوقوف على مسارح كثيرة ابان فترة حياتنا . ان ذلك سوف يمدنا بتبصر عظيم ، فيما يتعلق بشمولية الانسان . اننا نعيش من أجل كل فرد ، كما أن كل فرد يعيش من أجلنا جميعا .

لو كان كل الناس عرايا وطلب منا أن نغمض عيوننا ونتحسس ، لاختلطت بائعة الزهور مع الملكة ، ولأخذ المهرج كملك بدون اعتراض ، وربما أخذ رئيس الدولة على أنه عامل من عمال التراحيل ، أو محارب غاضب . ولعله لا توجد من بين المعارف ما هو أعظم من هذه المعلومة : أن كل شخص فى العالم ، وضيعا كان أم أميرا ، انما هو — أساسا — انسان ، فاذا استبعد أى شخص ، فان ذلك يعنى فقدان كل الامكانات ، التى قد تتوافر من خلال المودة الحميمة التى يحققها عمق المعرفة ، وصفاء المشاعر ، مع الآخرين .

والحب المسئول يشارك . ففى الواقع ، لا يمتلك أى انسان أى شىء سوى نفسه والقول :

— « انك لا تستطيع أن تأخذه معك ؟ »

على الرغم من الافراط فى استعماله — هو قول صادق على نحو فريد . فالانسان يمكنه أن يواصل التقدم ، ولكن الى لا شىء .. أو لا أحد .. ان الحب مشاركة مع الآخرين . ما الهدف من المعرفة ، اذا لم تقدم لطلابها ؟ ما المعنى الذى للجمال ، اذا لم يقدم للجميع ليخبروه ويتذوقوه ؟ ما الخير فى الحب ، الذى لا يمنح بحرية ؟ ان الحب دائما مشاركة فعالة . فاذا كان لدى المرء حب يمنحه ، فليفض به لكل الناس ، وسيظل لديه نفس الحب الذى بدأ به . اننا لا نفقد أى شىء أبدا بمشاركة الآخرين فيه ، لأنه لا شىء مطلقا لنا وحدنا لنبدأ به . فى الحقيقة ، ان الحب لا يكتسب معنى الا عندما يكون شركة .

ان الحب المسئول هو التقبل والتفهم ٠ والحب ينمو بمعدلات مختلفة وفى اتجاهات مختلفة فى كل الأفراد ٠ والحب فى الزواج أو أية علاقة حميمة ، مثلا ، عبارة عن عملية نمو يدا فى يد ، ولكن بشكل منفصل ٠٠٠ بشكل منفصل ، لأنه من المستحيل أن نتوقع أن فردين ، حتى فى حالة حب ، سوف ينموان بنفس المعدل وفى نفس الاتجاه ٠ ومعنى هذا أن المرء قد لا يفهم فهما تاما ، أو يقدر تقديرا تاما نمو الآخر أو سلوكه المرتقب ، ولكن الحب يساعدنا على قبول حقيقة أن الفرد الآخر انما يسلك فقط حسب قدرته على السلوك فى اللحظة الراهنة ، وأن تطلب أن يسلك غير ذلك يعنى أنك تطلب المستحيل ٠

والحب المسئول هو التعاطف ، وكلمة **التعاطف** Empathy بالرغم من أنها استعملت بافراط ، لا تزال كلمة عظيمة ٠ انها تعنى أن « تشعر » مع ٠ انها لا تدل ضمنا على « فهم كلى » ٠ نحن نعرف أننا لا يمكن أبدا أن نفهم شخصا آخر فهما حقيقيا ، ولكن طالما أن لدينا فى الحب عناصر عامة وايجابية كثيرة جدا فهناك أمل ٠ واذا كان السلوك متناقضا مع توقعاتنا ، أو مزعجا لنا ، أو مخيبا لآمالنا ، فيجب أن ينظر له كمجرد مرحلة عابرة ٠ الحب دائم التغير ودائم التعليم ٠ الحب يقدم أعظم مرونة ، ويطلب — فقط — أن نتقبل السلوك كما تعبر عنه معرفتنا بأن هذا السلوك ليس مستديما ٠ انه ليس موضوع مسامحة ، فالمسامحة ، فيها معنى التنازل ٠ انه موضوع تقبل الشخص بلا شروط كما هو عليه فى اللحظة الراهنة ، مع ادراكنا أن ما هو عليه اليوم ، ليس هو الذى سيكون عليه غدا ٠ فالمحب ، اذن ، مراقب ، منصت ، منتظر ، شاعر ، مكيف نفسه ، معيد للتكيف ، متغير دائما ٠

اذا نما اثنان فى الحب ثم تباعدا ، فهذا يعود عادة الى حقيقة أن أحدهما يرفض أن ينمو أو يتغير ، وفى هذه الحالة ، يمكن للمحب اما أن يقرر أن يكيف نفسه مع سلوك الآخر ، أو يتجاهل ما حدث ، أو — ان كان يبدو ألا فائدة — أن يبتعد عن هذا الحب ويهجر ٠ **ولعلك توجه هذا السؤال :**

— ولكن هل « الابتعاد » حب حقيقى ؟

انه كذلك فى الحقيقة ، لأنه اذا كان المحب يقف فى طريق الآخر اذن فهو لم يعد محبا ٠

أجريت تجربة شائقة في فصل علم الاجتماع ، في احدى الكليات الأمريكية · كان البروفسور يناقش عملية العطاء ، وكيف يرتبط بالمسئولية ، وقد طلب من طلاب الفصل أن يتبرعوا بعشرة سنتات لأى من المواقف الثلاثة المحتاجة التالية :

أولا : كان هناك قحط شديد في جنوب الهند في حاجة ماسة للمال ··· نساء وأطفال كانوا يموتون ، والرجال قانطون · فاذا تبرعوا لهم فذلك يجعلهم يساعدون في معركة من أجل الحياة نفسها ·

ثانيا : يمكن أن يقدم الطلاب عشرة السنتات الى اكتتاب بالكلية مخصص لمساعدة طالب أسود ممتاز في دراسته · لقد اضطر الطالب لترك كليته بسبب محنة عائلية لا يمكن قهرها ، ولا يمكن علاجها الا بالنقد الفوري ·

ثالثا : يمكن أن يسهموا في اكتتاب كانوا قد شرعوا فيه لشراء ماكينة تصوير مستندات جديدة لاستعمال الطلاب · ومن المؤكد أن هذه الماكينة كانت كفيلة بجعل حياتهم الأكاديمية أكثر يسرا ·

ولم تكن نتائج الدرس مستغربة لدى الكثيرين وصدمة عظيمة لدى القليلين · فأكثر من ٨٥ في المائة من الطلاب تبرعوا بالسنتات العشرة ــ عن طريق القرعة السرية ــ لماكينة تصوير الأوراق ، من أجل استعمالهم المباشر · والمبلغ الأكبر التالى ، حوالى ١٢ في المائة ، قدم للطالب الأسود ليظل في كليته و ٣ في المائة فقط من الطلاب تبرعوا لأهم حاجة عاجلة : وهي الحفاظ على حياة الناس في الهند ·

كلما كانت المشكلة بعيدة ، قل الشعور بالمشاركة في المسئولية ، أما الحاجة أو استعجال الحاجة فلم يكن ذا أهمية · انها لم تكن « الأنا » الغيرية ولكن « الأنا » الأنانية التى ضيعت الفرصة لانقاذ حياة الهندى أو توفير التعليم للشاب الأسود · انها كانت « الأنا » الأنانية التى تجاهلت حقيقة أنه في النهاية قد كسب ثوابا قليلا · وهل كل ماكينات التصوير في العالم تساوى حياة واحدة ؟ ان عدم ادراك هذا بمثابة وضع قيمة في بعض الأشياء « الفارغة » ، التى عندما يأتى الموت بزيارته الحتمية فسوف تكون مستردة عند بابه ·

وأخيرا ، فالحب المسئول يبزغ حتى وراء الأمل · فالمقدرة على الأمل ، بالتأكيد ، واحدة من أعظم الظواهر المنقذة لحياة الانسان · وفي

الأمل يبدى الانسان احتراما عميقا وايمانا بقدرة الانسان على تغيير الاعتقاد « بوحدة الكون » ، وببدايات جديدة وبأيام مثيرة قادمة ، فالأمل ضرورى للانسان ، لأن الانسان لا يملك بعد من الشجاعة ما يكفى ليعيش بدونه ٠ ان الحياة بدون أمل قد تكون مدمرة له ٠ ان الانسان لم يتعلم بعد أن يعمل من أجل بهجة العمل ، أو يتعلم من أجل النمو ، أو يبدع من أجل التعبير والاعلاء فى العمل ، أو أن يحب ــ ببساطة ــ من أجل متعة الحب ، انه لايزال فى حاجة الى جزاء ٠ والى أن يتعلم الانســـان أن يفعل هذه الاشياء بلا مطمع أو أجر ، فسيكون على الأمل أن يظل قوته الدافعة الأساسية ٠٠٠ ففى العمل ، سيحتاج الى أجور أكثر وألقاب أفضل ، وفى المعرفة ، سيحتاج لشهادات ودبلومات ، وفى الابداع ، سيحتاج للتقدير ، وفى الحب ، سيحتاج للثقة ٠ والى أن يدرك أن كل واحدة من هذه هى جزاء نفسها ، ســوف يحتاج للأمل كعكازة يتوكأ عليها ٠ وليس ثمة أى خطأ مع الأمل فى الحب ، انه ــ ببساطة ــ الثانى بين أفضل الأشياء ٠

وفى وقتنا الحالى ، فالأمل باعتراف الجميع قوة خلاقة هائلة ٠ لأنه، كما عبر عنه نورمان كوزنز Norman Cousins :

ــ « الأمل بداية الخطط ٠ انه يمنح الانسان غاية واحساسا بالانجاه لبلوغ الغاية ، ويمنحه الطاقة ويشعل شرارتها لكى يبدأ ، انه يطلق الحساسيات ٠ انه يعطى قيما صحيحة للأحاسيس وكذلك للحقائق » ٠

ــ ان أمله ينطوى على :

اضرام الخيال الانسانى ٠٠٠ عن الحياة كما يحبها الانسان ، عن استخدامه الكامل لذكائه لكى يجلب سلامة العقل والحساسية لعالمه ولفنه ، عن أهمية الفرد ، عن طاقتــه لابتكار نظم جديدة ، واكتشاف معالجات جديدة ، واستشعار امكانات جديدة ٠

بالتأكيد ، كل هذا حقيقى ٠ ولكن الحب يتخطى الأمل ٠ والأمل ما هو الا البداية ٠ أما الحب فهو للأبد ٠

★★★

الحب يقــر بالحــاجات

« ان العقل لا يتغير بمكان أو زمان ، ويمكنه أن يصنع جنة من جحيم ، وجحيما من جنة ٠ »

جـــون ميلتـــون
John Milton

الانسان لديه حاجات جسمانية وعاطفية ٠ وحاجاته الجسمانية ، ـ على الرغم من أنه ينفق معظم وقته ـ فى الحقيقة ، معظم حياته ـ فى تحقيقها ، هى الأبسط ارضاء والأسهل اشباعا ٠ فالانسان يحتاج الى كمية صغيرة من الطعام ـ معظمنا يأكل أكثر من اللازم ـ والى مأوى يحميه من العوامل الجوية ـ اننا لا نحتاج للبيوت الكبيرة التى نعيش فيها ـ والى ملبس فى الشتاء ـ كثيرون لايزالون يستخدمون ورقة التين فى أجزاء من العالم ـ وبالطبع الى تغذية وماء ٠ وكل شىء خلاف ذلك يعتبر ترفا ، اذا وجد فهو جميل ، بالطبع ، من أجل الراحة ، ولكن ليس ضروريا من أجل بقائه ٠ ويشهد على ذلك ثلثا عالم اليوم ، حيث يعيشـــون على الـــكفاف ٠

ولكن للانسان حاجات أخرى كذلك : حاجات عاطفية ٠ وهذه ، أيضا ، قليلة ، ولكن كل صغيرة منها مهمة ، مثل متطلباته الجسدية ، ومع ذلك ليست بسيطة ٠ فاذا لم تتحقق ، فمن الممكن أن تكون مدمرة كالجوع الجسمانى ، وغير مريحة كنقص المأوى أو السكن ، ومعجزة كالعطش ، ويمكن أن يترتب على مالا يتحقق من الحاجات العاطفية من الاحباط أو العزلة أو القلق ، مثل ما يترتب على الحرمان الجسدى ، من موت أو حياة أشبه بالموت ، كالعصاب والاضطراب العقلى ٠

ومع ذلك ، فالانسان ، وهو واع بذلك ، يستمر فى انفاق جزء ضئيل من وقته فى الأنشطة التى تتضمن تحقيق حاجاته العاطفية وفى عملية مساعدة الآخرين فى اشباع حاجاتهم • ومن المؤكد وجود قلائل من الناس يعتبرون أن لحاجاتهم العاطفية من الأهمية ما يكفى لتكون جديرة بوقت مساو للوقت الذى ينفقونه فى كسب الأجور التى يواجهون بها ضرورياتهم المـــادية •

ان حاجات الانسان النفسية الإساسية هى : انه يحتاج أن يرى ويعترف به ، ويقدر ، ويسمع ، ويدلل ، ويشبع جنسيا • انه يجب أن تتاح له حرية اختيار طريقه ، وأن ينمو بمعدله هو ، وأن يصنع أخطاءه هو ، ليتعلم :

انه يحتاج أن يتقبل نفسه وأن يتقبل الناس الآخرين فيرضى عنهم ويرضون عنه • انه يرغب فى أن يكون « أنا » فى نفسه مثل « نحن » بالنسبة لغيره • انه يكدح لكى ينمو حتى يصبح « الفرد » الذى « هو » •

والحب يقر بكل هذه الحاجات والا فهو ليس بحب • واذا لم يتحقق أى منها ، فان الفرد لا يمكن أبدا أن يتحقق تحققا كاملا ، وسيظل مخفيا ، جزئيا ، حتى عن نفسه • انه أشبه كثيرا بشجرة ، بعض فروعها ظلت بعيدا عن الشمس بينما بقيتها تنمو ، فالأجزاء التى قد حرمت ضوء الشمس لن تتطور أبدا بالطريقة الطبيعية •

فرئيس البنك ، مثلا ، قد يكون عالى الكفاءة ، ذكيا ، مقبولا ، محترما وعضوا فعالا فى المجتمع • ويبدو ــ من جميع النواحى ــ أنه يشبه الشجرة القوية النامية • ولكن زوجته تعرف أنه عندما يتعلق الأمر بعادات الأكل فان له أذواق الطفل المحدودة ، كما أنه عاجز عن أداء واجباته الزوجية • لقد كان فى حاجة الى شىء ما فى نموه العاطفى ، ولكن هذه الحاجة لم تتحقق • ولكى يستمر فى النمو ، نحى هذه الحاجة جانبا ــ اذا تحدثنا بلغة علم النفس ــ وظلت عاداته الجنسية وعاداته فى الأكل عند المستوى الطفولى ، بينما استمرت بقيته تسير نحو النضج • وهذا بالطبع تبسيط مفرط للقوى المحركة المتضمنة ، والتى هى فى الواقع أكثر تعقيدا ودقة • ولكن النقطة الرئيسية التى أود أن أبرزها هنا هى حقيقة أن الرجل سوف يعانى من أجل حاجاته غير المحققة •

ان لدى الانسان حاجة لأن يرى ويسمع ويدلل . والحب يعترف بهذه الحاجات . ويبدو أن كل فرد فى هذه الأيام مشــــغول الى حد أنه لا يقف ويتطلع أو ينصت الى أى أحـد ، حتى أسرته نفســها . وهذه أسميها أعراض « الانسان الخفى » . أنت تعرف أنه موجود أمامك مباشرة كل يوم ، عند تناول الطعام ، فى حجرة المعيشة ، حتى فى السرير ، ولكنك لا تراه ، انك لا تنظر اليه .

اذا كنت تحب شخصا ما ، فانك ستنظر اليه باهتمام . انه يتغير كل يوم من خلال عملية جميلة تدريجية ، والتى سوف تفتقدها بالتأكيد اذا لم تتعلم كيف تراقبها . متى كانت آخر مرة نظرت فيها الى وجه زوجتك ، أو زوجك ، أو وجه طفلك أو وجه أمك ؟ وكذلك كم مضى من الزمن منذ أن نظرت بعمق الى نفسك ؟ ليس أثناء حلاقة الذقن أو الاغتسال أو وضع ظلال العين ، ولكن فى لحظة سلام ، مجرد نظر ؟

لقد عرف الانسان الأمريكى الأسود هذا الشعور بكونه خفيا لعدة سنين ... ولقد تأصل فيه هذا الشعور حتى انه سمى نفسه « الرجل الخفى » . لقد كون الوجودى فلسفة كاملة حول فكرة عدم جدوى صراع الانسان الشخصى من أجل الاعتراف به ـ Recognition ، من أجل سعيه نحو تأكيد وجوده الحقيقى ، ومعنى هذا الوجود . ان المحب يعترف بحاجة الآخرين الى أن يروا . انه ينظر ويرى .

والانسان يحتاج أن يسمع أيضا بالتأكيد . اننى أشير الى نقص ذلك بما أسميه أعراض « حفلة الكوكتيل » . فها هنا يوجد حشد كبير من الناس ، كلهم يتســـامرون ويتجاذبون أطراف الحديث ، ويتبادلون ما يطلق عليه « لغو الحديث » كلام كثير ، ولكن ما يسمع منه أو ينصت له قليل . ويمكن أن يقال انه مجرد تحويل الهواء الى ذبذبات ـ والذبذبات لا تصبح صوتا الى أن تلتقطها الأذن ويترجم المخ الذبذبات ويفسرها الى رموز ويلعب المخ دورا صغيرا فى حفلة الكوكتيل العادية لايتعدى كونه عضوا مخدرا .

وحتى عندما ينصت شخص الى آخر ، فهو يسمع غالبا ما يرغب فى سماعه . ان لديه القدرة أن يختار أو أن يغربل ما هو غير مريح له .

وفى كتاب ممتع « لاليكسندرا دافيد ـ نيل » « ولاما يونجدن » Alexandra David-Neel & Lama Yongden ، سر التعاليم الشفوية السرية عند الطوائف البوذية التبتية ، تروى المؤلفة كيف تقربت لعالم

من التبت بخصوص خطتها لكتابة الكتاب ، وتعتبر اجابة الرجل الحكيم ممتعة وموضحة للنقطة التى أحاول ابرازها ، يقول الحكيم :

ـ « اهدار للوقت ، ان الأغلبية العظمى للقراء ، والمستمعين هم سواء ، فى شتى أنحاء العالم ، ليس عندى أى شك أن الناس فى بلادك يشبهون هؤلاء الذين قابلتهم فى الصين والهند ، وهؤلاء الآخرون مثل التبتيين تماما ، اذا تحدثت معهم عن الحقائق ذات الفكر العميق يتثاءبون ، واذا تجاسروا ، يتركونك ، ولكن ، اذا حدثتهم عن خرافات سخيفة ، فيصبحون كلهم عيونا وآذانا ، انهم يرغبون أن تكون النظريات أو المواعظ التى تلقى عليهم سواء أكانت دينية أم فلسفية أم اجتماعية على وفاق معهم ، وأن تكون متسقة مع أفكارهم ، لترضى ميولهم واتجاهاتهم . وفى الحقيقة انهم يجدون أنفسهم فيها ، ويشعرون أنهم موضع الاستحسان منهـــا » ..

ويضاف لهذا التشويش ، أن الكلمات تعنى غالبا أشياء مختلفة عند نقلها بين مختلف الناس ، ويسبب هذا ظاهرة غريبة نوعا ، وهى تلك التى أشار **تموثى ليرى** Timothy Leary اليها على أنها :

ـ « رقعة الشطرنج الخاصة بى ، تحاول أن تتصل بلعبة المونوبولى الخاصة بك » .

ولقد صور هذا المشهد تصويرا جميلا **ادوراد البى** Edward Elbee فى كتابه « الحلم الأمريكى » ، الذى يستهله بحوار بين رجل وزوجته ، انها تسرد ، بتفاصيل دقيقة ، ما حدث لها أثناء شرائها بعض الحاجيات ، بينما هو قد جمح به تفكيره بعيدا بآلاف الأميال ، وكان توقفها عن السرد، فقط ، عندما كانت تسكت لحظة لتسأله أن يكرر ما قد قالته لتوها ، اذ تريد أن تتأكد أنه قد سمع ، والواقع أنه لم « يسمع » كلمة واحدة ، ولكنه يكرر كلامها بالتمام والكمال ، ولقد يجد المتفرجون المشهد مضحكا ، والغريب أنهـم لا يبكون ، حيث ان معظمنا يجد نفسه فى هذه المسرحية كل يوم من أيام حياتنا ، ولعلنا لو أنصتنا لشخص آخر وأنصتنا بصدق لأمكننا ســمـاع فرحته أو بكائه ، الحب يصغى وينصت ، الحب يسمع ويستمع .

ان الحب يلمس ويدلل ، والحب الجسمانى ضرورى للسعادة والنمو والتطور ، ولقد ذكرنا من قبل أن الطفل يحتاج الى أن يدلل والا فسيموت ،

حتى لو تحققت كل حاجاته البيولوجية ٠ ولقد كان لمقولة **فرويد** ـ **Freud** ، « ان وراء كل مرض عقلى نقصا فى الاشباع الحسى » تفسيرات عديدة ومختلفة ٠ حتى نعتوه « بالعجوز القذر » لقد امتد ما قصده بالاشباع الحسى من ارضاع الأم لوليدها وتبديل غياراته الى أقصى انفعال للخبرات الجنســية ، وكل تدرج جســمانى فيما بينهما ، حتى المصافحة يمكن تصنيفها كاشباع حسى ، ولا تهم الدرجة ٠ وسوف نأمل أن كل الناس سينتهزون الفرصة لتجربة سلسلة الخبرة كاملة ، فالانسان فى حاجة الى أن يلمس ٠

ان قوة الدافع الجنسى تشهد بذلك ، وانها لتصبح عند بعض الناس مسيطرة كل السيطرة حتى انها توجه حياتهم تماما ٠ لقد عرفنا ممالك نهضت وسقطت ، وحروبا أعلنت ، وجرائم ارتكبت ، وما كان ذلك الا ليستطيع شخص ما الحصول على هذه اللحظة من الاتحاد الجنسى ، وغالبا بدون حب بالمعنى الحقيقى ، مجرد انفعال شهوانى ٠

والحب لا يعنى الجنس ، ولو أن الاشباع الحسى بدرجاته المتفاوتة هو دائما جزء من الحب ٠ ان محاولة وضع كتاب عن الحب بدون أن يؤخذ فى الاعتبار أهمية الجنس سوف يكون عبثا ٠٠٠ انه من المستحيل أن يحب المرء بعمق وباخلاص دون أن تكون ثمة رغبته لصورة ما من صور الاشباع الحسى ٠ ان مفاهيمنا الأخلاقية ضد التلامس الانسانى السطحى قاسية ، لدرجة أن كثيرين يبتعدون تماما عن أى شكل من أشكال الحب الجسمانى الا اذا كان ذلك على المستوى الحيوانى الصرف ٠ بل ان اختيار المصافحة باليد ، رجــل مع امرأة فانه ، ـ طبقا للاتيكيت متروك لتحفظ المرأة ، فاذا مدت يدها ، فالرجل يتقبلها ، ولكنها تكون أيضا محقة اذا لم تمدها ، وهكذا فاننا نبعد أنفسنا بعضنا عن بعض من خلال آداب المعاشرة ، كما هو الشأن ، من خلال القوانين ٠

وليس ثمة شك فى أنك تدرك أن الأشخاص حقيقيون عندما تلمسهم ٠٠٠ عندما تشعر ببشرتهم على بشرتك حتى ولو للحظة وجيزة ٠ انني انقض الاتيكيت باستمرار بأنني دائما أمد يدى للرجال والنساء سواء بسواء ، وأتسبب فى نظرات الفزع عندما أمسك بيدهم فترة أطول مما هو مألوف ، وأغطيها بحرارة بيدى الأخرى ٠ ان ذلك يفزع بعض الذين يتطلعون الى بسخرية **وكأنهم يتساءلون :**

ـ ما الذى يرمى اليه ؟ ٠٠٠

ولكن ذلك يؤكد لنا كلينا بشكل قاطع أننا اثنان من البشر مرتبطان على مستوى واقعي جدا ، وقد يقدم مقولة فلسفية جديدة مؤداها :

ـ « اننا نتلامس ، لذلك فنحن نكون » ٠

ويوجد بالتأكيد بعض الذين لا يجدون التلامس مع الآخرين مرضيا ٠ وهناك بالطبع من يجدونه ، من ناحية الوقاية الصحية بغيضا ٠ لقد مرت بى مناسبات **قال البعض فيها :**

ـ لا تلمسنى من فضلك ٠ انى أفضل ألا يلمسنى أحد ٠

انه من حقهم ، بالطبع ، وهو حق يجب أن يحترم ٠ ومع ذلك ، فالحب جسمانى ، انه يلمس ٠

فى الحب ، كل انسان انما يمثل تحديه الشخصى الخـــاص ٠

والحب يحتاج للحرية ٠ لقد ناقشنا مسبقا أن الحب دائما حر **بكل** ما تعنيه الكلمة ٠ انه **يعطى ويستقبل بحرية ، ولكنه يحتاج للحرية أيضا لكى ينمو** ٠ وكل انسان نام **فى الحب سيجد طريقه ، طريقه الخاص للحب** ٠ اننا لا نستطيع أن نخبر الآخرين على سلوك طريقنا ، يمكننا فقط أن نشـــجعهم ليجــــدوا الطريق الخاص بهم ٠ ان **كارلـــوس كاستنيدا** Carlos Casteneda ، **فى كتابه الرائع الممتع عن هنود الياكى « تعاليم دون جوان » يقتبس حكمة دون جوان :**

ـ يجب دائما أن تتذكر أن الطريق هو طريق فقط ، فاذا شعرت أنك يجب ألا تتبعه ، فيجب ألا تبقى فيه تحت أى ظرف من الظروف ٠٠٠ أى طريق ، هو طريق فقط ، فليس ثمة اهانة لك أو لغيرك فى الانسحاب منه اذا أخبرك عقلك أن تفعل ذلك ٠

ولكن قرارك بالاستمرار فى الطريق أو بتركه يجب أن يكون متحررا من الخوف أو الطموح ٠ اننى أحذرك ! انظر الى كل طريق عن كثب وبترو ٠ وحاول ذلك مرات ومرات حسبما تعتقده ضروريا ، ثم اسأل نفسك ، وأنت وحدك ، سؤالا واحدا ٠٠٠ **وهو هذا ٠٠٠ هل لهذا الطريق قلب ؟** كل

الطرق متشابهة ، انها لا تؤدي الى أي مكان ٠٠٠ انها طرق تسير عبر الأجمة ٠ هل لهذا الطريق قلب ؟ ٠٠٠ هذا هو السؤال ، فاذا كان كذلك ، اذن فهو طريق طيب ، واذا لم يكن ، فلا فائدة منه ٠ كلا الطريقين لا يؤديان الى مكان ، ولكن أحدهما له قلب ، والآخر ليس له قلب ٠ أحدهما يؤهل الى رحلة بهيجة ، ومادمت تتبعه فسوف تكون واحدا معه ، أما الآخر فسوف يجعلك تلعن حياتك ٠ أحدهما يجعلك قويا ، والآخر يضعفك ٠

وكل فرد يمكنه أن يحكم بنفسه أى طريق لديه قلب من أجله ٠ وحيث تلتقى الطرق فثمة سلام ، على شريطة أن كل طريق يحب الآخر ويجـــله ٠٠٠

ان الحب لا يحدد اتجاها مطلقا ، ذلك لأنه يعرف أنه لكى يحول انسانا عن طريقه يعنى أن يعطيه طريقنا الذى لن يناسبه بصدق أبدا ، بل انه يضعفه بالتأكيد ٠ يجب أن يكون حرا ليسلك طريقه هو ، بأسلوبه المختار ، وبمعدله الخاص ٠ يجب أن يكون حرا ليرتكب أخطاءه ، ويتعلم منها ما يستطيع ٠ ويظل حبنا له موجودا ، لكى يقدم له المؤازرة والقوة لمداومة بحثه بأمان ، وهناء ، ويقـــدم له يوما بيوم التشـــجيع الذى يحتاج اليه ٠

ان أية مساعدة نقدمها انما تتجه ـ فقط ـ الى معاونته للعثور على ذاته التى يبحث عنها من زمن ٠ والحب هو دليله ، وليس قائده ٠ كل انسان هو قائد نفسه ٠ والحب لا يعكس ظل المعطى أبدا ، لأنه اذا كان هناك أى توجيه فى مساعدتنا ، فاننا ـ اذن ـ نكون قد منعنا الشخص عن شق طريقه هو بصدق ، ولن يكون حرا بحق ٠ ان لديه طريقـــه ، والحب يشجعه على طريقه ، حتى اذا لم يتلاق طريقه مع طريقنا المرغوب ٠ ولئن أمسكنا به قسرا لنسيره فيما نعتقده أنه الطريق الصحيح له ، فاننا بذلك نقوده الى الظلام ، **وكما يقول ثورو :**

ـ « الطيور لا تغرد أبدا فى الكهوف » ٠

ان الحب يستمع الى حاجاته هو ، فالمجتمع مفعم بالقوانين والتعليمات والارشادات للاهتداء الى الحب والتقبل الاجتماعى ٠ وكثيرا ما يتبنى الانسان ما يعتقده الآخرون أو يفكرون فيه ، أو يقولونه ، الى حد أنه يكف عن الاصغاء الى ما يعتقده هو ، ويفكر فيه أو يقوله ٠ فالمجتمع يقول له إنه يجب أن يعيش فى ضرب معين من المنازل ٠ وهو ، من جهة أخرى ، كان

يريد دائما أن يعيش في كوخ أشبه بأكواخ الاسكيمو معدلا ، فاذا بنى هذا الكوخ فسوف ينظر اليه « الناس » على أنه مجنون بالفعل • انه يحب أن يكون لون جدرانه دافئا ، ربما برتقاليا • انه أحب البرتقال دائما ، حتى وهو طفل ، **ولكن مهندس الديكور يقول له :**

ـ ليس ثمة أحد يدهن جدرانه باللون البرتقالي •

وان لون الخيـــار الأخضر أحلى و « داخلى » جدا • ولذلك ، تدهن جدرانه ، باللون الأخضر ويأخذ بنصيحة مهندس الديكور فيضيف ستائر أرجوانية ـ « أنيقة جدا » ـ وسجادة ذات لون أحمر داكن ـ « أحدث صيحة » • ولذلك ، تصبح لديه جدران خضراء ، وستائر أرجوانية ، وسجادة حمراء داكنة • وكلما مشى داخل الحجرة أصابه المرض والتوتر ، ولكن الجيران ، و « بيوت الديكور » موافقون ، ومن ثم ، فلابد أن يكون ذلك هو الصواب • ان البيوت تبنى من أجل المقاولين ، وتصمم الملابس بواسطة مصممي أزياء ساديين ، ويحدد الجمال من قبل هوليوود والأفلام السينمائية • أما الفرد فهو ضائع بينهم • انه يصبح كل ما يمليه ويقرره الآخرون • دون أن يكون واعيا ـ في بعض الأحيان ـ بذلك •

وتلاحقنا التفاهات ، التي يقولون انها بالتأكيد سوف تأتي لنا بالحب • في كل يوم نؤدى البرنامج الذى لا يكاد يتغير من الصباح حتى المساء ويصبح من المستحيل علينا أكثر وأكثر أن نفلت من الحمام • اننا نستيقظ ونؤدى تمرينات لمدة عشرين دقيقة ، ثم نأخذ « دشا » ، ونجفف أنفسنا ، ونستخدم مساحيق أو مراهم لتغذية بشرتنا ، وننظف أسناننا بالفرشاة ودواء غسل الفم « لمضاعفة التأكيد » ، ونسوى شعرنا بالفرشاة مائتى مرة بعد غسله بالشامبو ، ونصففه بالدهان الخاص لذلك ، ونجففه ، ونفرده ، ونمشطه ثم نتعطر ، ونوثق أنفسنا داخل الملابس ، وندفع بأقدامنا في الحذاء ، ونرتب فراشنا ، ونختطف فنجانا من القوة أو الشاى، وهكذا نصبح مستعدين لليوم • وبعض الناس يكررون نفس الروتين كله قبل النوم ، ولكن بالمقلوب •

ونتيجة لذلك ، لم نعد نعرف ما هى رائحة الانسان ، وأصبحنا ننفر من الروائح البشرية الطبيعية • لقد بلغنا من النظافة حدا أصبحت فيه مقاومتنا للجراثيم ضئيلة أو معدومة عندما نسافر خارج بلدنا • لقد أصبحنا منغمسين فيما يجب علينا عمله ، حتى لم يعد لدينا وقت لنعمل ما نريد أن نعمله • اننى لا أدافع عن العودة للعادات الصحيحة الرديئة ،

أو عن القتل الجماعى لكل أولئك الذين يصنعون كتبا فى الاتيكيت تعقد حياتنا ، أو نفى كل مصممى الأزياء ومهندسى الديكور الداخلى والمعلنين ، انما أريد - ببســـــاطة - أن يستمع المرء الى دقات (طباله) الخاص ، والا فسوف يتخلى تماما عن ذاته ٠

ان الحب يستمع الى حاجاته هو ويقدر تفردها انه يمقت حقيقة أن الناس فى طريقهم الى أن يصبحوا متشابهين رويدا رويدا ، وأنه لن يمضى وقت طويل قبل أن تكون الطريقة الوحيدة لتحديد هوية الفرد هى من خلال رقم التأمين الاجتماعى ، أو رقم بطاقته الشخصية ٠

الحب ، اذن ، يعترف بالحاجات ، جسمانية وعاطفية ٠٠٠ انه يرى مثلما يبصر ويصغى مثلما يسمع ٠ الحب يلمس ويدلل ويجد متعة فى الاشباع الحسى ٠ الحب حر ، ولا يمكن أن يتحقق الا اذا ترك حرا ٠ الحب يجد معبره ، ويحدد شكل خطواته ويسير فى طريقه الخاص ٠ الحب يعترف بالتفرد ويقدره ٠ الحب لا يحتاج لتمييز ، لأنه اذا ما عرفت آثاره وتميزت فهو ليس حبا حقيقيا على الاطلاق ٠

★ ★ ★

الحب يتطلب أن يكون المـــرء قـــويا

« ان الضعاف هم القســـاة • أما الدماثة فلا يمكن توقعهـا الا من الأقويـــاء » •

ليـــو روزتن
Leo Rosten

ـ ١٠ ـ

ان أعظم تحديات الحياة هو أن تحيا فى الحب • ان ذلك يتطلب رقة ، ومرونة ، وحساسية ، وتفهما ، وتقبلا ، وتسامحـــا ، ومعـــرفة ، وقوة ، أكثر مما يتطلبه أى مسعى او عاطفة انسانية أخرى ، لأن الحب والعالم الفعلى ، يكونان ما يشبه قوتين عظيمتين متناقضتين • فمن ناحية ، قد يعرف المرء أنه لكونه سريع التأثر ، يمكنه أن يقدم الحب بصدق ، وأن يتقبله كذلك • وفى نفس الوقت ـ من ناحية أخرى ـ يعرف أنه اذا كشف عن سرعة تأثره فى الحياة اليومية ، فغالبا ما يتعرض لخطورة استغلال الناس له انه يدرك بحسه أنه اذا أمسك بجزء من نفســـه ، كاحتياطى لحماية سرعة تأثره هذه ، فسوف يحصل بالتالى دائما على الحب الجزئى الذى يعطيه فحسب ، ولذلك ، فالفرصة التى لديه للحصول على عمق فى الحب ، هى أن يعطى كل ما عنده • ومع ذلك يكتشف أنه عندما يعطى كل ما لديه ، فكثيرا ما يتـــرك وليس لديه فى المقـــابل الا القليل ، أو لا شىء •

انه يعرف أنه يجب أن يثق ويؤمن بالحب ، لأن هذا هو الســـبيل الوحيد للحب • ومع ذلك ، فلو أنه عبر عن ثقته وايمـــانه ، لما تردد المجتمع عن استهجانه واعتباره أحمق • واذا كان لديه أمـــل فى الحب ويعرف أنه بهذا الأمل ـ فقط ـ يمكنه أن يجعل حلم كل الانسانيـــة المحبة حقيقة ، فان المجتمع يسخر منه باعتبار أنه حالم مثالى • واذا لم يسح

الى الحب بشكل جامح وأعرض عنه ، فسوف يكون موضع شك وريبة ، ويتهمونه بأنه عاجز فى رجولته و « شاذ » • ومع ذلك ، فهو يعرف أن الحب لا يسعى اليه ، اذ أنه فى كل مكان ، وأن البحث عنه خداع نفس ، تمثيلية تخديرية • واذا قرر أن يقضى كل لحظة من حياته ، عائشا فى الحب ، لايمانه بأنه أعظم وقعية وانسانية عندما يعيش الحب ، فان المجتمع يدمغه بأنه رومانتيكى ضعيف العقل • ان الحب وممارسات العالم الواقعى يبدوان على نقيض • ولا عجب أن أناسا كثيرين ليست لديهم الشجاعة لمحاولة سد الفجوة ، لأنه ــ بالممارسة ــ تبدو الفجوة غير قابلة لأن تسد • ان لدى الانسان ــ من ناحية ــ الفهم والدوافع من أجل النمو فى الحب ، ولكن المجتمع ــ من ناحية أخرى ــ يجعل هذه المعرفة صعبة عمليا • ان حقيقة المجتمع تختلف عن حقيقة الحب •

ولكى تنفتح للحب •• لكى تثق وتعتقد فى الحب •• لكى تأمل فى الحب ، وتعيش فى الحب ، فانك تحتاج الى أعظم قوة • ومن النادر تجربة هذه الحالة فى الحياة الواقعية حتى ان الناس لا يعرفون كيف يواجهونها ، حتى عندما يكتشفونها • انهم يصلبون « **مسيحا** » ، ويعدمون « **غانديا** » رميا بالرصاص ، ويضربون عنق « **تــوماس مور** » ، ويدســـون السم « **لسقراط** » • ليس فى المجتمع الا مكان ضيق للشرف أو الحنان أو الخير أو العطف • فهذه تأتى عرضا فى طريق « مسار العالم » • ولقد كانت هذه الظاهرة هى الأساس لأعمال أدبية عظيمة ، من جمهـــورية أفلاطـون ، « والعبيط » **لدوستويفسكى** ، الى « آلام السـيد المسيح اليونانيـة » Greek Passion **لـكازنتزاكس** « والنـــاصرى » **للويس بونيـــل** • انها تكاد تشبه اللعبة •• ، فالناس يبحثون عن شخصية يمجدونها ، انهم يختارونها بعناية وينفقون بعض الوقت عند أقدامها تزلفا ، ثم تراهم بعد ذلك يحصلون على ارتياح عظيم فى ذبحها ، وكأنهم لا يقدرون على التعامل مع الكمال ، كأنما يسبب لهم أن ينعكس الأمر على أنفسهم ويحركهم لكى يتغيروا ، ومجرد التفكير فى ذلك متعب ومؤلم ، فمن الأسهل عليهم ألا يروا الكمال أو يشغلوا أنفسهم به • وعندئذ يمكنهم أن يقنعوا بما فيهم من نقص •

حقيقة ، أن الانسان لايتحرك فى عالم من المحبين • فلو أنه يتعامل فى عالم الناس وواقعهم ، فأكثـر الاحتمالات أنه سوف يلتقى مع الأنانية والقسوة والخداع والتلاعب ويحب الطفيلى من الأفعـال • ولو أنه اعتمد على العالم الواقعى خارج نفسه من أجل التدعيم ، لزال وهمه ، ولاكتشف سريعا أن المجتمع والناس يبعدون كثيرا عن مرتبـــة الكمال • ذلك لأن مجتمعه من صنع أناس بعيدين عن الكمال • ولكى يجارى ما يجده فى

مجتمعه ويظل يعيش فى الحب ، يجب أن يمتلك القوة ، ولسوف يبقى حيا — فقط — اذا ما بقيت هذه القوة داخل نفسه ، ويجب عليه اذا طرح حبه على العالم ورفضه ، ألا يوجه ملامته الى العالم بسبب تبلد شعوره ٠

الحق أنه اذا لم يجد حبا ، فان اللوم يقع على حقيقة أنه هو نفسه خلو من الحب ٠ **ان عليه أن يمتلك الحب فى نفسه بشكل آمن ٠ يجب أن** يكرس نفسه للحب ٠٠ أن يكون عاقد العزم فى حبه ، وغير متذبذب فيه ٠ يجب ألا يكون مثل **كانديد** الأحمق **لفولتير** ٠ وأن يميز الخير فقط حتى حيث يوجد الشر ٠ وعليه أيضا أن يعرف الشر والكراهية والتعصب الأعمى كظواهر حقيقية ، ولكنه يجب أن يرى الحب باعتبـــار أنه القوة الأعظم ٠ وألا يشك فى هذا ، ولو للحظة واحدة ، والا كان نهبا للضياع ٠ ان خلاصه الوحيد هو أن يهب نفسه للحب ، بنفس الطريقة التى سلكها **غاندى** فى كفاحه السلمى ، ومثلما فعل **سـقراط** للحقيقة ، ومثلما فعل **المسيح** للحب ، ومثلما فعل **مور** للاستقامة ٠ عندئذ فقط ستكون لديه القوة لمقارعة قوى الشك والفساد والتكذيب ٠ ولن يعتمد على أحـــد ما أو شىء ما ، فى سبيل التدعيم والاستيثاق ٠ وانما اعتماده على نفســـه فحسب ، وقد يكون هذا الطريق موحشا ، ولكنه سيكون أقل وحشـــة اذا ما تفهم ما يلى :

— أن وظيفته الرئيسية هى أن يعمل على الكشف عن نفسه الحقيقية ٠

— وعلى قدم المساواة مع هذه الوظيفة مساعدة الآخرين لكى يصبحوا أقوياء ، ويهذبوا أنفسهم كأفراد متفردين ٠

— أنه سيؤدى ذلك على الوجه الأكمل باتاحة الفرصة لكل الأشخاص لاظهار شعورهم ، والتعبير عن طموحاتهم ، واشراك الغير فى أحلامهم ٠

— يجب أن يرى القوى التى تسـم « الشر » على أنه منبثق من أولئك المعذبين الذين هم — مثله — « آدميون » ولديهم الاستعداد ، ويحاولون تهذيب « كيانهم » ٠

— يجب أن يكافح ضد قوى الشر هذه من خلال حب فعال يوجه اهتماما عميقا بالمساعى الحرة التى يبذلها كل شخص لاكتشاف ذاته ٠

— يجب أن يؤمن بأن العالم ليس هو القبيح والمر والهدام ، ولكن الذى فعله الانسان للعالم هو الذى جعله يظهر هكذا ٠

— يجب أن يكون نموذجا · ليس نموذجا للكمال ـ وهي حالة لا يدركها الانسان عادة ، ولكن نموذجا للانسان كبشر · ذلك لأن كونه انسانا خيرا هو أعظم شيء يستطيع أن يكونه ·

— يجب أن يكون قادرا على أن يغفر لنفسه كونه دون حد الكمال ·

— يجب أن يفهم أن التغيير حتمي ، وأنه عندما يحدث هذا للحب وتحقيق الذات ، فهو خير دائما ·

— يجب أن يقتنع أن السلوك ـ لكي يتأتي تعلمه ـ يجب أن يتم اختباره عمليا « أن تكون » تعني « أن تفعل » ·

— يجب أن يعلم أنه لا يمكن أن يحبه كل الناس ، فهذا هو المثل الأعلى · أما في عالم الناس ، فان هذا المثل من النادر وجوده · انه يمكنه أن يكون أبدع خوخة في العالم ، ناضجة وريانة وحلوة ونضرة ، ويقدم نفسه للجميع · ولكنه يجب أن يتذكر أن هناك أناسا لا يحبون الخوخ ·

ان تعيش في حب هو اعظم تحديات الحياة ·

— يجب أن يفهم أنه اذا كان أبدع خوخة في العالم ، وأن شخصا ما ، ممن يحبهم لا يحب الخوخ ، فان لديه الاختيار في أن يصبح موزة · ولكن ينبغي أن يحذر أنه اذا اختار أن يصبح موزة ، فسيكون موزة من الدرجة الثانية ·· ولكنه يستطيع أن يكون دائما أفضل خوخة ·

— يجب أن يدرك أنه اذا اختار أن يكون موزة من الدرجة الثانية ، فسيخاطر أن يجده الشخص المحب درجة ثانية في الأفضلية ، وأن المحب يبحث ـ فقط ـ عن الأفضل ، ومن ثم ينبذه ، ويمكنه عندئذ أن يقضي حياته محاولا أن يصبح أفضل موزة ·· وهو أمر مستحيل اذا كان هو خوخة ·· أو يمكنه أن يسعى ثانية ليكون أفضل خوخة ·

— يجب أن يحاول أن يحب كل الناس حتى اذا لم يكن محبوبا لديهم ·· انه لا يحب من أجل أن يكون محبوبا · انه يحب لأنه يجب أن يحب ·· يحب الحب لذاته ··

— **يجب الا ينبذ اى انسان ، لأنه يدرك أنه جزء من كل انسان ، وأنه بنبذه حتى لانسان واحد ، انما ينبذ نفسه ·**

— **يجب ان يعرف أنه اذا أحب كل الناس ، وأنه منبوذ من واحد منهم ، فما ينبغى أن ينسحب فى خوف أو ألم أو خيبـــة أمل أو غضب · انه ليس خطأ الانسان الآخر · انه لم يكن مستعدا لما قدم له · ان الحب لا يعطى بشروط · ويكفيه كمعط للحب أنه كان محظوظا أن لديه حبا ليعطيه ، لأنه يشعر بالبهجة فى العطاء ، لا من أجل ما قد يحصل عليه فى المقابل ·**

— يجب أن يفهم أنه اذا نبذ فى حب ما ، فهناك مئات آخرون ينتظرون الحب وينشدونه ·· ان فكرة أنه ليس هناك سوى حب واحد صحيح هى خدعة · فهناك الكثير والكثير ·· من الحب الصحيح ·

ستساعد هذه الأفكار فى اعطائك القوة لتكون محبـــا ، لأن الأمر يقتضى – لتكون محبا – أن يكون لديك باستمرار فطنة الحكيم العاقل ، ومرونة الطفل ، وحساسية الفنان ، وفهم الفيلسوف ، ورضى القديس ، وسماحة المتفانى ، ومعرفة العالم ، وثبات المتيقن ·

سلسلة طويلة ! وستنمو كل هذه الصفات فى ذلك الذى يختـــار الحب ، لأن هذه ما هى الا جزء من قوته الكامنة ، وأنها سوف تتحقق من خلال الحب · وعندئذ ، ستحب طريقك للحب ·

★★★

الحب لا يقـدم اعتـذارا

« انني اذا لم أومن بأن أقل النـاس شأنا فى القرية ند لى ولم أكن فخورا بأن أجعله يسير معي كصديق ، فانى لن أخط كلمة أخرى ·· فتلك هى قوتى » ·

ادوارد كاربنتر
Edward Carpenter

— ١١ —

لم يزد هذا الكتاب القصير عما كنت قد وعدت · فهو ليس عمـلا فلسفيا عميقا ، أو حاسما عن الحب ، كما أنه ليس ارتيادا علميا لآفاق ظاهرة الحب · ان مثل هذه المسئولية ينبغى أن يتولاها رجل — أو امرأة — أكثر منى حكمة وخبرة وشاعرية ومعرفة ·

وانما هذا الكتاب قد قصد به أن يكون مشاركة · انه ، بهذا المعنى ، عمل من الحب · وسواء ألاقت الرسالة قبولا أم لم تلاق ، فانهـا كانت تستحق الجهد · لأنى — فى كتابة كتـــاب عن الحب — قد عرضت نفسى عمدا للثناء أو للسخرية ، للقبول أو الرفض ، لقد جعلت نفسى معرضا كلية للطعن · والتعرض للطعن دائما فى قلب الحب ·

« ·· ونحن أنفسنا سوف نحب لفترة ثم ننسى · ولكن سيكون الحب كافيا ، فكل نبضات الحب هذه تعود للحب الذى صنعها وحتى الذكرى ليست ضرورية للحب · هنـاك أرض للأحيـاء وأرض للأموات ، والجسر بينهما هو الحب ، انه الحق الوحيد ، والمنقذ الوحيـــد » ·

ثورنتـــون وايلدر
Thornton Wilder

ولقد عبر الأب وليم دو باى عن ذلك تعبيرا أفضل بكثير ، عندما قال :

ـ ان أعظم شيء انسانى علينـــا أن نفعله فى الحياة هو أن نتعلم كيف نعبر عن معتقداتنا وأحاسيسنا ونعيش مع العواقب ٠ هذا هو المطلب الأول للحب ، وهو ما يجعلنا معرضـــين للطعن من الآخرين ، الذين قد يسخرون منا ٠ ولكن تعرضنا للطعن ، هو الشيء الوحيد الذى نستطيع أن نعطيه لغيرنا من الناس ٠

نعـــم ٠٠٠ !

★★★

المــــؤلف

ليوبوسكاليا ، دكتوراه ، أستاذ للتربية بجامعـة جنوب كليفورنيا·
وقد عرف الدكتور بوسكاليا عالميا من خلال محاضراته ونشاطاته العديدة ·

ولدرايته بالحياة ، انشــــاء برنامجــا عن « الحب » كمقرر تعليمى بجامعة جنوب كاليفورنيا ـ USC **وكتاب الحب** هو نتيجة التفاعل مع طلابه فى هذا البرنامج · ونظرية **الدكتور بوسكاليا** الأساسية هى أن الحب مكتسب بالتعلم وأن كل واحد يمكن ويجب أن يتعلم الحب ·

ومن خلال تدريسه ومحاضراته وكتاباته ، **يضفى ليوبوسكاليا** تأثيرا فى الوقت المناسب علينا جميعا ، عندما **يخبرنا** :
ـ ما الذى تعنيه هذه الحياة ·· حقا ·

المترجـــم

اقرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطــة مقــابل نقطــة	الدس هكســـلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت ٠ و ٠ فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايموند وليـــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـــامضة	ليســـترديل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر ألـــن
المرشــد الى فن المسرح	لويس فارجـــاس
آلهــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشــاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولــكف
الهوية القومية فى السينما العــربية	هاشــم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيــد وليــام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـــزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموســوى
ديــلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانســان ذلك الكائن الفــريد	جـــون لويس
الرواية الحـــديثة	جـــول ويست
المسرح المصرى المعـــاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـــود طــه	أنـــور المعـــداوى
القـــوة النفســية للأهـــرام	بيــل شــول وادبنيت
فن الترجمـــة	د٠ صـــفاء خلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلـــو
ســـتندال	فيكتـــور برومبير

العنوان	المؤلف
رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د٠ اينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

٧٨٤٧

نظـريات الفيلم الكبرى	ج· دادلي انـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جـوهان دورشـز
حـرب الفضـاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د· السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د· مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف · س
اجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـوس
التجـربة اليـونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمدارس	رونالد د· سمبسـون
الشارع المصرى والفـكر	د· أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روسـتو
تبسـيط الكميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون يوركهـارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاسـبيار
التخطيط السـياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل
	شـاندرا ويكـراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفـوظ على الشـاشة	هاشـم النحـاس
صـور افريقيـة	دوركاس ماكلينتـوك

المخــدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتــــر لــورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليـــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيــة أســماك الزينــة	ديفيــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جــون ر ٠ بورر وميلتون جــولد ينجــر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	أرنولد توينبى
قضــايا وملامح الفن التشــكيلى	د٠ صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخــرون
بـداية بلا نهـــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو ســديرة
حــوار حــول النظــامين الرئيســيين للـــكون	جاليــــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هــو
اخنـــاتون	ســيريل الــدريد
القبيــلة الثــالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التــوافق النفسى	توماس ا ٠ هــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمــوعة من البــاحثين
لغـــة الصـــورة	روى ارمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجــاى متشــيو
العـــالم الثــالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اســماعيل
الحيـــاة الكريمة (٢ ج)	بيــــرتون بورتر
الشـــاهنامة (٢ ج)	الفــردوسى الطـــوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميــــرى
ترانيم زرادشــت	اختيار / د٠ فيليب عطيــة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخــرون

دليـــل تنظيم المتـاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ســـتيفن أوزمنت
الحملة الصــــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بـول كولنــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيــر برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفــريد ج ٠ بتــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمــا
انهم يصـــنعون البشر (٢ جـ)	نانس بكــارد
فى النقد السـينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راصـــل
الأزهــر فى الف عــام	بينـــارد دودج
رواد الفلســـفة الحــديثة	ريتشـــارد شـاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـاك كرابس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اسـحق عظيمـــوف
مدخـل الى علم اللغـــة	لوريتـو تـود
حـديث النهـر	اعـداد/ سرريال عبـد الملك
من هم التتـــار	د٠ أبرار كريم الله
ماســـتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـالم تاريخ الإنسانية (٤ جـ)	هـ ٠ ج ٠ ولـــز
الحمـــلات الصـــليبية	ســتيفن رانســيمان
حضـارة الاسلام	جوسـتاف جرونيبـاوم

رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداری
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو في السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج سايتر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب . ناش
أنواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ جـ	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف يندهام
المرأة الفرعونية	كريستيان ديوريروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٣٩٠

ISBN — 977 — 01 — 4720 — 6